البحـث عـن ابتسـامـة

(قصص قصيرة)

محمد المنصور الشقحاء

الطبعة الثانية

2023 – 1444

الفهـــرس

مجموعة / البحث عن ابتسامة . . .

ـ المنحوسة وتذكرة سفر إلى القدس

ـ الأخوات الثلاث

ـ انه ولد

ـ نورة

ـ الهندية

ـ أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية

ـ المرسوم

ـ حلم

ـ وارتفع الصخب

ـ الحنين واللحظات المفاجئة

ـ المفترق العاق

ـ عندما فات الوقت

ـ ذات يوم

ـ نقطة اليأس

ـ البحث عن ابتسامة

ـ الأقزام تنتحر

ـ عين من دم

ـ الطموح

ـ النجوم تقدم العزاء

ـ اللعبة الأخيرة

مجموعة / حكاية حب ساذجة . . . .

ـ الحرمان

ـ الهروب وبحث المجاز

ـ إنهم يبحثون عن الزهور

ـ عندما تطل الأصوات خجلة

ـ غدير البنات

ـ سوف يعود

ـ الخوف

ـ الأمل والفصول الأربعة

ـ القفز على جدران الفراغ

ـ وكف عن التلفت

ـ عملية إحصاء

ـ حكاية حب ساذجة

ـ الرواسب

ـ المولود الثاني

ـ عندما تتلون الصداقة

ـ الحزن وأحلام اليقظة

ـ دمعة كبيرة

ـ أناس يعيشون الحياة

ـ ويخاف الحب

ـ أنهم يعودون

ـ القمر بزغ مرة ثانية

ـ أشياء صغيرة

مجموعة / الزهور الصفراء . . . .

ـ البحث عن بقية

ـ في انتظار الحافلة

ـ أهازيج ميلاد جديدة

ـ هروب

ـ الزهور الصفراء

ـ أوراق اليانصيب

ـ رجل يبحث عن وظيفة

ـ أوراق من يوميات امرأة عاملة

ـ الليل الذكرى المرتخية

ـ النار وأعياد الميلاد

ـ الصورة

مجموعة / الانحدار . . . .

ـ النهر

ـ البكاء

ـ الانحدار

ـ الرقية

ـ القطار

ـ العشاء

ـ المعاق

ـ الصلاحية

ـ الحافلة

ـ العيد

ـ الطريق

- مي

في البدء :

يضم هذا الإصدار قصص:

طبعة خاصة وتذكارية

1 ـ مجموعة البحث عن ابتسامة / الطبعة الأولى صدرت ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام 1396 / 1976

2 ـ مجموعة حكاية حب ساذجة / الطبعة الأولى صدرت ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام 1399 / 1978

3 – مجموعة الزهور الصفراء / الطبعة الأولي صدرت ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام 1404 / 1984

4 – مجموعة الانحدار / الطبعة الأولى صدرت ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام 1413 / 1993

البحث عن ابتسامة

عزيزي القارئ . .

منذ قيام نادي الطائف الأدبي وضع ضمن أهدافه الجوهرية نشر وطباعة وترجمة وتحقيق الكتب والمخطوطات سواء منها تلك التي تختص بتراث مدينته الحبيبة او تلك التي انتجها أعضاء النادي ولم يستطيعوا قبل قيام النادي نشرها .

وهذا الكتاب الذي بين يديك هو لاحد أعضاء النادي من الأدباء الشباب الذين يتمتعون برؤية أدبية جديدة وثقافة عصرية جيدة وعبارة مشرقة وهو الى جانب هذا كله احد المؤسسين للنادي ومن العاملين فيه بتحمس وفعالية ومثابرة ايمانا منه بفلسفة النادي وحبا منه للأدب ولمدينته.

اننا نقدم هذه المجموعة القصصية الأولى – اليك – لسكرتير النادي، بعد ان اوصت بطباعتها لجنة القصة بالنادي راجين ان تحوز منك الرضا ومؤملين أن تتبعها مجموعات أخرى قريبا .

وعلى الله قصد السبيل

الطائف 2 – 2 – 1396 رئيس نادي الطائف الادبي

حمد الزيد

المنحوسة

وتذكرة السفر إلى القدس

وتلفتُّ حولي ، أبحث فيهم عن شيء غير الصورة التي شدت بصري ، من أول خطوة خطوتها داخل المعسكر ، وتناثرت أسئلتي على الأرصفة المغبرة تسأل المارة عن حقيقة ما أشاهد . كان يطل من عيون الجميع الجوع واللهفة .. الخشية ومسامير الترقب تملأ الأحداق دماً ..

أخذت أبحث عنهم، كان كل همي أن ألتقي بأكبر مجموعة من الصبيان أسألهم هل يحبون الحرب، وماذا يتمنى كل واحد منهم. سيفاً أم بندقية. أم دبابة. أم وردة وقلماً وقرطاساً..؟

أخذ أحدهم يبكي وهو يستمع كلماتي.. سألته العجوز الواقفة ..

ـ لماذا .. ؟

ـ ألا تعلمين ؟ إن الطائرات كانت هنا .. ولم يبق من أسرته أحد..

ـ الطائرات كانت هنا .. ؟

ـ أجل أنت لست صحيفة .. كيف نحن سكان الخيام المحتاجين لقطعة رغيف ، نعلم ، وأنت لا تدرين ، رغم وجود الراديو معك وباستطاعتك اقتناء الصحف والمجلات ..

ـ آسفة يا سيدتي..

ـ وماذا يفيد الأسف ، أنت آسفة لأنك لا تهتمين بالآخرين لكن ماذا يجري مع الآخرين أولئك الذين لا همَّ لهم سوى إبادتنا نحن ، هربت وحيدة ، طوحني الهواء ، أخذ يدفعني هنا وهناك حتى وصلت إلى الجسر .. كنت أتلفت حولي أبحث عن رفيق أو مؤنس للطريق لأني أخشى غدر شيخوختي ، كان الجميع هناك .. ينتظرون .. يمضغون اللبان .. ويتعارفون رغم أن فوهات البنادق مصوبة إلى صدورهم، وببسمة الأطفال المتعلقين بأكتاف آبائهم وأمهاتهم، حاولت أن أبكي، ولكن دموعي التي شاركتني الطريق استعصت عليّ هذه المرة لا أدري لماذا.. لكن عرفت أخيراً أنها الكبرياء .. كنت أتحدى تلك البنادق والفوهات المصوبة . تلك الأحذية القذرة التي تتحكم في مصير هذا الكوم من البشر الفارين من ديارهم . كلنا نبحث عن خيمة . وسعيد الحظ من كان أحد أفراد أسرته يعمل في الكويت أو السعودية أو ليبيا أو حتى في البرازيل .

وانسحبت العجوز قبل أن أعرف شيئاً عن الطفل الباكي، وأخذت أتأمل قصتها. مصيرها أنها وحيدة وهذا الطفل وحيد. وتخلصت من المتكومين حولي ، وأخذت أسير على غير هدى أتحدث مع نفسي . نسيت آلة التصوير والقلم والأوراق .. أصبح رأسي مسجلاً يسجل كل شيء حتى صراخ الأطفال .. حديث السيدات على الأرصفة ومن النوافذ المتهرئة ، والرجال المتكومون أمام الأبواب حول راديو صغير . الريح القاسية . البرد القارس ..

كنت أحاول شيئاً لم أستطع حتى هذه اللحظة معرفته وفجأة قفزت الصورة أمام ناظري. كانت العجوز تتكلم مع الصبي أمام صنبور الماء وهي تغسل وجهه وتقبل جبينه ثم تشده من يده وتواصل طريقها جاذبة الجمع المتكوم حول صنبور الماء .. كان الخرير الناعس يفرض هيبته على الموقف ..

ـ إنها منحوسة ..

ـ من .. ؟

ـ هذه العجوز. إن نحسها سوف يلاحق الصبي . كل المجموعة التي حضرت معها ماتوا وبقيت هي. وذلك الصبي يجب انتزاعه منها قبل أن تأتي الطائرات..

لا أدري أي شيء هذا ولكنني وجدت هذه القصاصة أمامي فاغرة فاها تمد لي يدها لانتزاعها من على الطريق.. إنها صورة من الصور المفروضة على أمتنا والتي يريد العالم تكرارها، ويجد العالم فيها شيئاً ما لإزداء الوقت. أنتم يا شباب العالم فكاهة (...)؟ كانوا يتسكعون على الأرصفة .. وتحت ظلال المسجد الأقصى.. وكل ما عليكم هو شراء تذكرة سفر إلى القدس إلى أورشليم.. لمشاهدة بعلبك، ومدائن صالح..

فحضارة الغرب تتسكع هنا .. والمنارات لا زالت قائمة ممشوقة في عنان السماء.. بصقت العجوز بمرارة وهي تجرجر الصغير وراءها ..

ـ إني تعب يا جدتي ؟ ..

قال ذلك وهو يرفع عينين خطف الرعب بريقهما. وهمَّ أن يقول شيئاً ما، لكنها صدمته بصمتها، فلم يقل شيئاً وأخذ يجرجر خطاه وراءها.

كانت الغيوم تتلبد في السماء بينما هبت نسمة تحمل رائحة الأرض الطيبة . كانت خطواتهما واضحة على الأرض وابتعدا رويداً رويداً ، وسرعان ما ابتلعهم المعسكر ..

* * *

الأخوات الثلاث

في عصر يوم من أيام الشتاء القارس . وقفت فتاة صغيرة أمام واجهة المكتبة الصغيرة، وراحت تتفحص بعينيها الكبيرتين تلك الدفاتر والمؤلفات باهتمام زائد.. كانت تبحث عن شيء أو تفتش عن غرض .. وفجأة انتصبت بقامتها الصغيرة واعتدلت وقد ارتسمت على محياها أمارات الفرح والحبور ، ثم ولجت إلى داخل المكتبة تسأل عن شيء ..

ـ عمي هل باستطاعتي رؤية هذه القصة المعلقة هناك ؟ ومد محمد يده وتناول قصة الأخوات الثلاث .. قدمها للفتاة التي صاحت:

ـ ما أجملها ، هل هي للبيع يا عمي .. ؟

ـ أجل .. هل أرسلك أحد لشراء هذه القصة .. ؟

ـ كلا إنما أشتريها لأهديها لأختي الكبيرة التي لم تعد تستطيع الذهاب معي إلى المدرسة..

ـ بارك الله فيك ..

وحلّت الفتاة عقدة منديلها وأفرغت على المنضدة بضعة قروش ثم قالت :

ـ لقد حرمت نفسي من التفسح لثلاثة أيام مع بنات جيراننا ..

وألقى عليها (محمد) نظرة حالمة متألمة ثم أخذ القصة من بين يدي الفتاة وقد أدرك أنها لا تعلم ثمن القصة.. وكيف يصارحها بالحقيقة ويعلمها بأن قروشها كلها لا تكفي وأن عليها أن تنتظر أيضاً تسعة أيام أخرى حتى تجمع ثمن القصة.. ولكن نظرة الفتاة الهادئة الوادعة أيقظت كامن أشجانه وذكرياته ، وحركت في صدره صوراً تنبض بالحياة .. وسألها :

ـ ما اسمك يا صغيرتي ؟

ـ نورة ..

ـ خذي هديتك واحرصي أن لا تفقديها في الطريق.. وانطلقت الفتاة خارجة من المكتبة بعد أن ودعت صاحبها بابتسامة حلوة تشع فرحاً، وأتبعها بنظراته حتى اجتازت الشارع العام بينما

عصفت في نفسه أحزان فهيجت كربه، يا لها من فتاة حركت في قلبه جرحاً لم يستطع الزمن وأده..

ولكن ما أن أخذت الفتاة تعدو قاطعة الطريق العام ، منحرفة في شارع جانبي يؤدي إلى دار أسرتها حتى داهمتها سيارة "قلاب" مسرعة ..

منذ ذلك اليوم يتذكر ويستعيد تلك الحادثة التي أودت بوحيد ته حصة.. وما كان الزبائن القليلون الداخلون محله يشغلونه عن نفسه وللحظات رغم ما كان يبدو عليه من لطف وكياسة وإشراف ، فلا يترك عمله في المساء حتى تصدمه الحياة بفراغها ومرارتها.

وتقدم الليل وخف إقبال الزبائن أو هو قد انعدم فتنفس الصعداء وأخذ يعد نفسه لإغلاق المكتبة ..

لكن إذا بأحدهم ينتصب أمامه.. شاب في ميعة الصبا .. فنظر إليه مستفهماً وخيل إليه أنه قد ألف هذا الوجه أو رآه من قبل.. وقبل أن يتفوه بكلمة مدَّ يده بقصة الأخوات الثلاث ..

ـ هل هذه القصة قصتك .. أليس كذلك ؟

ـ أجل ..

ـ إذن أنت تذكر لمن بعتها هذا المساء.. ؟

ـ بعتها لفتاة صغيرة .. !

ـ ألم تسرقها منك .. ؟

ـ لا ...

ـ وكم دفعت .. ؟

ـ ....

ـ نحن لم نمنحها شيئاً من النقود، فكيف حصلت على هذه.. ؟

ـ ولكنها دفعت كل ما تملك..

وأمام نظرة الشاب الحائرة المتسائلة شعر بشيء من الوجل والخوف فأمسك بتلابيب الشاب وصرخ فيه ..

ـ ماذا حدث ؟

ـ لقد دهمتها سيارة هذا المساء.. وهي تحمل هذه القصة الشرطة، يهتم بها رجال الشرطة، ولكن والدتي تساءلت عندما رأتها في يدي عن سر وجودها فأسرعت إليك ..

* * *

إنّــه ولــد !

ـ أجل أنه ولد.. هكذا تدل كل الظواهر ..

بهذه الجملة أنهت فاطمة كلامها وهي تتجادل مع "أبو محمد" الذي أصرَّ على البقاء والتخلف عن العمل حتى يطمئن عليها . بينما انزوت البنات في ركن قصي من الدار يلعبن في هدوء وصمت خشية إقلاق راحة والدتهم المتمددة في الغرفة الداخلية بعد أن انهارت فجأة..

ـ إذاً الوقت حان.. ؟

ـ لا أدري .. ولكن أشعر بألم شديد يمزق أحشائي ..

ـ ما رأيك لو ذهبنا إلى المستشفى .. ؟

ـ لا . أرجوك .

ـ إذن نحضر الطبيب إلى هنا .. ؟

ـ لا مانع ولكن لم يحن الوقت بعد ..

وخرج "أبو محمد" من الغرفة ما منح "فاطمة" فرصة التأمل فرفعت رأسها إلى سطح الغرفة الواطئ وهمهمت.. إنه ولد .. لقد كان الوحم غريباً وكذلك الحركات التي تصدر من الجنين.. أجل حتى جارتنا الشابة أكدت ذلك عندما وضعت الملح على رأسي على حين غرة.. حقاً غضبت لحظتها لكن.. كانت الفرحة أكبر مما أتصور .. وهي تؤيد أحلامي .. آه .. ومرت سحابة من الألم على وجهها ولكنها لم تحاول وأد كلمتها الأخيرة .. إنه ولد .. أما "أبو محمد" فقد خرج لا يلوي على شيء محاولاً حصر تفكيره في المشكلة التي تطبق عليه بكل ثقلها.. ها هي "فاطمة" تتألم. وها هو "سمير" يساومه على ابنته الكبرى "إيمان" .. وها هو المدير الطيب ينقل من المكتب أشياء كبيرة أخذت تنهال عليه بقسوة وقوة فوق رأس "أبو محمد".. ولكنه يهمهم أخيراً .. إنه "محمد" لقد أصبح لدي ولد أخيراً وبعد سبع بنات.. أجل إنه "محمد" وليذهب "سمير" مع الشيطان وليطربق المدير الجديد المكتب بحثاً عن موظفه المهمل الذي يتغيب ولم يمر على استلامه العمل سوى يومين .. وعاد "أبو محمد" إلى الدار .. وقبل أن يلج الغرفة ذات السقف الواطئ صدمته صرخة "فاطمة" المكتومة فوقف قليلاً يفكر..

ـ أبي.أبي. .. إنها تريدك ..

ـ من .والدتكِ.كِ .. ؟

ـ أجل أرجوك بسرعة ..

ودخل الغرفة المظلمة وأخذ طريقه إلى فراش زوجته التي تكومت من شدة الألم في ركن الغرفة..

ـ ألحقني ..

ودخلت جارة الغرفة مسرعة .. ولم تلاحظ "أبو محمد" المنتصب في وسط الغرفة واحتضنت المريضة في هدوء ..

ـ أروح أجيب طبيب .. ؟

ـ آسفة مساء الخير. المعذرة. .. العتب على النظر ..

ـ أهلاً وسهلاً .. أجيب الطبيب ..

ـ انتظر .. ما رأيك يا فاطمة نروح المستشفى.. ؟

ـ لا .. لا ..

ـ إنه أفضل من هذا المكان .. وهناك تلقين من العناية الشيء الكثير..

ولم ترد فاطمة وبهتت الجارة من إصرار المريضة وتلفتت حولها تريد قول كلمة "لأبي محمد" الذي اختفى.. ودخل الدكتور مطأطئ الرأس وعاين فاطمة وهزّ رأسه وأخرج من حقيبته بعض المعدات والحقن..

ـ وما رأيك تروحي المستشفى.. ؟

ومرت موجة من الألم لم تفهم معها ما قاله الدكتور الذي سارع إلى حقنها بإبرة مهدئة وعاد الهدوء إلى الوجه المتقلص.. وشعر الدكتور بارتياح ساعده على معاينة المريضة وخرج من الغرفة وهو يقول ..

ـ بعد لم يحن موعد الوضع ..

ـ ما العمل.. ؟

ـ بعد ست ساعات تعال لأخذي من العيادة..

وغادر الطبيب الدار بعد أن نقده "أبو محمد" أتعابه مضاعفة.. وحل الهدوء بعض الشيء على الدار .. ومرت لحظات وجد فيها فرصة ليعود إلى أفكاره.. متأملاً حال زوجته والألم الذي تعيشه.. إنها ليست المرة الأولى التي تعيش فيها مثل هذه المتاعب.. ففي كل حالة وضع تقاسي .. لكن هنا فرق .. لقد انتهت التسعة أشهر وها هو الشهر العاشر ينتهي والألم يزيد والدلائل تقول إنه.. وانطلقت صرخة من الغرفة الداخلية فلم يكمل بقية خواطره .. وهرول مسرعاً ..

ـ الجنين.. لا يتحرك ..

ـ و .. ماذا .. ؟

وخرج مهرولاً يبحث عن الطبيب .. ووجده لكنه اعتذر عن الحضور مدعياً أن الوقت لم يحن وأن لديه بعض الأعمال.. وأمام إصرار الطبيب أخذ "أبو محمد" يبحث في العمارة التي يسكنها الأطباء عن آخر متخصص في الولادة .. ووجد طبيبة المستشفى العام فقرع باب عيادتها ..

ـ أرجوك أسعفينا.. !

ـ أمرك .. !

ـ إن زوجتي على وشك الوضع .. !

وأخذها إلى الدار رغم أنها كانت تتأهب للذهاب إلى المستشفى حيث حانت نوبتها في العمل.. وعاينت المريضة وخرجت من الغرفة صامتة ..

ـ هل في الإمكان نقلها إلى المستشفى .. ؟

ـ إنها لا ترغب.. وتصر على ذلك ..

وخرجت من الدار وأبو محمد وراءها، وأخذ سيارة أجرة إلى المستشفى، وهناك أخذت بعض الآلات التي تساعدها على إجراء عملية سريعة للولادة.. وطلبت من الممرضة المناوبة في المستشفى أيضاً مرافقتها ..

وقف "أبو محمد" والبنات أمام الباب الخارجي مع أحد الجيران بينما دخلت الطبيبة والممرضة إلى الدار، ومرَّ وقت استطاع فيه إقناع جاره بأن ما ذهب إليه خطأ رغم انشغال باله بما يدور في الداخل.. وأطلت ابنته الكبيرة من فتحة الباب ..

ـ أبي .. أحضر سيارة .. الدكتورة تبغي تروح ..

ولم يقل شيئاً وسارعت إحدى البنات الصغيرات إلى الموقف لإحضار سيارة أجرة، ووقفت الطبيبة ومساعدتها بالباب.. يتأهبن للرحيل .. وتقدم منهن ..

ـ مبروك الحمد لله على السلامة ..

ـ ولكني لم أسمع صرخة الوليد .. ؟

ـ البقية في حياتك لقد نزل الولد ميتاً..

ـ ولد ؟ .. و .. ميت ؟!

وأسرع إلى الداخل ، ولكن الصمت صدمه فعاد أدراجه ، ووجد الطبيبة والممرضة داخل سيارة الأجرة بانتظاره ..

* * *

نـــــــوره

ظلت برهة مترددة وهي تسمع صوت والدتها من الداخل تحادث جدتها العجوز المتمددة على سريرها والتي أطلقت عدة صرخات مملوءة بالشتائم على غنم الجيران التي ما أن لمحت الباب الخارجي مفتوحاً حتى تراكضت في جلبة لترتع في الدار ولتبحث عن شيء يؤكل .. ثم وضعت يدها على رأسها وخطت خطوات حذرة وعيناها شبه مغمضتين ..

ـ أمي.أمي. .. رأس يوجعني ما أقدر أروح المدرسة اليوم..

طفلة لم تتعد ربيعها الحادي عشر ذات وجه ملائكي أبيض مستدير.. أحد أسنان فكها العلوي بارز يثير خجلها .. عندما تهم بالابتسام تغطي فمها بيدها مما جعل أفراد الأسرة ينكتون عليها وقد أخذوا من لثغتها أداة للمزح .. ! وهم يحرجونها في شيء من الطيبة :

ـ الدفتر هذا لمين .. ؟

ـ حج (حق) حنان ..

ـ أبوك فين.. ؟

ـ في الدشان (الدكان)..

لكن والدتها لم تستمع لقولها .. إذ صرخت فيها ..

ـ أنتي لسه هنا .. ؟ وأخواتك .. ؟

ـ راحوا .

ـ يا الله الحقيهم..

ـ لكن ..

ـ اليوم السبت وأول الأسبوع ..

وتعدو لتلحق بأخواتها اللائي شكلن مجموعة كبيرة مع بنات الجيران ، وهي تفكر في ماذا سوف تلاقي من "الأبله" التي طالبتها بأن تغير كراريسها والمريول البني بآخر أزرق . لكن لم تبلغ والدتها بذلك بعد أن سمعت تهديد والدها الذي ملّ الطلبات بأن يمنعهن من الذهاب إلى المدرسة هي وشقيقاتها الثلاث .. ولحقت برفيقاتها وهي تنسى كل شيء.. لتحدث بنت الجيران "فوزية" عما أحضرت لفترة الفسحة الكبيرة من أكل، وأخذت تقلب أوراق حقيبتها؛ لقد نسيت أن تحضر وصلة التمييس (الخبز) معها بينما أحضرت "فوزية" بعض قطع الجبن البلدي وحلاوة الطحينية المتبقية من عشاء الضيوف.. وأخرجت "نورة" القروش الأربعة التي تتزود بها كل صباح من والدها وعند رأس الشارع الذي تنتصب المدرسة في نهايته كان دخان فرن "التمييس" يعانق السماء ..

مدت يدها لأخذ أحد الأقراص المرتبة بعناية في زاوية الفرن بسرعة حتى لا تستقبل أولاده: عند االمدارس.لق فيكون مصيرها بعض الشوطات بالخيزرانة التي تبرع بتا البواب العجوز (حسب ما تظن !!) بينما هو اشتراها لابنه الصغير حتى يقال إنه اتبع الطريقة الحديثة في تربية أولاده: تربية المدارس.. ؟

دخلت الفصل خلسة كأنها تحاذر أن يمسك بها أحد بينما المدرسة منهمكة عند باب الفصل تحادث زميلة وهي ممسكة بالدفاتر المصححة بطريقة تجعل البنات يحترمنها ويقلدنها في نفس الوقت.. واقتنعت أخيراً .. ودخلت الفصل وانطلقت همسة مخنوقة :

- احترام.. !

ووقفت طالبات الصف في حركة منظمة ومرَّ الدرس في هدوء لا يعكره سوى ذلك الألم الداخلي الذي بدأت مطارقه تسلب "نورة" إنصاتها من جراء تفكيرها لسماع كلمات "الأبلة" وشرحها بينما القدر يحيك خطوط النهاية .. والباب الكبير موارب والسيارات تعج بالطالبات البريئات وقد انطلقن عائدات إلى المنازل.. في الجهة الجنوبية من المدرسة كان منحنى تنزل منه السيارات إلى الشارع العام الذي يشق المدينة إذ أن السيارات تأتي من الناحية الغربية للمدرسة فراراً من الزحمة لتعبر المنحنى إلى الناحية الشرقية حيث الشارع العام أو الانحراف قليلاً ثم تسير عبر طريق فرعي على جانبه فيلا صغيرة كانت فيما سبق مستوصفاً صحياً .

وقفت "نورة" عند ركن الفيلا مع إحدى أخواتها يرقبن الباقيات وهنا انطلقت سيارة مجنونة لتطوي تحت عجلاتها إحدى بنات المدرسة وعلا صراخ البراعم الفزعات وانحنت واحدة تبكي ..

- نورة .. نورة ..

وأخذ النفس الذاوي يهزُّ الصدر الصغير في رعشات وجلة وزادها خفقان منبه سيارة الإسعاف التي تأخرت بعض الوقت لحمل المسكينة.. التي ما أن أغلق الباب عليها حتى لفظت أنفاسها..

* * *

الهنـــــديـــة

4 شعبان

وجدت اليوم دافعاً قوياً لأن أستعيد الذكرى التي نسيتها وأنا أطالع الدموع في مقلتي جارتنا الهندية المتجهة إلى الغرب تجر خلفها أطفالها الثلاثة بعد أن قام زوجها بضربها ..

لا أدري السبب ، لكن عندما قالت شقيقاتي الصغيرات جارتنا المسكينة تبكي في الشارع والأولاد يلتفون حولها .. سألت نفسي: لماذا ؟

ولكن قبل النهاية أخذت أفكر : كيف ترحل ؟ ومن أين تجد قوتاً لأطفالها ، بل أين تأوي والشتاء يطرق الأبواب في إلحاح ؟ كان ذلك في عام 1379هجرية بالتقريب .. وكنت لا أقيم ما حولي لولا حكايات جدتي التي أفتقدها اليوم..

25 جمادى 79هـ

طرقت بابنا هندية طويلة القامة تحمل على رأسها صندوقاً مليئاً بزجاجات العطور تبحث عن مشتر.. واستقبلتها جدتي ذلك الصباح بنفس مفتوحة وتطمئن الهندية وتأخذ في سرد حكايتها .. لقد وصلت الطائف مع بعض أقربائها بعد رحيل من الهند دام أكثر من سنة تضاءل أثناءه حجم الجماعة إلى أقل من النصف ..

وكان ذلك بقصد الحج وزيارة المدينة، ولكن كل شيء تغير بعد الوصول.. ماتت والدتها ووجدت في أسرة تشتغل عندها ما يحثها على البقاء .. وتفرقت الجماعة ولم تبق غير أسرة صغيرة مكونة من عجوز وابنها الذي أخذ يجمع الأخشاب لصنع الصناديق والطاولات الصغيرة وبيعها بمبالغ زهيدة.. ولكن حدث شيء لم نكن تتوقعه .. وطردتها الأسرة التي تعمل عندها لتعود إلى العجوز التي تعرفها منذ كانت هناك مترقبة شيئاً عجيباً ؟ مكتفية بالتقاط قطع القماش القديمة من الشوارع وما يجود به الجيران على العجوز وعليها من ثياب بالية ممزقة لتصنع منها أكياساً صغيرة تبيعها إلى أصحاب الدكاكين..

8 شوال

صدرت الموافقة المرتقبة لنرحل إلى الرياض ، لقد انتقل عمل والدي إلى هناك ، بعد أن رفع إلى درجة مفتش ، ليعمل بالوزارة ، وهناك اندمجنا بمجتمعنا الجديد مخلفين وراءنا جدتي التي رفضت مشاركتنا السفر راغبة في البقاء مع ابنتها – عمتي – التي كانت على وشك الوضع ..

أول محرم

الأخبار تقول : هناك أمطار ، جدتي تبعث لنا بتحياتها ، الطفل يموت بعد أن تعرض لهواء شديد ، ويذكرني هذا بشيء وهو أني عندما أكون بقرب نافذة سيارتنا المنطلقة بأقصى سرعتها أشعر أني بحاجة إلى من يسعفني وأن الاختناق يشل جسمي ..

8 ربيع ثاني 86

والدة أبي تنتقل إلى رحمة الله وها نحن نشد الرحال إلى الطائف.. كل شيء يسير حسب ترتيبه وخيط من الذكريات يمر بخاطري عن صاحباتي.. عن جيراننا .. عن المنازل الصغيرة .. وجدتي لا تمل التحدث ، تروي لي ولإخوتي ذكريات شبابها في القرية هناك فوق الجبل مع الأغنام والسماء الحانية التي تمد يدها لاحتضان أبناء رفيقتها الأزلية – الأرض – في مسيرة دائبة لا تعرف الملل ولا تخشى النهاية المرتقبة ..

25 ربيع الثاني

أخذ الاضطراب يلفنا .. علينا أن نعود بعد أن انتهت فترة الحزن والعزاء إلى الرياض.. وعلي أن أجدَّ وأخواتي لأعوض ما فاتنا من دروس .. والدتي تبكي ولا أدري لماذا ! لقد عاودتها ذكريات سحيقة مرت بها في بداية حياتها الزوجية، وجدتي تلفها بالحنان والعناية النادرين واللذين فقدتهما منذ الطفولة حيث توفيت والدتها وهي بعد لم تكمل الأربعين..

25 رمضان 88

وصل والدي إلى التقاعد منذ أيام ومراجعاته لم تفد رغم استسلام والدتي ومحاولتها في إقناع والدي بأن مهمته انتهت وعليه أن يفسح المجال أمام الآخرين ، وذوي الخبرة الجديدة حتى لا يكون هناك تأخير في المسيرة الكبرى إلى الأفضل ، ويرضى وتقرر العودة إلى الطائف وها نحن نعود ما عدا أخي الذي يدرس في الجامعة ، والذي قرر مشاركة بعض زملائه للقيام برحلة إلى المنطقة الشرقية وبعض إمارات الخليج العربي للتزود بالمعرفة والترفيه ، نشاهد أثاث دارنا يبتعد عن ناظرنا في رحلة نصل نحن قبل نهايتها لنستقبله ولنعيد توزيعه في غرف منزلنا القديم ..

7 محرم 89

الصيف يقرع الأبواب والأحاديث تدور حول المصطافين ، وأشياء أخرى، وأنا أستعيد أشياء كثيرة من ذكرياتي وإن نسيت الكثير ، لكن هناك وهنا أقابل وجوهاً مألوفة لا أدري عن أصحابها شيئاً ، إنما أجد في نفسي دافعاً يقول أني كنت أعرف أصحاب هذه الملامح ، وأني قد عشت لحظات أتفرس بها وتتفرس بي وتضحك .. !

5 صفر

وجدتها من بين الوجوه التي حولي .. طويلة نحيلة ، تحمل صندوق العطور فوق رأسها لا صدر لها تمشي معتدلة القامة .. ولكن وراءها ثلاثة أطفال.. إنها الهندية – صاحبة جدتي – ولم تعرفني ولكنها تعرف عمتي حيث أن منزلها لا يبعد كثيراً عن حينا، تدور باحثة عن مشتر..

30 ربيع الأول

عرفت حكاية غريبة اليوم، ولكن لا أدري ما صحتها ؟ هناك جار منزله يقابل منزلنا، ومنذ أن وجدت وأنا أعرف أنه لا شغل عنده ولا عمل سوى البحث عن مقاول تعهد ببناء منزل له، ولكن عندما أنهوا بعض مراحل الهدم اختلفوا وهنا فر المقاول.. ومنذ ذلك العهد الذي أجهله وهو يبحث حتى آخر الليل يقف في الزوايا وعند الأبواب ينتصب.. أتت الشرطة لأخذه بعد أن حاول ابتزاز جار له بكشف سيرة زوجته السيئة..

أول رجب

الهندية تذكرني .. تشدني إلى الماضي لأبحث في أحاديث من حولي عن شيء عنها، ولكن لا شيء، لقد تزوجت ابن العجوز.. ولكن ابنتها الكبيرة مجهولة الأب رغم معرفة الجميع بأن زوجها يدعي بنوتها، ولكنها لا تهتم بشيء سوى التطلع والتفرس في وجهي لعلها تبحث عن ماضيها العتيد وذكريات شبابها..

15 رجب

حضر أخي الكبير من الرياض .. ليبقى عندنا أياماً ثم يعود ، ووالدتي تحاول إقناعه بالزواج ؛ لأنها تخشى عليه ، وهو وحيد من قرناء السوء .. ولكن هناك شيئاً ضعيفاً وجدته في حركاته عندما يشاهد الهندية وبحثت عن السبب لكن ذاكرتي لم تسعفني بشيء، ووجدته ذات مساء يتطلع في شيء من الخوف إلى الهندية التي انتصبت أمامه وفي يدها ابنتها الكبرى ، ولم أسمع سوى أني لا أعرفك ، ولا أعرفك .. ولكنها تصرُّ وتجادل بصمت ثم تتفوه إنها ابنتك ، أنت السبب في وجودها ، وعندما اقتربت وجدها فرصة ليهرب .. ليرحل في مساء ذلك اليوم ..

17 رجب

وضحت الحقيقة .. عرفت اليوم من حديث دار خلسة بين عمتي والهندية بأن أخي هو الذي أغواها وهي بعد فتاة تعمل لدى أحد معارف الأسرة.. كانت في المطبخ تعد بعض متطلبات الوليمة، وفجأة انتصب أمامها.. وبعدها لقيته كثيراً حتى أنه أخذ يزورها في غفلة من الجميع.

2 شعبان

الاثنين.. بنات الهندية الثلاث يحضرن كل مساء للتفرج على التلفزيون عندنا، وأتفرس في البنت الكبيرة.. أسألها عن اسمها وعن أمها وأبيها، وأنا أبحث في تقاسيم وجهها عن شيء يشبه أخي، ولكني لا أخرج بنتيجة.. فهناك عوامل تتصارع في داخلي وترسم صوراً قاتمة، لا أدري ما لونها عن الحياة والفقر، وذلك السر الذي يقف أمام الجميع وتتحطم عليه القيم الإنسانية، والمثل التي لا توجد لها صورة حقيقية عند الكثيرين من ذوي المبادئ المختلفة.. وأشياء كثيرة نرسمها ونجهل إلى أين تصل بنا.. ولكن كيف تورط أخي معها ؟ هذا ما لا أعرفه ..

3 شعبان

وصلت إلى شيء من الحقيقة بعد أن ضج رأسي بالأفكار والتناقضات .. كانت تحمل كل مساء الطعام .. للعجوز وابنها الشاب ..

كانت تنام بعض الليالي أثناء معاودة المرض لها .. ومن هنا كانت البداية .. لكنه تغير عليها ذات مساء عندما لم ترضخ لطلباته بأن تبحث عن ما هو أثمن من الطعام لدى أسيادها ووجدت في أخي طفولة وسذاجة تحتاج لشيء، وكانت تريد منه أن يقدم لها ثمناً لما تقدمه ولو كان مسروقاً.. لا تشعر بالذنب، ولا تجد في ذلك العناء الكثير أو الخوف الذي قد يفضحها ذات مساء.. ولتقنع صديقها بالزواج بعد أن أخذت معالم الجريمة تتكون في أحشائها..

* * *

أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية

(1)

وأنصت .. نعم اليوم اقترب والجموع تعد العدة، فالدعوة مفتوحة للجميع، كل شيء ممهد، وخط طويل يسيطر على الجميع.. المناكب تلتقي ، والمقل شارقة بالدموع، بالأمل ، بالنهاية السعيدة .. كل ذلك منذ عام ..

وها هو يمر بنا عام ..

والجوع ينهش صدري .. يمزق أحشائي بعد أن أعياني الانتظار ، بعد ان وجدت دارنا تبتعد .. تسبق الشمس الغاربة .. يبتلعها مد البحر العاتي .. فإذا بي أعود إلى خيمتي، وقد لفت انتباهي مجموعة من صبيان المخيم يتهامسون، ثم ينطلق كل في طريق وتبتلعهم الزوايا.. وتمر الدقائق، وإذا بحركة غريبة ومجموعة من الرجال يقتربون يحملون شيئاً.. كان ابن جارتنا العمياء، وقد فارقته الحياة، وبسمة لونها الألم فوق فمه الصغير..

خط طويل يسيطر على الجميع، خط من الدم يقبل الثرى، يشير إلى دارنا القديمة، إلى قريتنا الخربة في أرضنا المسلوبة..

(2)

ماذا يعني كل هذا ؟ الطبل تقرع ، تصم الآذان ، تكون شلالاً من الضجيج ، وأنا ما زلت واقفة أمام باب خيمتنا ، أستجدي المارة .. أخي الصغير (ضاع) ، كان هنا في الصباح يلعب بدميته القديمة ، يصرخ في بائع البرتقال الفتي ..

ـ لماذا لا تنضم إلى الفدائيين ؟

لماذا .. لا تترك عربتك المتداعية هذه جانباً.. ؟ وها هو يطالعني .. بائع البرتقال..

ـ أخي .. هل رأيت أخي ؟ ..

وألقى الفراغ في عينيه .. لم ألق غير الصمت الرهيب .. لقد عاد آخر الليل طفلاً محمولاً أخذه الرجال إلى البعيد .. إلى سفح الجبل ، الذي يحجب عنا الرياح ، ينتظم في سلك الشهداء من رجال الفداء ..

كان صبحي قد تخطى الأسلاك الشائكة فإذا بقميصه يعرقل خطاه وتخترق صدره رصاصة الغدر والخسة والنذالة.والإجرام. ..

(3)

إنه اليوم الألف بل المليون .. وأنا أشعر بساقي لا تطيقان حملي.. أمي الربو يكتم أنفاسها.. أبي كالمجنون في ركن خيمتنا، يهمهم بكلمات لا تفهم.. (سماح) تبتسم للجميع، إنها طفلة لا تفهم..

وبطاقة المؤن الصفراء يأكل أطرافها القدم .. وهم يعصرني أن في أحشائي جنيناً .. ترى .. ؟ أيشاهد أباه.. ؟ ماذا أقول له عندما يكبر ؟ عندما يقول أين أبي ..

هل أقول استشهد عن طريق العودة ؟ أم أقول له ذهب ولم يعد ، ولكن هناك سؤالاً قد يواجهني به ؟

أهو ذهب لوحده، أهز رأسي بلا إيجاب، أيصدق أن أباه ذهب لوحده ليمهد طريق العودة.. ليصرخ في اليهود هذه أرضي.. اخرجوا منها، أترثونني ؟ أتأخذون حقا ابني.. ؟ غريبة كل شيء أم تراه سوف يجف حلقه ويكتم أنفاسه انتظاري الطويل في طابور دقيق السوس.. ؟

(4)

جارتنا (سلوى) لم تعد مساء أمس من صنبور المياه ، أمها تبكي بحرقة ، وكادت تزيد آلامنا إذ همّت بإحراق الخيمة ، ولكن لحقت بها وأمسكت بيدها المرتعشة ، واغتصبت علبة الثقاب من بين أنينها ، لا حق لي في استعمال قوتي وشبابي على امرأة شرب الدهر من دموعها ، أكل جسمها حتى بدت الغصون ترسم ظلم القدر ..

مرَّ يوم وسلوى ما تزال مفقودة وأنا أشعر بوحدة.. أبي أخذ هذيانه يزداد ، بل فقد إحساسه فكان ينام .. وسماح تتوسد صدره ..

ماذا بقي لي غير أن الغثيان يدفعني إلى القيء وأحشائي تسبقني في كل ناحية..

الليل ساعاته طويلة.. آه ما هذا الألم.. ؟

(5)

عدت إلى رشدي .. طالعتني مقلتي أبي الدامعتين، وبسمة واهية ترف على حاجبيه.. أشعر بشيء غريب حولي .. وإذا بالصراخ يصدمني ، لقد وضعت البارحة .. ولكن هذا الظل الطويل الذي ينتصب على باب خيمتنا أني أعرفه.. الفرحة تأخذ بمجامعي .. الدموع تسبقني .. وتقدم نحوي عاقداً زنديه على صدره يحمل لفافة بيضاء .. كان زوجي (منصور) وبريق الفرح يطل من مقلتيه .. وتلاقت العيون في عناق طويل .. قرب طفلي مني ..

ـ قبليه ..

إنه عودة .. نعم سوف يكمل طريق العودة .. إن استشهدت اعتني به، أعديه لليوم المرتقب.. ازرعي في صدره خنجراً يصرع الأعداء القادمين من وراء البحار النتنة.

(6)

اليوم معركة من الصباح ، الحشود على الحدود ، الطائرات تلقي بمنشورات تدعو المواطنين إلى الهدوء ، والتمسك بالسكينة ، لكن ما هي السكينة ؟ وأي شيء بقي لنا بعد أن فقدنا بياراتنا .. دارنا المعلق فوق الجبل الأشم ؟ طفلي (عوده) أخذ يبتسم لي ، يبحث بين الوجوه عني .. لقد غابت عيناي وبرزت نواجذي .. لا خبر عن منصور .. الطلقات تحملها الرياح من وراء الجبل .. غارة.غارة. .. السماء سوداء.. الطائرات تلقي بالحمم.

رحماك يا رب إنني بائسة . إلهي لا شيء بيدي.. وأمسك بيد سماح .. أحمل عودة .. أجري وراء أبي الأعمى، لقد سلب البكاء من عينيه النظر.. الصراخ يرتفع إلهي أين أبي؟ ..

ونعود نبحث بين الرماد عن البقايا.. وينطلق المذياع المجنون .. لقد قام الجيش الباسل بحملة تأديبية على أوكار المخربين وتم القبض على مجموعة يرأسها المدعو محمود الشيخ عرب .. يا للمجرمين .. إنه أبي الأعمى المتداعي .. إنه جد (عودة) .

(7)

الجوع ينهشني .. لم يبق في مقلتي دمعة وأنا أودع – عودة – عند باب ملجأ الأيتام، سوف تنسيني الأيام والهموم والمتاعب التفكير فيه.. غداً ترحل المجموعة الأولى من النساء إلى الشمال إلى مخيم جديد نصبته الأمم مؤخراً بالتعاون مع الصليب الأحمر .. والحكومة رشفت آخر جرعة من ماء النبع الذي يوازي مخيمنا المحترق .. إني أشاهد ظلاً كبيراً يقترب .. الظلال تلف الجميع .. المطر ينهمر، إلهي ما كل هذا ؟ أطلقت صفارة الإنذار .. أظن خطأ .. ما سمعنا ليس سوى لغم أرضي أعده الفدائيون.. إنه بقايا لغم من عام 47، لا من ألغام 67 الجادة الحاقدة التي تزرع الموت في كل زاوية.. ارتجت له الديار الفلسطينية .. سمع صداه المغرب العربي ، ثارت لأجله أمواج الخليج العربي ..

وشعرت بالجوع .. وأنا أتلفح بثوبي البالي لأسير وحيدة في الطريق الطويل وقطرات من الدم تدلني طريقي.. إنها الزهرات التي خلفتها قطرات دم أخي ذات مساء ..

(8)

الحقد.. الحقد يزرع صدري شوكاً .. يدفعني إلى التقلب كل مساء في فراشي البالي، لقد كانت رحلتنا طويلة.. وكان حظي أن تضمني خيمة عجوز وابنها المريض الذي يجهش كل لحظة بالبكاء لفقد المقدرة على المشاركة في الجهاد المقدس في سبيل الوطن..

كان يبكي وأنا أنصت لبكائه المرّ، ثم أواسيه وأنا أزرع الأمل في صدره، لكن يده تبدو كأنها وحش أسود معروفة متصلبة الأصابع.. ألمحها كل دقيقة في منامي، وأتخيل منصور وهو يبكي حاله.. وفي لحظة غفوت سرقني شعوري ، شعرت باختناق ، شعرت بأنني أقترب من هاوية ، والهاوية تبتلعني على الرغم من مقاومتي ، وأصرخ .. وأصرخ .. وإذا بيد حنونة تهزني..

ـ ماذا جرى يا بنتي.. ؟

وتملكني تفكير عميق: ماذا يعني هذا.. لعله خير .. وكان البصيص الأخير .. كان البيان السابع عشر يرثي منصور.. ويصف الموقف البطولي الذي عاشه أبو عودة وهو يحمي ظهر رفاقه المنسحبين ويده على زناد رشاشه يحصد العدو ، لكن طائرات الهليكوبتر لم تمهله .. ألقت بحممها فوقه فانكفأ على وجهه يقبل الثرى الحبيب ، يسقي عرق البرتقال .. بدم عربي جديد استشهد ..

(9)

الحقد يلف خطاي .. يستأثر بلحظاتي ، والدموع تضيع معالم طريقي ، لم يبق لي أحد، العجوز تدعوني بابنتها ، تسألني لماذا تخليت عن عودة .. تسألني عن طريقه حتى تحضره إلى خيمتنا .. وأنا أبكي رسمت لها الطريق ..

ـ أتتركين ابنك من أجل ابني .. ؟

وتغلق فمي بيدها بينما تشير بيدها الثانية على ابنها .. وفهمت مرادها وأنا أقبل رأسها أدعو لها بالسلامة .. مرت لحظات رهيبة وأنا أقف على باب الخيمة أسأل السماء عن سبب الوجوم الذي يسربلني، يرسم الحيرة في حركاتي وتطلعي بلهفة لنهاية كل صرخة تصدر من المخيم.. فهذه أم تبكي ابنها الذي مات فجأة ، وهذه ثاكلة تندب زوجها .. بينما مذياع شاذ يحاول أن يسيطر على الجو الحزين بأغنية راقصة .. تقطر بالضياع والحب والهيام الماجن .. كي تكمل بقية نشرات الأخبار فتؤبن الفدائيين المجندين فوق الربا المكشوفة .. وإذا بي أبكي وأجد أن همومي تنقشع وأنا أسمع تنهيدة مكلومة تصدر من صدر مريض .. وهو يحاول النهوض .. لكنه يعود للبكاء وتلتقي دموعنا ..

* * *

المرســـــوم

أنت قوي .. أنت هكذا كل يوم حتى في الأيام التي لم أكن أعرفك فيها.. كنت أسمع أنك قوي تتحمل كل شيء.. تتحدى الكلمات ، وتخرج لنفسك ما تريد ولو بالعبط والادعاء .. وأطرقت رأسها قليلاً ، ثم مدت يدها لفنجان الشاي ، الذي لم يبق فيه سوى قطرات رشفتها ، وأعادته إلى مكانه ، ومدت يدها إلى إبريق الشاي وهزته فإذا هو فارغ لم يعد به شيء .. ورمقت محمد بنظرة فاحصة ، ثم جمعت الفناجين المتناثرة في الصحن ونهضت من مكانها ..

ـ فين الشاي .. ؟

ـ خلص ..

ـ لماذا .. ؟

ـ شربت البراد كله ؟ .. ما كفاك أصلح غيره..

لم يرد فوقفت قليلاً تتأمله ، ثم دخلت تغسل الأطباق ، منذ كتب الله عليها سكنى هذه الدار القريبة من مسكن الأهل بعد أن كاد الخصام يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه لإصرارها على عدم السكنى مع والدته وإخوانه ، وهم على هذا الحال من عدم المبالاة والإهمال ، ثلاث سنوات لم يتغير في الموضوع شيء عدا تلك الرحلة التي قضى بها أربعة أشهر في الرياض للدراسة رجعت في أثنائها إلى دار أهلها ، ومن ثم الالتحاق بمدرسة محو الأمية التي افتتحت حديثاً في الطائف للأمهات .

كان يسرح كثيراً رغم ادعائه أنها كثيرة السرحان ، فمنذ أيام بعد غيبوبة طويلة نهض فجأة وارتدى ثياب الخروج دون أن ينبس بشيء ، واتجه إلى التلفزيون وأغلقه ناسياً الآخرين ، انتهت سلوى من غسل الأطباق وكنس المطبخ وعادت إلى مقعدها قبالة محمـد ..

ـ أين البنت.. ؟

ـ عند أمي ..

ـ كنت أظنها نائمة ..

ـ معلوم لهفت البراد .. وأنت منت داري كيف تدري عن بنتك التي لا تسأل عنها، واللي ما ندري الآن عن مصيرها..

ـ ما هي عند أمك .. ؟

ـ أجل كذا .. لكن البنات إذا قفلت فترة المغرب يجيبوها..

ـ عارف.عارف. ..

انتهى الحوار ، وعاد إلى الأوراق التي بين يديه ليقرأها وأخذت سلوى تتابع التلفزيون ، وإن كانت تختلس النظرات بين الفينة والأخرى لمتابعة ما يقرأه زوجها الذي منذ عادت من المدرسة مع المغرب وهو جالس لا يرفع عينيه عن ما بين يديه من أورق .. وشعرت بالضيق والقلق وأحست أنها بعيدة عنه كثيراً، فنهضت من مقعدها وأخذت تبحث لنفسها عن شغله تنتشلها من أفكارها.. وأطلت من الباب الخارجي، ثم أخذت تدور في البيت، ومرت من أمامه مرة أخرى، وخفضت من صوت التلفزيون وأحضرت مجلة وعادت إلى مقعدها تقلبها..

ـ لماذا أغلقت التلفزيون ..

ـ حتى لا يضايقك صوته ..

ـ ولكن .. هل حضرت البنت .. ؟

ـ بعد ..

ـ ما هذه.. ؟

ـ مجلة قديمة أشغل بها نفسي ما دام أنت مشغول..

ـ لماذا فتحت الباب .. ؟

ـ شعرت بشيء من القلق فطليت، عسى البنت جاءت.

ـ بس ..

ورمقته بنظرة ثاقبة ارتعشت عندما ارتفع صوت سيارة الإسعاف مجلجلاً.. إنه قريب وأخذ يقترب وارتفعت أصوات أخرى وامتلأ الشارع بالمتفرجين ، وبسيارات الإسعاف والإطفاء والشرطة ، ولم يتحرك محمد من مقعده ، وصرخت سلوى: ما هذا؟ ولم تحركه الصرخة .. وقرع الباب بشكل عنيف، ووقفت وجلة والقرع يشتد فنهض محمد من مكانه متأففاً لفتح الباب، وأطلت الصغيرة منال ضاحكة ومعها البنات واجفات..

ـ أنبوبة الغاز انفجرت .. إنها حريقه ..

ـ فين ..

وخرج إلى الشارع واندس بين المتفرجين يتلفت هنا وهناك محاولاً معرفة الأمر، وتحركت سيارات الإسعاف والإطفاء وأخذ رجال الشرطة يفسحون الطريق لها، وأخذ الازدحام يخف فقرر العودة إلى البيت ولكن شده أحدهم:

ـ ماذا .. ؟

ـ وصلنا البيت ..

أوصل البنات البيت وعاد إلى الدار ليجد أن ابنته قد أوت إلى الفراش بينما سلوى واقفة تنتظر عودته ..

ـ أوصلتهم .. ؟

ـ أجل ..

عاد محمد إلى مقعده ولكن كل شيء كان يفكر فيه قد انتهى حتى الأوراق التي كانت بين يديه لم تعد به رغبة في العودة لها، فنهض من مكانه..

* * *

حـلـــــــم

أنت نزق .. أنت لا تهتم بالأمر سيان عندك وقفت أمام الباب أم قفزت من نافذة في الدور السابع، تحاول أن تكون لا شيء، ومع ذلك تغلي من داخلك..

أنت حقود .. وفي الوقت نفسه جبان .. كل همك أن تكون وحيداً أمام نفسك وأمام الناس، تستمع في صمت لكل ما يقال، ثم ترسم ابتسامتك الباهتة.. أو خنجرك المسلط..

وتلفت غالبا يبحث عن المتكلم.. لم يكن هناك أحد سوى الكتاب الذي بين يديه، والراديو الذي غلب عليه التشويش فيه على الأغنية المذاعة فلم يهتم بتعديل المؤشر.. وجدران الغرفة الأربعة، وبعض الكتب المتراكمة فوق الطاولة الصغيرة، وبعض الأثاث المتناثر هنا وهناك..

وعاد للكتاب وقلب الصفحة ..

أنت ساذج هكذا .. إنها الحقيقة ، وتحاول أن تخلق من نفسك شيئاً جديداً ونادراً، صلب لا ينكسر ، ولا يتأثر بعوامل الجو ، لماذا تكره الصفرة في الرز ، ولا تهتم بأخذ السلطة ذات الطعم المز .. لماذا تكره الليمون والشطة .. ؟

ـ أأنا أكره الليمون والشطة ؟

وصمت منتظراً الجواب ، لكن لم يكن هناك من يهتم بذلك فأغلق الكتاب الذي بين يديه ومد يده بتكاسل إلى الراديو ، وأخذ يعبث بالمؤشر ويتطلع في ساعته .. لقد كانت التاسعة وأغلب إذاعات العالم تقدم نشرات الأخبار ، وأخذ يبحث في جنون وسرعة عن إذاعة ، ولكن كان كل شيء موسيقى وتشويشاً ومؤثرات خارجية تزيد من وجع الرأس وفي نرفزة أغلق الراديو ، ثم تمدد في الفراش .. ضايقه الضوء ، فمد رجله إلى زر الكهرباء وسرعان ما سبحت الغرفة في الظلام .. ويتحسس اللحاف بعد أن دب الخوف في أوصاله وغطى وجهه وقدميه وكل أطرافه..

حاول أن ينام وعاد إلى أحلامه.. إنه وحيد منذ تركته نوره مع هواجسه وأحلامه، لقد قررت عدم العودة بعد أن شتم أصلها وفصلها في حالة غضب وتأسف على زواجه منها رغم أنه وفي خلال أربع سنوات كانت كل المبادرات تجيء منه هو.. لم ينس في يوم أن يقول لها كلمة شكر في هدوء ورقة.. ولكن ماذا أغضبها .. المرتب الصغير .. لا أظن، فكل زوجة ترضى بما

يقدمه لها زوجها ولو كان خبزاً وماءً.. هل هو شتمه لأسرتها .. قد يكون ذلك مجرد حدث طارئ لا بد أن في الأمر شيئاً ما .. ؟

إنها المائتان ألف ريال ، ولكن له أكثر من عشرات السنين وهو في كل ليلة يرجو الله أن يمنحه هذا المبلغ ليعمل كل شيء .. ليشتري سيارة ويقتني بيتاً ويرفه عن نفسه وعن زوجته .. لكن لم يتحقق شيء من ذلك .. إنه موظف منسي ومجمد، لا يتغير ولا تتغير مرتبته منذ توظف.. منذ مليون عام وكل شيء كما هو..

والراتب لا يبقى منه عند توزيع حصص البقال وإيجار الشقة والأكل سوى ثمانين ريالاً.ز يدبرها حتى يحل مرتب الشهر الجديد ولم يتغير الحال ..

هل هذا هو سبب غضب نوره .. ؟ إنه مبذر، هكذا قالت، وما زالت تقول إنها تحلم مثله ولكن ليس بمائتي ألف ريال.. إنها تحلم بدار لها ولبناتها، دار ولو من غرفة واحدة.. تجعل الاطمئنان يسري في عروقها، يشعرها بأنها ربة البيت وأنها كل شيء..

ويرتفع صوت جلبة وضوضاء ، يقفز على أثرها غالب من الفراش ، ويضيء النور، ويأخذ في التجول بين الغرف لمعرفة مصدر الجلبة ، ويقرر إقفال المطبخ والحمام بالقفل، وكذلك الغرف الأخرى حتى الباب الخارجي أقفله بالمفتاح .. وعاد إلى الفراش ودفن رزمة المفاتيح تحت المخدة التي يضع رأسه عليها ..

احتضن الراديو .. وأخذ يبحث عن أغنية تشاركه وحدته في هذه الساعات المتأخرة من الليل..

* * *

وارتفع الصخـــب

إني أموت .. كلهم لا يدرون ما بي ، وما أعاني ، ألم يهترئ جسمي ، والأفكار الملعونة تسحق هامتي ، تشنق كل محاولة للهدوء تطرق بي ، السأم يكبلني .. الضجيج مزروع حولي ، والوقوف أمام النافذة أو الجلوس على عتبة الدار ، والرد على تحيات المارة لا يفيد شيئاً ..

علي أن أعود لأتمدد في فراشي، أو الجلوس أمام درج أشرطة المسجل للبحث عن شريط قد لا أجده، ولكن ماذا في الأمر ؟ وجدت هذه الجملة فوق الجدران أمامي تلفت انتباهي، كمؤشر سيارة صغيرة تحاول الانحراف، وأخذت أفتش جيوبي، كانت هناك قصاصة تقول: الأخ أحمد، فكرة القصة لطيفة وذات مغزى.. فقط تحتاج إلى بعض التركيز ، عاود قراءتها لتعرف ذلك ..

أين التركيز الواجب تسجيله .. نحن نعيش التدهور .. لقد فغرت الهاوية فمها منذ مليون عام، ولا زالت تستقبل المزيد، إني أقترب، الخطر يحدق بي من كل مكان وعلي أن أسجل شيئاً قبل أن تتلقفني الهاوية، وأستقر في القاع، وماذا أسجل ؟ ماذا في الأمر؟ وتطل جميلة بوجهها المعروف، ويدها النحيلة وشعرها الأسود رغم السنين، وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة لتضع أمامي دله القهوة مع فنجان واحد..

- إني ذاهبة ..

- ألا تشربين معي .. فنجاناً .. ؟

- لا أستطيع ، الوقت متأخر ..

- ولكن إلى أين .. ؟

- يعني .. ؟

ولم تقل شيئاً .. هزّت رأسها وأخذت تبحث عن عباءتها.. وأتجرع القهوة أسارع في شرب الفناجين محاولاً التغلب على الصداع الذي يهدُّ رأسي وفشلت ، فالصمت الذي فرضته حولي بعد خروج جميلة لم يدم سوى دقائق ، إذ اخترق أزيز دراجة ابن الجيران صومعتي وبكاء أطفال الوافدات لزيارة جارتنا شل ما تبقى في أعماقي من محاولات ..

ـ يجب أن تغيري رأيك وتبقي معي فهناك موعد هام يجب إنفاذه وبعد ذلك أسمح لك .. أمامك وقت كاف كي تلغي الفكرة.. أرجوك اخرجي عن صمتك وأجيبي على رجائي.. هل ستغيرين رأيك أم أنك ستبقي على عنادك ؟ .

- .....

ـ يجب أن تغيري رأيك ..

وتلفت حولي لم يكن بالقرب مني سوى دله القهوة الفارغة وفنجان في قعره بقايا وجميلة تقول – كذلك هي العائلة فرع من قبيلة كبيرة كانت تسكن الحجاز ، ويوجد حضر ينتمون إلى تلك القبيلة ، وقد ورد ذلك في كتاب تاريخ نجد ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة ..

كانت المسألة بسيطة للغاية .. مسألة يقال إنها تتعلق بطبيعة الإنسان وغرائزه ، وأشياء كثيرة شعرت الآن أنها تافهة رغم أن العم أبو صالح أكد ارتباطنا بالأسرة الموجودة في القصيم ، وأن السبل التي تحمل اسم العائلة الموجودة بتلك الناحية لنا الحق في سهم من أسهمها ، وكل ما علينا هو مطالعة شجرة العائلة ..

ـ أحمد .. أحمد انهض ـ هل أحد ينام الوقت هذا.. ؟

وتطلعت حولي.. كانت الساعة السابعة والنصف مساءً .. حاولت أن أقول شيئاً فلم أستطع .. المهم عادت جميلة لتوقظني من النوم.. إن الرفاق لم يحضروا للسمر كعادتهم ، وعلي أن أشاهد ما تبقى من برامج في التلفزيون ، لقد برزت ثلاثة أشياء أمام أفكاري السابقة ، تخلق في ذات الوقت مرحلة جديدة علي أن أفكر بها في جوهرها قبل أن يأخذني الوقت ويرتفع الصخب من جديد ..

* * *

الحنين واللحظات المفاجئة

ـ حامد.. إنهم يراقبوننا ..

وتلفت حوله يبحث عن المراقبين ، وتذكر فجأة أنه وحيد والغرفة مقفلة حتى النوافذ مقفلة ، وليس هناك سواه ، وصوت المكيف يملأ الغرفة أنيناً ..

ونهض من على مقعده وهو يحرك النظارة محاولاً تثبيتها على أرنبة أنفه واقترب من الباب، وأخذ يستمع.. قد يكون هناك حركة في الخارج .. أجل .. هناك أحدهم .. وانحنى يتأمل من خلال ثقب الباب واصطدم نظره بالجدار المقابل.. ولكن هناك أحذية كثيرة تتجول .. وتأمل الساعة، لقد كانت الحادية عشرة ظهراً..

كيف يستطيع هؤلاء التجول في مثل هذه الساعة، والحر يسلخ الأجسام ؟ لا بد أن في الأمر شيئ مفكراً.خذ يتجول في الغرفة مفكرا...

لقد تسرب القلق إلى أعماقه .. إنه اليوم الرابع الذي يعيشه في هذه الدوامة، لقد رحل الجميع وغدا وحيداً.. لا لم يرحل الجميع، لقد قرر هو الرحيل هذه المرة، وكان عن سابق إصرار.. كان يعرف معنى الفراغ والصمت والوقت القاتل الذي يمر رتيباً في سأم وشك .. ولم يصل إلى شيء ..

عاد إلى مقعده يقلب الأوراق التي أمامه على المكتب.. وجدها متراكمة هنا .. لقد أحضرها الفرّاش مرتبة من المكاتب الأخرى وعليه أن يوقع.. وتذكر إذن كل هؤلاء المراجعين ينتظرون أوراقهم ، وله أربعة أيام وهو يوقع ولكن لم تخرج ورقة من المكتب، أجل إنه يتذكر لم يفتح ملفاً واحداً من الملفات المتراكمة على المكتب ، وإنما كل ما وقعه هي تلك الأوراق التي دخل بها أشخاص ، أخذوا يسألونه عن الصحة ويهنئونه بسلامة الوصول ، داعين لشرب القهوة ، لكن كيف تعرف بهم ، إنها لا يدري ، أجل فهم أغراب لا يعرف أسماءهم ، وإنما يعرف وجوههم .. أظن حتى في الزحام وفي السوق سوف يذكرونه بالدعوة إن لمحهم ، ويقلب الملف الأول ، ويأخذ المعاملة الأولى ثم يبدأ في القراءة ..

ـ حامد تذكر .. إنهم يراقبوننا ..

وتراخت يده وقد سَرَتْ قشعريرة في جسمه .. أجل إنهم يراقبونه ، ولكن الآخرين بعيدون "أمل" و"محمد" و"عزة" .. ؟

كلهم بعيدون ، لقد أمضى هذه الأيام الأربعة يفكر فيهم ، كلهم بعيدون .. لم يلمحهم بين الوجوه التي استقبلته أو التي دخلت عليه المكتب..

لكن كيف حالهم الآن .. ومدّ يده للهاتف .. ورفع السماعة .. يقرع الباب، ثم يدخل مراجع فيعيد السماعة إلى مكانها .. ويأخذ القادم بالأحضان ويسأله عن الصحة والأحوال، ويفل الرجل أوراقاً بين يديه، ثم يخرج قلمه المذهب من جيبه ويقدمه لحامد الذي أخذ يوقع الأوراق والكلمات الرتيبة تمر عن الصحة وعن طلب تحديد وقت مناسب للتشريف وشرب فنجان من القهوة.. وامتلأ المكتب بالمراجعين ، وفي عفوية أغلق الملف المفتوح بعد أن أعاد إليه المعاملة التي كانت بين يديه ، وأخذ يضحك مع الجالسين ..

* * *

المفترق العاق

سرحت تتأمل تلك الأحداث التي مرت بها خلال حقبة من الزمن ، هي بحد ذاتها لا شيء بالنسبة للآخرين ، لكنها في حقيقتها هي تمثل أجيالاً من الأسر ، أخذت "حصة" تجمع شتات الخواطر رغم الفوضى التي يعيشها الفصل ، وصراخ الطالبات، وهمهمة المقاعد المتضجرة من اضطرابات محتليها ، وفي محاولة يائسة رفعت يدها لتهدئ الطالبات 0لطرد تلك الذبابة اللعينة التي أخذت من أرنبة أنفها منبراً .. أم لطرد تلك الغمامة التي أخذت تعترض طريقها .. ؟ أم هي محاولة يائسة لإسكات ذلك الفم الذي انهال يقرعها على فكرتها الجديدة التي اختمرت في ذهنها، وقررت تنفيذها رغم كل شيء.. ران الصمت على الجميع، وتلفتت حولها تبحث عن الضجيج والضوضاء ، وفوجئت بالهدوء يخيم على الغرفة ، وشمس الربيع تتسلل في هدوء عبر ستائر نوافذ الفصل ، وأنين خافت هو صدى تلك الحركات المكتومة الصادرة من الغرف الأخرى عبر شقوق الأبواب ، ومن وراء وقع نعال وأحذية المدرسات وعاملات النظافة خلال تجوالهم في أروقة المدرسة الكبيرة .. زرع كل هذا فوق الجدران علامات استفهام كبيرة ملونة سرقت وسائل الإيضاح ، ورسوم الجدران ألوانها بقسوة وعناد ، وتمددت فوق المقاعد علامة استفهام كبيرة لا لون لها . وصرخت في الطالبات ..

ـ ولكن هذا فم من .. ؟

واحتارت الطالبات .. دب الذعر والخوف في أوصالهن ، وهي التي عودتهن على قسوتها .. وعنادها في الوصول إلى جواب مهما كانت الأحوال، واستنجدت صاحبة المقعد الأول بجارتها، وعادت الحركة إلى الفصل لانتزاع "حصة" من هواجسها، وتصرخ في واحدة...

ـ نجاة واصلي القراءة.. ؟

وأخذت نجاة تقرأ (يا بهجة القلب، يا منبع الحب والعطف، يا أمي.. خففت آلامي ، أسعدت أيامي بالحب يا أمي ، بالروح أفديك ..)

ويرن الجرس معلناً انتهاء الدرس، وجلست في الفصل وحيدة تناجي المقاعد شاردة رغم أنها أخذت الكراريس لتصححها، إلا أنها لم تقم بتصحيح واحدة منها..

ـ أنت عاقة ..

وتلفتت حولها ، ولكن من أنت .. أنا لست عاقة، ونهضت من فوق كرسيها واقتربت من النافذة، وأخذت تتأمل الطريق الموحل حيث يقبع المنعطف.. ورفعت يدها وأشارت في تخاذل ثم أخرجت من فمها جملة كفحيح الأفعى ..

ـ إنه هو العاق ..

وكررت .. نعم هو المفترق العاق .. لست أنا .. ؟ هناك أمي .. وهناك أبي ، وكلهم يشدني إليه فإلى من أذهب .. ؟ تكلم يا من تتهمني بالعقوق .. وقبل أن تسمع الجواب فُتِح باب الفصل ودخلت الطالبات في جلبة وضجيج غير مباليات "بالأبله" المصلوبة على نافذة الفصل، ودارت حول نفسها ورمقت الطالبات بقسوة وصرخت فيهن..

ـ أنا.. هنا .. !

فران الصمت على الفصل، وأخذت طريقها إلى مكانها أمام السبورة، وأخذت قطعة من الطباشير ورفعت يدها، وفي منتصف الطريق توقفت، ورمقت الطالبات في ارتياب..

ـ هو الدرس إيه .. ؟

وجاءها الجواب من أكثر من فم ، فلم تفهم شيئاً ، فاكتفت بما سمعت وأعادت الطبشورة إلى مكانها ، وعادت إلى كرسيها تحاول تصحيح الكراريس التي أمامها ، بينما سرت همهمة مكتومة من الطالبات ، حاولت – العريفة – بترها بوقوفها وأخذت تجيل بصرها في الجميع ، توقفت أمام واحدة ..

ـ أنت ..

ـ نعم .. يا "أبله" ..

ـ والدك فين.. ؟

ـ مسافر..

وتوالت الأسئلة على الطالبات، فوجدتهن جميعاً لهن آباء وأمهات، بخلافها حيث لا أب لها ولا أم.. كانت في مثل سنهن، لا تعرف شيئاً، ولكنها الآن فهمت الحقيقة بحذافيرها.. أب مزواج كل سنة .. كل شهر له زوجة وأم بائسة رمت بابنتها لترضي أسرتها.. كانت تسر وهي ترى الدار في هرج ومرج .. وكانت مسرورة أيضاً وهي تحظى بلحظة عطف عند زيارتها لوالدتها التي اكتفت بتجربة واحدة في الزواج، لتكون عالة على أسرتها..

هكذا وجدت "حصة" أمها.. وهكذا وجدت أباها .. كانت أمها امرأة فلم تنجح من ألسنة السوء، أما أبوها فماذا تعرف عنه.. ؟ لا شيء سوى هذا الجحفل الجرار من الأبناء والبنات، وكبرت وتخرجت من معهد المعلمات، أصبحت مدرسة، حاولت أن تتجاوز كل شيء..

ولكن كلمة – عالة – أخذت تتضخم أمامها ، تعرقل خطاها ، تملأ ما حولها عتمة، وقررت شيئاً لم تحاول البوح به ، لكن أحدهم اكتشف ذلك، فأخذ يلاحقها صارخاً فيها..

ـ أنت .عاقة. ..

ونهضت من مقعدها ، واتجهت إلى النافذة ، وأزاحت الستائر .. ورمقت الشارع الموحل ، ورفعت يدها هذه المرة بقوة مشيرة إلى المفترق .. والتفتت إلى الطالبات ثم صرخت فيهن ..

ـ إنه هو العاق.. ؟

وأجابت الطالبات في صوت واحد ..

ـ نعم يا "أبله" .. نعم يا "أبله" ..

* * *

استقر رأيه أخيراً على أن يتزوج.. وقرر البحث عن الفتاة المناسبة ، فأخذ يسأل هنا وهناك .. ووجد ولكن في أعماقه شيئاً يدعوه إلى عدم الإقدام ، إذ أنه يرى كل فتاة وجدها "فاطمة" تلك التي لعبت بعقول الشباب وفاز كل واحد منهم منها بموعد كاذب .. حتى هو أخذ من مواعيدها الكثير، لكن عندما يصل كان يجد الشارع فارغاً، وباب الدار مقفلاً بالقفل الأصفر المعتاد.. رغم أن هناك بالداخل صوتاً وحركة.

وقرر بعد جهد أن كل بنات المدينة غير مناسبات ، وأفضل حل له أن يتزوج من قريته رغم عدم معرفته لها ، فشد الرحال مصطحباً خاله وابن خاله ، أخذت الطريق أمام الثلاثة تقصر والحديث بينهم ما زال في بدايته ، والسيارة بين لحظة وأخرى يرتفع أنينها لوعورة الطريق الجبلي .

وصل الثلاثة، وتلفت "صالح" حوله يبحث في البيوت الطينية المتناثرة والمزارع الممتدة على مد البصر فوق الجبال وبين الأودية عن جده لأمه التي ماتت وهو في الثانية، وحمله أباه إلى المدينة حيث لقي هو أيضاً ربه فكفله خاله واهتم بأمره.

ولم يجد من يساعده على رسم صورتها أو ذكر شيء عنها فكلهم نسيها ، ولم يعودوا يذكرون "حليمة" ، فكم من حليمة ماتت في هذه السنين التي مرت وأصبح عمره فيها ثلاثين سنة ، كل ما استطاع أن يجمعه هو عشرون ألف ريال منها خمسة آلاف دين .

استقبله الجميع ، ودارت الدعوات ، كل يوم في دار وكل وليمة في دار وما زال الحديث كما هو في بدايته .. وطالت مدة المكوث بدون نتيجة .. إما الشروط هو يريدها لم تتوفر، أو لشروط أهل الفتاة لم يوافق هو عليها.. وتسرب الملل إليه وإلى خاله ، فكلهم يريد أن يتزوج مثله ، وكلهم يبحث عن فتاة ، وهو يريد فتاة كاملة ، وابن خاله يريد امرأة جميلة ، أما خاله ابن الخمسين فيريد امرأة ولوداً بعد أن سمحت له زوجته العقيم بأن يتزوج ، إنه يبحث عن امرأة ثالثة .

ووجد الجميع طلبهم ، وكان الحفل رائعاً ، وعادوا والبسمة ترف على الأهداب، تزوج الأب وابنه أختين ، أما "صالح" فقد تزوج ابنة عم زوجة خاله العقيم .

ومرت الأيام رزق فيها الثلاثة ثلاثة مواليد في فترات متقاربة، وهش الأقارب.. تهللت الأسر الثلاث بفرح وحبور، ولم يلحظوا في فرحهم هذا ما يدور في قلب زوجة الخال العقيم التي شاركت الجميع فرحتهم وشملهم بعطفها وإرشاداتها إذ كانت في مقام الأم لكل واحدة من البنات الثلاث.

وانفجر الموقف .. قرر الخال تطليق زوجته الجديدة بعد أن وجد في سلوكها ما يعيب، وطلب من ابنه تطليق أختها مدعياً بأنه لا بد أن زوجته أثرت عليها وأن ابنه لم يلاحظ ذلك.

وتسرب الشك إلى قلب "صالح" .. فأخذ يراقب زوجته وقرر إغلاق الباب عليها بالقفل عندما يغادر الدار .

ولم يتوقف شكه عند حد فأخذ ينهار جسمانياً ونفسياً فشخص بصره وأخذ لا يكف عن الحديث في مشيه أو وقوفه .. وشعر زملاؤه بما هو فيه لكنهم كانوا يجهلون السبب، فلم يستطيعوا التخفيف عنه أو حل مشكلته.

وطلب إجازة من العمل لمدة ثلاثة أشهر، فأخذ زوجته وسافر بها إلى القرية واستقبله أهله بالترحيب، وطلب منهم عندما قرر السفر إبقاءها عندهم حتى يعود لأخذها مدعياً أنه انتدب للعمل في أماكن بعيدة عن البلاد.

وعاد إلى عمله ، ولم تمر أيام حتى تحقق ما ادعاه فانتدب إلى الحدود الجنوبية من البلاد ثم إلى الشمال ثم إلى خارج البلاد ، وكأنه توقف قليلاً أثناء مشاغل العمل عن التفكير في زوجته وابنه .. وحط الرحال أخيراً وقد عاد إله بعض هدوئه ، فقرر السفر إلى القرية لأخذ زوجته وابنه ، أخذ يفكر في يوم السفر ودخل عليه أحد زملائه في غرفته بمقر العمل يحمل بين يديه رسالة وصلت مع ساعي البريد الذي لا زال داخل الإدارة يوزع ما في حقيبته من رسائل ، فهجم على زميله عندما تأمل ختم البريد وفض الرسالة وما أن وصل إلى نهايتها حتى تهاوى على مقعده ..

(لقد أرسلنا لك أكثر من رسالة ولم يصلنا الرد عسى المانع خيراً.. وقد ذكرنا لك في رسالة أرسلناها لك منذ شهر بأن زوجتك انتقلت إلى رحمة الله في حادث مؤسف.. إذ سقطت في إحدى الآبار وهي تحاول جلب الماء إلى البيت.. أما ابنك "عبد الله" فهو بصحة جيدة ولا مانع لدينا إن حضرت لأخذه..) .

ووضع رأسه بين يديه يتأمل الرسالة التي تمددت على المكتب أمامه، ثم رفع رأسه وأخذ يتأمل وجه زميله الذي ما زال واقفاً ينتظر منه كلمة شكر، ثم طوى الرسالة في هدوء ودسها في جيبه وخرج من مقر العمل..

* * *

ذات يـــــــــوم

1 ـ الساعة الرابعة والنصف مساء :

يبدو مع ذلك أنني أهملت واجباتي .. انقضى أكثر من مائة عام قبل أن أصل إلى هذه النتيجة.. لا شيء تبقى سوى نحن الثلاثة.. السماء ملبدة بالغيوم ، وكراسي المقهى المنتشرة هنا وهناك شبه ممتلئة بالمرتادين والجرسون يعدو هنا وهناك وبين لحظة وأخرى ينادي بصوت مرتفع : أربعة أسود ! . عبي حجر ! أو غيّر الرأس .. !

وأنا أحاول أن أنصت أكثر من اللازم حتى أستمع إلى الحديث الدائر بين رفيقيَّ صالح وحمد.. إن حديثهما الهامس رغم أنه لا شيء يثيرني.. وصرخ أحدهم :

ـ مطر .. مطر !

وتساقط المطر ، وأخذ الزبائن يفرون ، أما نحن الثلاثة مع برادنا وتعميرتنا فقد صمدنا ، وأخذنا نضحك من الفارين من مطر الصيف .. إنها سحابة وتنقشع ، وكدنا نيأس .. كاد صمودنا يتحطم أمام زخة من المطر .. كان الرهان كبيراً .. وتوقف المطر !!

وعدنا لحديثنا الذي انقطع مع تساقط أول قطرة ماء.. عاد صالح وحمد لهمسهما ..

وتأملت السماء .. في شيء من الضيق .. وتأملت رفيقيّ وهمست ..

ـ صالح .. هل تذكر أباك .. ؟

سؤال غريب.. كنت أشعر بغرابته وعدم استساغته ومع ذلك صممت على إلقائه، صمت قليلاً.. وقال :

ـ أجل أذكره .. وأعرفه، كان رجلاً مغامرة كثير الرحلات.. تاجراً فاشلاً .. هاجسه ظهر بعيره .. رحل ذات يوم ولم يعد .. كانت سفراته طويلة فلم نكن نقلق .. وجاءنا خطاب بعد مضي سنة على آخر سفرة له يقول إنه مات.. أجل مات في أرض الغربة .. ولا شيء أكثر من ذلك ..

وصمتُّ .. كنت أظن أنني أعرف الكثير عن والد "صالح"، ورددت أنني أجد عطفاً خفياً على الفتى ولم أجد مدعاة لأن ألومه لرغبته في الإيجاز.. وكنت على استعداد لتشجيعه ومعاونته على الاسترسال .. ونظر إليَّ "حمد" ليرى أثر الحديث فلم أمهله إذ فاجأته ..

ـ حسناً وأنت يا حمد.. هل تذكر أباك .. ؟

تأملني مشدوهاً .. فهو يعرف أنني أيضاً أعرف أباه .. وأنني كثيراً ما جلست معه أستمع إلى حديثه الشيق وشكواه من الزمن بأسلوبه الفكه الممتلئ فلسفة ومنطقاً .. إذ كان يحلل كل شيء ولا يدع مجالاً للشك .. أسلوبه مقنع وحواره هادئ ..

ـ أبي تعرفه .. وأعرفه، كان رحمه الله يحرص على أن تكون من الصالحين قدر المستطاع، وتوقف عن الحديث.. كان يريد أن يقول (يمكنني أن أقول لك بإيجاز أنني كما اكتشف المخلوق الأول قدرته على لمس خنصره بإبهامه أستطيع أن أبين لك النتائج التي تضمنتها هذه التربة على قدر ما يخصني في هذا المقام فقط).

2 ـ الساعة السادسة مساءً :

دبَّ الملل والسأم في أعماقنا من مكوثنا في المقهى بعد أن فرغنا من الحديث وسئمنا من مرور القهوجي أمامنا بين لحظة وأخرى وصراخه ..

فركبنا السيارة وقررنا التجول بين الصخور والأشجار المحيطة بالمكان .. وما أن فتحت باب السيارة حتى واجهني سؤالي..

ـ وأنت هل تعرف أباك .. ؟

تلفتُّ حولي فوجدت "صالحاً" مشغولاً بإدارة جهاز الراديو و"حمد" يتلفت حوله ويجيل نظره ليستمتع بالنظر ما أمكنه من الأشجار.

ـ أبي.. مات وأنا في الثانية من عمري .. ليس بمغامر أو تاجر .. رغم أنه كان كل شيء.. اشتغل في التهريب والتجارة وعاد بخفي حنين .. حاربه أهله فهاجر إلى الجنوب مع الحكومة وهناك وجد عملاً .. اشتغل بجد ونشاط .. ولكنه توفي مخلفاً الكثير من الأملاك .. ومع ذلك ها أنا ابن الثانية لا أملك شيئاً وقد جاوزت الثلاثين..

موظف عادي.. مرتبي محدود .. وتذكرت أن صالحاً وحمداً أيضاً مثلي لا شيء.. كلاهما موظف عادي ومرتبه محدود .. لكنهما يبتزاني بشيء جوهري ، إنهما يعرفان أباهما أما أنا فكل معرفتي هي حكايات معاصريه لا غير ..

وعدنا أدراجنا إلى المدينة رغم أن الوقت ما زال مبكراً..

ـ إلى أين .. ؟

ـ إلى البيت ..

ـ لماذا لا نرجع إلى المقهى .. ؟

وعدنا إلى المقهى بعد أن وافق الاثنان..

* * *

نقطــة اليأس

استحال كل شيء إلى ضباب وتلاشت الطريق .. لم يعد هناك أمل في الوصول إلى البر في سلام.. بدأت الأحداث تطفو معلنة عن نفسها بطريقة صارمة .. زرعت الدموع في عين "فاطمة" التي ما برحت تتأمل ابنتها الجاثية على أقدام خالها المريض ، فتراقصت الصور أمامها تلعن كل شيء في هذه الحياة الموبوءة التي أعلنت عن وجهها الآخر فجأة.

كان كل شيء يسير في طريقه برتابة ووضوح ، تملأ النفس ثقة والحياة طعماً لذيذاً..

ـ ما رأيك يا فاطمة .. ؟

ـ في .. ماذا .. ؟

ـ في أن تبقى هنا مع أبنائك أو نذهب إلى الطائف على شرط أن تسكني في دارنا.

ـ لكن من يعيش معنا أثناء غيابك .. ؟ إن الأمر مستحيل هنا ، وفي مقدورنا أن نطلب نقل ملف الأبناء ..

ـ أجل في استطاعتنا .. ولكن كما قلت ..

ـ يعني أسكن في دارنا.. أليس كذلك .. ؟

ـ أجل ..

ـ وهل أبقى وحيدة هناك، وأنت تعلم أن للبيت طلبات وحاجات..

ـ أعلم ..

ـ أم ترغب في استئجار خادما للعناية بأمرنا.. ؟

ـ في إمكاننا ذلك .. إذا تعذر بقاء أحد أشقائك معك..

ـ ولكن لم لا توفر نقود الخادم، وتدعني أقيم مع أسرتي حتى تعود.. ؟

ـ هذا مستحيل ..

وأصرّ "سالم" على كل كلمة قالها ، ووجدت "فاطمة" نفسها وحيدة مع شقيقها المريض ، تترقب زيارة أحدهم حتى يأخذه إلى المستشفى أو يبلغ والدها للإسراع إلى نجدتها ، وتراكمت الساعات وكل شيء يزيد في رهبة اللحظة التي تعيشها ولم يسعفها تفكيرها بشيء فتداعت في غرفتها

تبكي .. بينما أنين أخيها المريض وبكاء أبنائها المحيطين به يتسلل عبر الباب .. كان المرض المفاجئ له وقعه في الدار الصغير في هذا الوقت المتأخر من النهار..

وفتحت – أثناء تقليبها لمحتويات الغرفة – دولاب الملابس وأخذت عباءتها من المشجب وخرجت لا تلوي على شيء إلى الطريق.. وفوجئت بالظلام المخيم وترددت وهي تنقل خطواتها السريعة إلى أي ناحية ، وبعد خطوات لمحت سيارة أجرة وقبل أن تفتح فمها منادية توقف أمامها ..

ـ نحن في الخدمة ..

ـ أبغى المستشفى ..

ـ السيارة .. وصاحب السيارة خدامك .. تفضلي .. !

ولم تتحرك السيارة فقد أصرَّ السائق على أن تركب، وهمت بالانسحاب، لكنه استغل خلو الشارع فلحق بها وأمسك بيدها بقوة وتصميم..

ـ أمرك .. لكن يجب إسعاف المريض ..

ـ من عيوني .. بس .. ؟

ـ إني أعدك وأقسم لك فقط ساعدني ..

وأخذت المريض إلى المستشفى وثابت إلى رشدها ، فأخذت تفكر في وعدها .. كان عليها أن تبحث عن مخرج وطلبت من السائق أن يوصلها إلى منزل أسرتها وتردد، لكن طمأنته بأنها عند وعدها له، واستقبلها والدها وبقيت الأسرة مستغربة زيارتها المفاجئة وأطلت الدموع من مقلتي والدتها وهي ترى المريض والقلق الذي تعيشه ابنتها..

عاد الاطمئنان إلى فاطمة وهي ترى الجميع حولها، فأخذت تعود إلى حالتها الطبيعية وتتعجب من ابنتها البكر التي أصرت على البقاء طوال الوقت جاثية عند أقدام المريض تشجعه على تناول الدواء وتساعده على الأكل..

وكان بين الجميع قريب أصر على الإشراف على علاج المريض، أخذت تتأمله متذكرة أنه تقدم يوماً ما لطلب يدها.. وتوقفت أمام والدها تتأمله وهو يتحدث .. يوزع أوامره ، ثم يمد يده ليدثر أو يربت على المريض .

ـ إنك انتهازي ..

خرجت هذه الجملة رغم أنفها وتبتعد بنظرها عن أبيها خشية أن يسمعها أحد وعادت متسللة تتأمل أباها.. كان كل شيء يسير كما كان منذ لحظات، ولكن لمَ تفوهت بهذه الكلمة ؟ .

إن "سالماً" رجل غني وذا مركز مرموق أما هذا القريب فهو مجرد موظف صغير، وصاحب سيارة الأجرة.. ماذا يكون أيضاً .. أتراه انتهازي أيضاً وانتصبت صورة زوجها أمامها فصرخت.وأنت.ت .. ماذا تكون .. ؟

وأثارت انتباه الجميع بما قالت..

ـ فاطمة.. ما بك.. ؟

ـ لا شيء..

ـ لكن ماذا قلت .. ؟

وتدخلت والدتها ..

ـ إنها متعبة .. انهضي لتنامي قليلاً ..

وترددت ولكن نظرات أبيها ورجاء أمها دفعاها إلى مغادرة الغرفة مستسلمة .. ووقفت في نافذة غرفتها القديمة ترمق الأفق في يأس وتبحث عن جواب ..

* * *

البحث عن ابتسامة

لتنهار كل المبادئ وليعم الدمار العالم، لترحل الكلمات الطيبة في قارب صغير يجرفه التيار إلى أعماق البحر، وتجتاح الأعاصير والأمواج المدن وتتلاشى صرخات الهلعين.. في الضباب الأسود الذي أتمنى أن أغطي به كل شيء حولي حتى نفسي.. أنا حاقدة لأني منبوذة ، كلهم رأوا فيَّ شبح الجريمة وحقد البشرية جمعاء رغم أنني لم أقترف ذنباً يذكر .. ماتت أمي وهي تصر على أن أكون بعيدة في مدرستي الداخلية التي قرر أبي حبسي فيها , وأيد قراره جميع أفراد الأسرة .. كنت ألمح بريق الانتصار يطل من العيون حولي فأعيد بصري حسرة أبحث عند أقدامي عن الحقيقة الضائعة في زحام من حولي.. لم ينتشلني رفاقي مما أنا به ولم يخفف من مضاعفات ما أعاني رحيلي الدائب وحرصي على البحث عن الغرباء.. كنت أفر من الجميع لأحرص على اكتساب صديق..

كنت أخشى مشاهدة ذلك البريق الذي لمحته في عين أمي وهي جثة هامدة مسجاة على فراشها.. كان عهدي بها لحظة الانتصار عندما وافق أبي على إدخالي المدرسة الداخلية .. البريق الذي شعَّ من عيون الجميع إنه الآن يطل بقوة من عيني والدتي الميتة والتي أصررت على مشاهدتها قبل مواراتها التراب.. ومبعث إصراري تحدي الجميع.. وأبي المنهار الذي انهار لتلك الهمسات المسمومة التي تدور حولي.. كنت أريد منهم أن يصمتوا ولكن ذلك زاد من ثرثرتهم، وتقدم مني طبيب الأسرة يسألني إن كنت أريد مساعدة وفي بطء أزحته بيدي واتجهت إلى الكرسي الذي اعتادت أمي الجلوس عليه في غرفتها.. وأخذت أبكي ..

كان بكائي صمتي وتلفتي حولي .. وكان الفراغ يحيط به .. لم تكن هناك جدران ولا ستائر نوافذ .. أبداً لم يكن أمامي سوى فضاء رحب .. لا أعلم كم من الوقت مر .. كل شيء هادئ ، الرياح سكنت ، وأغصان الحديقة لزمت الصمت .. وأخذ الموكب المهيب يجتاز باحة الدار .. الجميع مطأطئ الرأس يأكلهم الصمت وتقرأ أفكارهم بشيء حاولت معرفته من تلفت بعضهم وهم يتبادلون أماكنهم تحت النعش، وألصقت وجهي بزجاج النافذة أتأمل الطريق والموكب يغرب.. يبتعد .. وشعرت في تلك اللحظة بالدموع تنسكب على خدي وسمعت ورائي خطوات .. كان أبي المنهوك وتلقفني بذراعيه، كنا نبكي، ودخلت عمتي، ودخل بقية أفراد الأسرة.. لقد انتهت مراسم الدفن .. طمر القبر في ثوان ، فقط شعرت فيها بأن أبي لم يكن لي شيأً من الحب وأن هناك نقطة نستطيع الالتقاء عندها ، ووقفنا مطأطئي الرؤوس نتقبل العزاء .. كانت كلمتهم واحدة، كلهم يقولون كلمة واحدة حتى ذلك الصبي الذي التصق بساق أمه مع أنه لم يحرك شفتيه إلا أني سمعته يقول الكلمة نفسها.. وتحركت مبتعدة أخذت أسير وأنا ساهمة لم أبال بنظرات من حولي ولا باستعطاف أبي وهو يرجوني الوقوف إلى جانبه لشد أزره، وانتهت فترة العزاء، عاد أبي إلى مصنعه وأخذ الجميع يعودون إلى مرحهم.. كثر عدد سكان الدار هذه المرة، هكذا

تصورت رغم أننا فقدنا أمي.. لقد كان الضجيج يملأ الغرف والاجتماعات الثنائية الصامتة تحطم أعصابي ..

نظرة النفور تقابلني من الجميع الذي يتجنبون الانفراد بي ، مجنونة .. زرع أحدهم هذه الكلمة في نفوس من حولي فصدقوه، وتضخمت الهمسات، سمعت الخادمة تكلم أحد عماتي..

ـ لم لا تعود سلوى لمدرستها .. ؟

وعرفت مدرستي أنها تلك الكلية البعيدة للشواذ والمشاغبين وذوي الحساسية الخاصة.

ـ محمود.. لماذا لا تعود سلوى لمدرستها .. ؟

كان أبي يتلقى هذا السؤال في كل مكان .. حتى عندما أخلو به ونجعل من الصمت رسول تفاهم كنت ألح على السؤال المرسوم على الجدران في كل مكان وصرخت في أبي..

ـ وأنت هل تريد مني الذهاب إلى المدرسة .. ؟

وذهبت إلى المدرسة وبعد أيام إذا بأبي يموت.. تدهورت سيارته .. ولم يعتن أحد بطلبي وغرقت في دموعي بشكل رهيب حتى وجدت المشرفة على القسم الذي أنا فيه أنه يجب مساعدتي (كان ذلك في ليلة مشئومة بالنسبة لي صرخت الفرحة في جنيات دارنا..) وأغلقت المشرفة فمي بيدها وهي تقول :

ـ إني أعرف كل شيء ..

ـ ولكن هل أنا مجنونة .. ؟

وطأطأت رأسها .. وحاولت أن أنسحب من أمامها ولكنها أمسكت بي..

ـ سلوى.. أنت لست مجنونة ، لكن هناك من يهمهم إلصاق هذه الصفة بك ..

ـ كلهم يتجنبون أن يعطفوا عليّ ..

ـ إنه عطف من نوع خاص .. عطف من نوع آخر .. أحدهم فرضه على الجميع .. ومع مرور الزمن صدقوه حتى أبيك صدقه، وكذلك أمك رغم أنها تقف إلى جانبك كانت تخشاك وتنعتك في فترات مجنونة..

ـ إني أتذكر أول مرة نعت بها .. عندما خرجت من غرفتها عنوة حيث كنت أحاول وأنا في العاشرة كما أظن فك الحبل الملعون الملتف حول رقبة أخي الصغير..

ـ لقد اتهمك الجميع بأنك خنقت أخاك بسبب غيرتك منه لأن الجميع يهتمون به.

ـ ولكن يا سيدتي ..

ـ أعلم .. لقد دخلت الغرفة فوجدت الحبل يطوق عنق أخيك ، وعندما لم يتجاوب مع حركاتك أخذت تفكين الحبل محاولة إيقاظه فإذا بوالدتك تدخل فجأة ويلحق بها الآخرون ..

ـ أجل ..

ـ وبعدها أخذ الجميع ينعتونك بالمجنونة ..

ـ أجل .

ـ والآن تحققت مآربهم ، وبما أني أعرف أنك لست مجنونة لذلك يجب علي مساعدتك ..

ـ إذاً لماذا أبقيتني هنا كل هذه المدة.. ؟

ـ خوفاً على حياتك ..

وخرجت من باب صغير جانبي من المدرسة وأخذت أتجول في الشوارع حتى وصلت الدار التي وجدتها مهجورة، وأخذت أبحث عن منفذ أدخل منه إليها، ودخلت.. أخذت أتجول في ردهات الدار وأشعل الأنوار حتى أصبح البيت قطعة من نور.. ويقرع الباب الخارجي، كان الحارس الليلي الذي اعتاد المرابطة أمام الدار أثناء نوبته، وتجلجل من الخوف عندما شاهدني، لكني قابلته بابتسامة رقيقة، ودسست في يده قطعة من النقود وأنا أقول..

ـ لا تدع أحداً يدخل الدار حتى تخبرني..

كانت الصور تجري أمامي وأخذت ألاحقها أبحث في الغرف المشعة بالأنوار عن شيء بينما أصوات فرامل السيارات المسرعة التي تقف أمام الباب تصك أذني، تدفعني إلى الجري، كنت أبحث عن شيء لا أعرفه.. وتصلبت أمام غرفة استعصت علي لا أذكر لمن كانت، ولكن الباب فتح.. كانت الجدران ملطخة بالصور وبالمناظر الجميلة وقد علاها التراب.. أخذت أجول أتفحص اللعب المتناثرة.. لقد كانت غرفة أخي الصغير الذي كنت سبب موته.. وشاهدت السرير المتحرك المشدود بالحبل (لأن والدتي كانت تهزه بواسطته أثناء انشغال الخادمة) وأخذت الحبل بيدي هازة السرير محاولة تذكر صورة أخي، لقد بدت تلك الصور الموضوعة في براويز حول السرير غريبة ولم أعرها انتباهي..

وتذكرت شيئاً وأنا أتأمل صورة عمي أحمد أصغر أشقاء أبي فأطلقت الحبل من يدي.. وأخذتها بين يدي وأنا أستغرب وجودها في ذلك المكان .. ورن جرس سيارة الشرطة فأسرعت والصورة بين يدي خارجة من الغرفة وهبطت الدرج ثم شرعت الباب على مصراعيه داعية الجميع إلى الدخول وأخذت أتأمل الجميع المذهولين وشاهدتها مبتسمة ، وتقدمت وهي تمد يدها ملقية تحية المساء وأجبتها بانحناءة من رأسي، ثم دعت الجميع إلى الدخول .

كان أعمامي الثلاثة وعماتي وكل المستفيدين من وفاة أبي بالإضافة إلى رجال الشرطة ومديرة المدرسة التي هربت منها، وأخذتني المشرفة جانباً، وأخبرتها بما قمت به، ثم قدمت لها الصورة فتأملتها وأخذت تجيل نظرها في الجالسين.. وعندما وصلت إليه دفعتها بكتفي فتوقفت أمامه واقتربت من ضابط الشرطة.

ـ ماذا هناك يا سيدي.. ؟

ـ لا أدري لقد اتصل بي أحدهم. ادّعى أن هناك لصوصاً بدار المرحوم محمود..

ـ إذن لماذا جلست .. ؟

ونهض الضابط مرتبكاً، فأخذته جانباً وتحدثت معه قليلاً، وعندما انتهيت، اتخذ طريقه إلى الباب الخارجي، وهو يشير لمرافقيه، ونهض العم أحمد..

ـ سيدي.. ؟

ـ وماذا تريد .. لقد أثرنا المشاكل لسيدة الدار..

ـ ولكن .. ؟

ـ أعلم ما تريد قوله، لكن ما دامت المشرفة والتي تعرف كل شيء شرحت الأمر فلا داعي للبقاء..

وخرج الضابط ومرافقوه ، ودبت الحركة في الدار المهجورة ، أما أنا فقد أخذتني المشرفة والمديرة جانباً ، وسألتني المديرة عن سبب هروبي ، واحترت في الإجابة ، لكن المشرفة شرحت الموقف ، وتحول غضب المديرة إليها ، ووعدت بمجازاتها وهي خارجة والتف أعمامي حولي بينما اختفت النسوة وران الصمت علينا .

ـ سلوى تعبة يجب أن ترتاح ..

تخلصنا منهم وأخذتني إلى غرفتي ، وأخذنا نتحدث ، كانت تعرف كل شيء عن الدار .. دخلنا غرفة أخي لنبحث في الزوايا والأدراج عن شيء .. وانتقلنا إلى غرفة أمي نبحث بالأدراج والخزائن ووجدنا "دوسيه" احتوت وصفات طبية، كتبها طبيب الأسرة، كما عثرنا على دفتر به بعض الملاحظات.. وخرجنا من الغرفة لنفاجأ بالعم أحمد يتلصص ، حيث تصلب في مكانه ، ومررنا به في هدوء – مجرمة – هكذا كنت لكني في نظر أقربائي مجنونة ، ولهذا لم يحدثني أحد عند الصباح ، ولم يشاركني مائدة الإفطار سوى المشرفة ومديرة المدرسة التي وصلت مبكرة ، وأخذت أتجول مع الاثنتين في حديقة الدار ، ولما عدنا كان الجميع في غرفة الجلوس ، وطلبت المشرفة الشرطة التي حضرت وقدمنا للضابط الملف الذي وجدناه في غرفة والدتي ثم طالبته بفك الحجز على الدار والمصنع ، وتسليم كل شيء لي ، واحتج الحضور ، وأخذت الكلمات تعلو بينما أخذ يقلب الملف ..

ـ إنها مجنونة وقاتلة ..

ورفع رأسه باحثاً عن صاحب الصوت .. ولكن ران الصمت على الجميع ونهض إلى التلفون وطلب الدكتور، وهو يتأمل الجميع.. وحضر الطبيب ، فأخذه جانباً وأطلعه على الأوراق ..

ـ وكيف مات الصغير .. ؟

ـ كما أظن طبيعياً..

ـ ولكن أين الشهادة ..

ـ هذه ..

وتأمل الشرطي الشهادة، ثم اطلع الدكتور على جملة وضع تحتها خطاً (لقد قتلت أخاها، إنها مجنونة.. ولولا مساعدة الطبيب لكانت فضيحة).

ـ ما رأيك في هذه الكلمات .. ؟

ـ لا أدري .. ولولا أني أحتفظ بسجل للأسرة لكنت صدقت هذا.

ـ هل كان الطفل مريضاً .. مرض الموت .. ؟

ـ تقريباً..

ـ ومن كان يشرف على علاجه.. ؟

ـ أحمد كما أذكر . لأن المرحوم كان مشغولاً في سفرياته ومشروعه الجديد .

ـ المصنع.. ؟

ـ أجل .

ـ وسلوى هل تذكر عنها شيئاً.. ؟

ـ أبداً ..

ـ ألا تعرف دوافع إدخالها مدرسة داخلية .. ثم عدم مشاركتها في دفن والدها؟

ـ قيل إنها اعتذرت ..

وتلفتُّ حولي أبحث عن شيء أنهي به الحديث واقتربت..

ـ ألم يقولوا لك إني مجنونة.. ؟

ـ كنت أسمع شيئاً من هذا لكنني لا أهتم..

ـ لماذا .. ؟

ـ لأنها بعيدة ..

وأخرج الضابط صورة عمي أحمد القديمة من تحت الملف..

ـ هل تعرف صاحب هذه الصورة .. ؟

ـ أجل ..

ـ شكراً ..

واقترب العم أحمد وجلس على المقعد الذي غادره الطبيب، سيد أحمد ابنة أخيك "سلوى" تطالب بتسليم مخلفات والدها، ولكن هناك اعتراضاً منك.. وتدعي أنها مجنونة ومما هو ملموس نرى أن ذلك كذب، وهناك دوافع لذلك فما هو سبب معارضتك.. ؟

ـ لا شيء.. ولكن حرصاً على المصلحة العامة .

ـ إذن لا اعتراض .. ؟

ـ أنا لا أعترض.. ولكن لو قابلت الآخرين لوجدتهم يؤيدون فكرتي وأن ما قلت حقيقة ولا مصلحة لي فيما ذهبت إليه ..

ـ وما هي علاقتك بوالدة سلوى الحقيقية .. ؟

وجحظت عينا العم أحمد عند سماعه لهذا السؤال، وأخذ يرتعش عندما لوح الشرطي بدفتر مذكرات والدتي.. وطال الحديث وحضر آخرون وتلاشى فيه إصرارهم وادعاؤهم أني مجنونة .. وتسلمت كل شيء وخرجت الصحف تحمل نبأ دخولي المجتمع وتلقفتني الأضواء ، وأخذت أبحث عن نفسي بعد كل هذا ، ولكن وجدت أني منبوذة .. لقد طغت تلك المرحلة المترسبة في أعماقي أخيراً وشعرت بأن علي أن أنزوي.. لقد وجدت أخيراً البريق، ولكن بصورة جديدة..

كان بريق الحقد الذي يطلق من مقل من حول حتى من المشرفة التي وجدت أن دورها انتهى بانتصاري.. ونسيت في لحظة انبهاري فضلها فتلاشيت في الزحام ..

* * *

الأقزام تنتحِر

الساعة السادسة مساء وقد هدأ كل شيء ، ولم يبق أمام الخندق وأكوام التراب سوى الأطفال يلعبون ويتسابقون على صعود التراب واللف حول (الدركتور) وإلقاء الحجارة الصغيرة في الخندق الندي الذي احتقن الماء في بعض جوانبه .. وفجأة علا صراخ الصبية ..

ـ عنزة سقطت في الخندق.. !

ـ أين .. ؟

وأشار صبي إلى الماء المحتقن في الخندق حيث كانت بعض الدوائر والفقاعات تطفو على السطح ، ولم يشاهد المجتمعون شيئاً يؤكد صدق الصبي الذي راح يردد أن عنزة صغيرة سقطت في الماء ، فعادوا للتفرق والجري .. بينما بقي الصبي الذي شاهد العنزة يتأمل سطح الماء .. ومرَّ الوقت وهو واقف ، وحل الظلام فغادر مكانه ، بزغ القمر إذ كانت هذه الليلة من ليالي منتصف الشهر ولا شيء في الشارع سوى الخندق العميق الممتد على طول الطريق وأكوام التراب المزروعة على الجانبين (والدركتور) على رأس الخندق في صمت وقوة كقائد فرقة صمم على الاستمرار والمضي قدماً ، وخرج "محمد" من الدار حيث سمع صوتاً في الشارع ، ولكن لا أحد هناك ، وأطلت "بدرية" برأسها من نافذة غرفتها ، ثم اختفت بسرعة فقفل عائداً إلى مقعده أمام التلفزيون ..

ـ من هناك .. ؟

ـ لا أحد ..

ـ ولكن لماذا نهضت من مكانك .. ؟

ـ لقد سمعت جلبة في الشارع ..

لم يستمر الحديث طويلاً ونهضت "منى" من مكانها ودخلت المطبخ لإعداد فنجان من القهوة .. تململت في إعداده حيث حاولت دفعه على مساعدتها في استذكار دروسها خاصة وأن الاختبار لم يبق عليه سوى يومين فقط..

عاد الضجيج إلى الشارع مجدداً ، فقد أخذ عمال الحفر يعملون بهمة ونشاط، وأخذ (الدركتور) يكمل مسيرته نحو إكمال شق الشارع ، بينما البنات والأولاد وهم في طريقهم إلى مدارسهم يتوقفون قليلاً لتأمل ما يدور ثم يواصلون سيرهم .. يوم جديد من العمل عليه أفاق محمد على غير العادة وخرج لأخذ الفطور .. كل شيء عادي ، إنها الحركة التي بدأت منذ الشهر : العمال أنفسهم ، والعمل الدائب نفسه (والدركتور) الذي يجرح الأرض ، والأطفال الواقفون على أبواب المنازل لمتابعة العمل ، والفكرة التي أخذت تترسب في الأعماق عن القوة .. قوة الأقزام الذين يقفون حول (الدركتور) كل يوم متأملين ما تقوم به هذه الآلة من عمل جبار غير مبالية بما حولها والتي لم تصل إلى شيء رغم المحاولات التي أقلقت راحته حتى إنه أخذ يقفل الباب بالمفتاح خشية أن يصيب طفلته مكروه عند ذهابه إلى العمل في الصباح .

عاد المتفرجون للتكوّم ومتابعة (الدركتور) في غدوه وإيابه إذا أغلقت المدارس والدوائر الحكومية أبوابها وجلس أصحاب المنازل المطلة على المشروع يقفون في نوافذ منازلهم وعلى الأبواب بعد أن نزعهم الضجيج من الفراش ولحظة القيلولة .. وارتفع صوت الصبي ..

ـ هذه العنزة.. هذه العنزة..

وأسرع الجميع إليه .. لقد كان صبي البارحة الذي شاهد سقوط العنزة في الخندق وأخذوا يتأملون الرأس الصغير الذي طفا فوق سطح الماء..

* * *

عين من دم

(جرحنا صار أوسمة)، وفجأة يغرز الخنجر المتسلل من الشباك في ظهر الأم البائسة التي سحبها القدر بطريقة عفوية لتنام في فراش زوجها المهدد بالموت..

وأنسى كل شيء ويد صديقي تهز كتفي..

ـ شوف كيف المجرم قتل أم شلبي ..

وأنا عندك بين عينيك التي أجهل الآن لونها، وجسمك الأصفر الناحل وغرتك الشقية تثير هواجسي، لم أكن أعرف شيئاً بعد، أعيش على كتاب المدرسة.. أتغذى وأفطر به وطرف المسطرة ينسلت في قسوة على قفا يدي ، لأني لم أحل الحساب ولم أحفظ جدول الضرب ، لأني سهرت بين عينيك ويدك الصغيرة حركاتها تجذبني وأنت تتحدين على الكيرم حماتك نايلة ..

أنا الآن قد جاوزت العشرين ، شاربي يقف عليه الصقر ، وذقني شائكة ، أما صوتي فما زال هو .. هو لم يتغير .. غير أني زدت تحولاً ولم أعد ذلك الولد الذي يرتدي الأسمال فلا يؤثر فيه منظرك المغري ، وأنت تتناولين فطورك المتأخر في غرفتك وقد تبعثر شعرك وضاعت الخصلة الشقية .. أو وأنت تمزحين مع ؟! .. وتصارعين شقيقاته ، كل هذا عاد إلى مخيلتي الليلة ، كنا ثلاثة أنت .. وفاتن.. وأنا ، نسير في الطريق المظلم الذي يوصل إلى دار أخيك ، وقد أزحت – الحجاب – عن وجهك وتعلقت بكتفي كعجوز أكلت ظهرها السنين ، وفاتن تقهقه وهي تتلفت حذرة من أن يلحق بنا أحد ، وأنت متمادية في تمثيلك ، لاهية عن كل شيء حتى عن ذاتك ، تفكرين في ذلك العهد البعيد الذي لم تحفظي عهدك معه .. ورغم دموعك لبست ثوب الزفاف الأبيض والجميع يضنونها دموع الفرح ..

إنه هنا وصل اليوم إلى الطائف في مهمة رسمية ، والليلة حفل عشاء يقيمه أخوك على شرفه ، وأنت مرتبكة ، تأخرت حتى لا يشعر أحد بارتباكك ، فأثرتِ حيرتي وخوف فاتن من أن يطل أخوها فيثيره منظرنا المريب ، ولم تتبق غير خطوات حتى عدت للحقيقة لكن كان فيك شيء جديد ، أنت مصفرة ، وقد فضح ذلك عامود النور ، بينما فاتن منشغلة في إعادة حجابها .. وتصلبت نظراتي عليك تسأل هل أنت محمومة ؟ وهزك اكتشافي ذلك ، ولم أقل شيئاً ، وعدنا لواقعنا ، كان صوت العود الذي يداعب أوتاره أخوك يصل إلى الشارع كتواشيح ملائكة ، وتوقفنا كي نغترف من اللحن الهادئ في وحدتنا وانطلاقنا وأيدينا متشابكة نحن الثلاثة مكونين

حلقة عجيبة وسمعنا وقع أقدام تقترب من الباب فتركنا الباب يقرع وابتلعنا المسكن أنتم إلى الغرف الداخلية وأنا إلى المجلس الخاص بالرجال ..

وفجأة ينغرز الخنجر وتنطلق سيارة شحن مسرعة تدفعني إلى أن التصق بجاري من الخوف وأصواتكم تصلنا ، لقد كانت بينكم واحدة خائفة من السيارة المسرعة لست وحيداً فأخذت أضحك من حولي ، من طفولتي التي أخذت أودعها ، ويدي في حضن الشقية التي كل صباح تضرب شقيقتي عندما نلتقي بها على طريق المدرسة – تلك اللاجئة الشقراء – التي يطير فستانها القصير الهواء فيظهر قفاها وسروالها الصغير كانت تعض كتفي في عفرته وطفولته ..

كنت أنساها عندما أراك منتصبة أمامي وفي يديك الحبوب العشرين ولوحة الخشب المركونة على الجدار تنتظرنا ، ونتحدى فاتن واللاجئة لكن الأخيرة تقرصني في فخذي بقسوة كلما يأتي دوري في اللعب ، وأقاوم وأنا أرى بحري يتلاطم والزوابع تثير صفوه ، تهم بأن تبتلع زورقي الصغير ، لكن نفوز ليس كالعادة بتفوق إنما بعد محاولة يائسة ويدي ترتعش ، وأنا أتطلع إلى اللاجئة بعين ذاوية فإذا بها تغلي وقطرات الدم في عينيها تخضب يدي باللون القاني .. وبكاء مر ونشيج يقطع صدري يلون وجه أختي الصغيرة وهي ترجو والدتي بأن لا تدعها تذهب إلى المدرسة مرة ثانية .. إنه أنت وقد ذهبت فاتن مع زوجها بعد أن يئست من أخي .. ونحن غيرنا دارنا القديمة بمنزل بعيد، واللاجئة أصبحت ترتدي العباءة وهي تسير لوحدها في طريقنا القديم، وزوجك باع منزله، وأخوك سافر إلى جدة بعد أن نجح في دنيا الغناء فغدا مرموقاً.. وأولاد حينا أصبحوا رجالاً يلاحقون بنات المدارس .. تمرين الآن بي وبين ضجيج صالة السينما والدخان الذي يدفعني إلى السعال – في منامتك الحمراء – والسيارة ما زالت منطلقة والبطل يطرد من البوليس وأم شلبي تخرج من المستشفى ، تتقدمين نحوي في يدك خنجر، وأفغر فمي في بلاهة ويدك ترتفع وعيناك تقدحان شرر الجريمة ، وغيمة حمراء تمر بي فلا أشاهد شيئاً ، لكن بريقاً يلفت انتباهي عند قدمي إنه الخنجر ويدك ما زالت مرتفعة وعيناك متحجرتان وقد فقدتا لونهما وجسمك الصغير تبتلعه الأرض .. وعينان من دم .. أمامي فتاة شقراء شعثاء الشعر .. وفستان قصير يلعب به الهواء .. ووجه صامت إني أعرفه لكن لا تسعفني الذاكرة، فقد تملكني الوهم والخوف.

* * *

الطمـــــــــــــوح

الحطام يملأ المكان ، أخشاب مبعثرة وبراويز صور محطمة ، وعلب صفيح فارغة أو محشوة بأوراق الصحف والمجلات .. كل شيء يدل على أن هذه الحالة لها تاريخ طويل لا يستطيع المتعمق من الزائرين تحديده أو الاقتراب منه .. حتى سليمان ذاته لا يذكر متى اشترى هذه الدار الخربة أو متى قرر السكنى فيها وإن كان يحتفظ بأوراق إيصالات الكهرباء وإنذارات البلدية بشأن البالوعة وشيء آخر من أوراق اشتراك التلفون الجديد.

كان سليمان يقدم الدوسيه التي تحتوي كل هذا لكل سائل عن تاريخ شرائه الدار، وذات يوم وعلى غير العادة وقفت سيارة نقل صغيرة أمام باب الدار وحملها مجموعة من العمال بالحطام الذي يملأ المكان ولم يكف رد واحد بل ثان وثالث ورابع حتى ظهر بلاط الغرف وتراب الحوش ، ولم يبق سوى الفراش الذي ينام عليه وجهاز التليفون ودوسيه الإيصالات .

ركب بالقرب من السائق وفي الحراج تم تكويم الجميع وبيعهم وعاد يصفق بيديه يتلفت حوله وإن كان الغبار يلفه ، وفي هدوء دخل الدار ووقف أمام المرآة القديمة المزروعة فوق المغسلة بالقرب من باب الحمام وتأمل نفسه قليلاً ثم فتح الصنبور وأخذ في غسل وجهه وقدميه ورأسه ، وحدق مرة أخرى في المرآة ثم هزّ رأسه غير مقتنع ودخل الحمام ثم خرج منه ووضع غترته على كتفه وخرج من الدار لا يلوي على شيء .

لقد قرر أن يستحم في الحمام العمومي، ومر على السوق وأخذ ملابس جديدة.. خرج من الحمام شخصية جديدة فشعر بالارتياح وهمهم وهو يتلفت ..

ـ لقد أزف الوقت ..

وفي اتجاه سيره خلف الدار وراءه وأسرع في خطاه.. كان في كل لحظة يتأمل معصمه رغم أنه لا يقتني ساعة، ولم يفكر في ذلك يوماً حتى بعد أن أصبح وحيداً.. بعد أن نزح إلى المدينة مخلفاً رفاقه في العمل بقريتهم التي جمعتهم الصدف بها من أول يوم لهم في أعمال الوظيفة لم يبالِ برجائهم ولم يهتم لضحكهم عليه ، كان كل شيء يسير حسب مخطط رسمه في رأسه ، وأخذ يرحب بكل عمل يوكل إليه في أوقات الفراغ حتى اشترى الدار ، واحتلت كل تفكيره فلم يعد لديه متسع من الوقت يقضيه خارجها وأخذ يأتي بكل شيء يعترض طريقه .. كان كثير التلفت عله يصادف شيئاً يستفاد منه واحتلت الخردة كل زوايا الدار التي أصبحت نظيفة الآن ..

أخذ يتأمل صورته في واجهات المحلات التجارية ودلف إلى شارع فرعي وأخذ يعد الأبواب: واحد.اثنان. .ثلاثة، وعاد من جديد يعد، لقد نسي رقم البيت المطلوب، فلم يجد بداً من الوقوف في وسط الشارع والمناداة وخرج أحدهم..

ـ مساء الخير.. العم محمد فيه ..

ـ أي محمد .. ؟

ـ محمد أبو شوادي ..

ـ آسف ما فيه أحد في الزقاق بهذا الاسم..

ـ ولكن هذا هو الوصف ..

ـ لقد تذكرت كان عندنا واحد بهذا الاسم لكن رحل..

ـ من قريب ؟ .

ـ منذ سنة .

وأغلق الرجل الباب، بينما وقف سليمان مطرقاً وأخذ يجرجر خطاه بعد أن ألقى نظرة سريعة على الأبواب (ولكن كيف لقد اجتمعنا وعقدنا الاتفاق وانتهى كل شيء أتزوج ابنته ونسكن معاً في الدار.. مهر رمزي) وعاد أدراجه إلى الشارع وقرع الباب الأول والثاني والثالث ولكن لا أحد يرد..

لقد انهار كل شيء . ولمح شخصاً يسير أمامه قفز له قلبه (إنه هو) فمد خطاه.. كان الرجل يسير بسرعة وبشكل غريب وانقطعت أنفاسه، وفي النفس الأخير أمسك بالرجل من الخلف وتشبث به حتى لا يقع.. والتفت الرجل وفوجئ سليمان ، لقد كان الوجه غريباً وصارماً فذابت قبضته ..

* * *

النجوم تقدم العزاء

الأنوار تملأ الشارع والجدران والنوافذ المشرعة تغص بالأطفال والنساء يتفرجن على العرضة .. الكل يرقص والطبول تصم الآذان ، والسيارات تملأ الساحة ، ويمر الليل سريعاً ويزف عبد الله في كوشة لفتت الانتباه بوجاهتها وغناها .. كان الارتباك على محياه والقلق يدب في أوصاله ، ولا شيء يعمل في داخله .. لقد شله ما يدور حوله .. جلس على كرسي المنصة وأخذت الراقصات يتبارين في الإبداع، كل فتاة تحاول أن تقضي أطول وقت ممكن للتثني أمام العريس.

ورغم ذلك لا أذكر تلك الوجوه الآن ، أجل لقد أخذت بيد عروسي وخرجنا والزغاريد تلاحقنا في السيارة التي نقلتنا إلى منزل الزوجية ، كانت تزغرد هي والسيارات التي تلاحقنا ، وران الهدوء ، شعرت بالاطمئنان فأخذت مريم بين يدي أتأملها ، لقد كانت رفيقة طفولتي ومرحلة صباي ، وانتقلنا إلى العاصمة ، أما هي فقد بقيت مع أسرتها في الطائف .. أجل كل شيء فيها كان كما أذكر .. الآن تأكدت رغم أني التقيت بها كثيراً أيام الخطوبة التي قررنا فيها كل شيء.

حدث عبد الله أصدقاءه عن زواجه وزوجته وأسرتها وكيف سارت الأمور وكيف قضى الليلة الأولى.. كان حديثه يثير الانتباه رغم أن مقصده يظهر مقدار غنى والده الذي تكفل بكل شيء في الزواج هدية منه لابنه المحبوب الذي لا يريد منه سوى أن يكون مساعده في إدارة الشركة بدلاً من التجوال في أزقة وشوارع المدينة مع أصدقاء السوء وقضاء الوقت في أشياء لا تفيد .

لم يخيب رجاء أبيه وإن كان يختلس بعض الوقت لزيارة أصدقائه مدعياً إيصال زوجته إلى المدرسة حيث إنها قررت مواصلة الدراسة..

ـ اينك يا شيخ لك زمان ما شفناك.ك زمان ما شفناك.. ؟

ـ أبداً الأهل تعبانين ..

ـ خير ..

ـ الوالدة في المستشفى وزوجتي تم إجهاضها .. لقد فوجئنا بحملها ورغبتنا في أن نعيش في سعادة قبل دوشة الأولاد وحتى تكمل دراستها قررنا الإجهاض ..

ـ . . . . .

ـ الموضوع.. سعادتنا وهروبنا من المشاكل التي قد ترتبت على ذلك، ولم يقل شيئاً جديداً.. مرت السنون تغير فيها كثيراً ، أصبح حريصاً على العمل وأن يقوم بما هو مطلوب منه ، دفن نفسه في أعمال الشركة هنا وهناك بعد أن آلت إليه وإلى شقيقه ، إنه يريد ولداً ترسبت هذه

الفكرة في أعماقه حتى الهوس ، أما زوجته فلم يعد لديها شيء تعطيه رغم كل التحاليل التي تفيد بأنهما قابلان للإنجاب ..

وقرر المغامرة بالزواج مرة ثانية الذي أغضب مريم فعادت إلى دار والدها منتظرة ما يطرأ ، وفشل كل شيء ، لم تنجب الزوجة الثانية والثالثة والرابعة ..

فعاد عبد الله إلى أصدقائه يبحث معهم عن ما يدله إلى الطريق الحقيقي والتقى بها في إحدى الشركات جميلة كانت تقف أمام باب أحد المطاعم التي ولجها مع بعض رفاقه مع شلة من زملائها وزميلاتها طيعة ولينة سرعان ما غدت صديقة تواسيه في مصابه وتنمي أحلامه ..

وطلب يدها ولكن ردته مدعية أنها متزوجة وزوجها يعمل في المكتب الرئيسي للشركة ..

ـ عبد الله .. إنني حامل ..

ـ ماذا ..

باحت بالسر الخطير وهي تهم بمغادرة السيارة بعد جولة طويلة استغرقت كل ما لديهم من حديث.

ـ سوف أطلب إجازة.. حتى أعود إلى البلاد وأضع ..

ـ وأنا ..

ـ ماذا هناك لا شيء .. لقد كانت لحظات سعيدة هي التي قضيتها معك، وغابت عن أنظاره مدة عادت بعدها إلى العمل في شركتها وأهملت الاتصال به وأخذت تتجاهل استفساره عنها.

ـ أين والدك.. ؟

ـ لقد أجهضت .. ومع ذلك ..

ـ مع ذلك .. ماذا ..

ـ وصل الأمر إلى زوجي فطلقني ..

وشدها بقوة .. أخذ يتأمل عينها بشيء من الخوف والأمل كان في داخله أكثر من سؤال..

ـ هل تتزوجيني..

وأطرقت قليلاً ثم تأملته برهة ..

ـ دعني أفكر ..

تزوج عبد الله فاطمة؛ لم يكن يدري أنها تخدعه.. وطال انتظاره للولد وشعر بالسأم الذي بدا أثره واضحاً على محياه وعلى تصرفاته فقرر أخذ إجازة طويلة من أعمال الشركة والرحيل إلى خارج البلاد لعله يجد ما ينقذه من همومه .. وأخذها معه .

ـ لقد كانت ملعونة .. كانت تسرقني ..

ـ وكيف ..

ـ لقد خدعتني ، كانت كاذبة لم تكن متزوجة .. ولم تحمل مني أبداً .. لقد اكتشفت هذا عندما قررنا العودة .. كانت تطالبني بالبقاء خارج البلاد ولم أجد بداً من تطليقها.. ولكن أخذت مني تعويضاً ضخماً أمن لها حياتها.. وفي الطائرة وأنا أفتش حقيبة الأوراق وجدت رسالة منها أخبرتني فيها بكل شيء وأنها عملت كل هذا لصالحي..

- والآن..

ـ قررت الاستسلام للواقع والعودة إلى.. مريم ..

وخرج من دار صديقه متأخراً كالعادة بعد أن أفرغ ما في جعبته من أقوال وانطلق بسيارته يسابق الريح متجهاً إلى الصحراء.. كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ رغم أنها ليلة شتاء قارس بينما الراديو ينقل أغنية جديدة .

* * *

اللعبة الأخيـــــــــــرة

الطريق طويل .. اكتشف محمد هذا اليوم، وهو يقطع شارع الملك المسفلت وهو في طريقه إلى مقر عمله في الساعة الثامنة صباحاً.. كل شيء حوله ساكن رغم حرارة شمس الصيف التي تلسع ظهره بأشعتها ..

منذ سبع سنوات وهو يقطع هذا الطريق على قدميه لم يحاول أن يختار غيره أو يحيد عنه، وكالعادة كانت أفكاره تدور فيما حوله متأملاً السماء والأرض.. الفراغ الذي يحيط به وأشباح المارة والسيارات التي تمر به أشياء كثيرة لا يدري متى بدأ يفكر بها لكنها كانت حقيقية في أحاسيسه وأمنياته.. كانت أعمق منه جذوراً وأصلب منبتاً، أما هو ذاته فكان لا يدري شيئاً وإذا أعيته الحيل هزَّ كتفيه ثم تلفت حوله وقطع أفكاره بمد خطاه ومحاولته مسابقة من حوله من بشر وسيارات وتأمله بإصرار للنوافذ والأبواب التي حوله.

يوم شبيه بالأيام الأخرى وصل فيه إلى مكتبه ، ووقع في دفتر الحضور ثم جلس خلف مكتبه الخاوي من الأوراق يتأمل فنجان الشاي الذي وضعه الفراش أمامه بشيء من الهدوء والتأمل ، محاولاً أن يفلسف وجود هذا الفنجان أمامه ، وأعيته الكلمات فمد يده إليه وارتشف رشفة صغيرة وصل صداها إلى أعماق أعماقه .. أعاد الفنجان إلى مكانه وأخذ يبحث في أدراج مكتبه عن علبة دبابيس .. لقد تذكر الآن أن أحد أصدقائه طلب منه سرقة علبة دبابيس من المكتب لحاجته إليها.

سَرَت ابتسامة صغيرة على محيا محمد وهو يتذكر علبة الدبابيس.. قطع عليه ابتسامته الفراش الذي ما أن لمح فنجان الشاي فارغاً على المكتب حتى انتصب فجأة بكل قسوة وأخذ يسكب الشاي من الإبريق دون أن ينسب بكلمة.

ـ إنه يريد علبة الدبابيس .. أجل يريد علبة لكن من أين ؟ ولا يوجد في المكتب كله سوى نصف علبة ..

توقف عند هذه الكلمة وأخذ ينصت للحديث الدائر بين زميله في المكتب والمراجعين رغم أنه لا يستطيع شيئاً ويجب الأخذ والعطاء معهم وتوثيق عرى الصداقة .. كانت الصداقة هي كل شيء يفتقده هذا الموظف .. وصل إلى هذه النتيجة وقرر أن يقول شيئاً، لكن الحديث انتهى وعاد الصمت فران على المكتب من جديد..

ـ محمد.. العب ..

ـ ولكن .. لماذا لم تنزل أنت ورقتك ..

ـ ما فيه مانع ..

ـ بل حتى أعرف هل دقيت بالحكم أم .. لا .. ؟

وسرح مع لعبة البلوت .. أجل كل يوم يلعب لكن أمس كان يوماً جهنمياً، كل شيء فيه مثير حتى اللاعبون كانوا جهنميين، لا شيء أمامهم غير التحدي والفوز وليكن ما يكون..

فهد يمد يده في كل مرة نحو الورق للعبث به وجمع ألاكك والعشرات إن كان التوزيع عنده أو عند غيره غير مبالٍ بما في ذلك من أثر سيء .. لقد كان محمد يغلي معها فلم يعرف كيف يلعب وانقلب مرة أخرى .

ـ أبي.. أمي تبغاك ..

ـ ماني فاضي .. روح خذ العشا ..

ـ لقد شبت النار ..

ـ إذن روح وأنا ألحق بك ..

كان هذا رد فهد الأخير على الطفل الذي سمع الكلام وخرج من المجلس وتأمل الجالسين فهد الذي انتهى دوره وأخذ يتفرج على اللعب..

ـ أبي.. أمي تبغ ..

عاد الطفل من جديد يرجو أباه أن يحضر وطرده فهد غير مبالٍ برجاء الجالسين أن يذهب لتحري الأمر ثم يعود.. علل ذلك بأشياء تافهة لم يجد من حوله معها سوى الصمت وترك الأمور تسير على عواهنها.

هدأ التحدي وارتسمت الابتسامة على محيا محمد الذي أخذ يلعب في هدوء للتسلية كما كان يقول الجميع عند زيارتهم له وقضاء الوقت في لعب الورق في منزله لا شيء يجدوه من وراء ذلك غير الترفيه عن النفس وملء الفراغ الذي يعيشه بعد أن سئم التجوال في الشوارع والجلوس في المقاهي .. وطلق القراءة التي أخذ يشعر بثقلها وزهقه منها بسبب اقتناعه بأنه لا يوجد في المكتبة ما يقرأ .. وصل إلى أسماع اللاعبين صوت موسيقى ، إنه موعد أخبار الساعة التاسعة والنصف التي اعتاد التلفزيون تقديمها فأخذوا في التململ وقد أوشكت الجولة على النهاية ، وما أن بدأ المذيع يقدم الأخبار حتى نهض أول اللاعبين مستأذناً ولحق به الآخرون ..

ـ ولكن يا جماعة اللعبة الأخيرة ..

ـ خلاص راح الوقت..

وخرج الجميع من المنزل ووقفوا أمام الباب يمزحون متخذين من نتيجة اللعب تعليقاً فكهاً على المغلوبين..

ومن خلال العتمة أقبل الطفل الصغير فأخذ يتأمل الوجوه حتى عرف أباه وأمسك به..

ـ أبي.أبي. .. أمي ماتت ..

ـ ماذا .. ؟

صرخ الجميع .. وأسرع فهد إلى داره بينما تبعه الآخرون بأنظارهم دهشين ، ولم يلحق الطفل بأبيه الذي أخذ يعدو وغاب لحظات ثم عاد لاهثاً ..

ـ لقد عاد لها النزيف .. وأغمي عليها ..

وأسرع إلى الطريق العام يبحث عن سيارة أجرة وعاد يركض والسيارة تسير الهوينا خلفه وخرج من الدار يحمل بين ذراعيه امرأة متكونة ..

ـ مجنون..

ـ أجل مجنون لعب .. ! ونحن زودنا جنانه .. !

وتفرق الجميع بينما بقي محمد لوحده أمام باب الدار يتأمل السماء وقد ران الصمت حوله إلا من عواء بعض الكلاب القادمة من بعيد، أخذ يقرع أذنه.. كانت لحظة تأمل .. وجد معها في الصباح أن الطريق الذي أخذ يجتازه منذ سبع سنوات طويل ومرهق.

* * *

حكاية حب ساذجة

الحـــــــرمـــــــــــــان

ما أن ارتطمت العربة الصغيرة بالحاجز المسلح في ملف النقبة الحمراء في طريق الطائف مكة بالهدى حتى كانت عربة النجدة تطلق نفيرها المعروف .. واستكانت العربة الصغيرة في حضن الجبل حيث كان اللطف .. وخرج من داخلها شابان في مقتبل العمر ما أن شاهدا عربة النجدة حتى أطلقا ساقيهما للريح !! لكن إصابة عادل لم تمكنه من الاستمرار في الجري إذ توقف وأمسك به رجال الشرطة.. وبعد معاينة العربة التي وجدت فيها بعض المواد المخدرة انطلقت عربة النجدة إلى المدينة..

لم يتفوه عادل بشيء، إذ كان يعرف الجرم الذي وقع منه وأنه لا بدّ ملاقٍ جزاءه رغم معرفته ما لوالده من سلطات ومكانة لدى المسئولين استطاع بواسطتها أن يخرج من أكثر من مشكلة.. لكن الأمر الآن أصبح أكبر من كل شيء، فقد عثرت الشرطة على أشياء ممنوعة، بالإضافة إلى أن العربة مسروقة !! هز رأسه محاولاً طرد هذه الأفكار، وتلفت حوله محاولاً الاستنجاد برجال شرطة النجدة، لكن وجوههم المتبلدة وسحنهم الصارمة وحرص سائق العربة إطلاق نفيره المزعج محاولاً اكتساح العربات أمامه أعادته إلى حالة الانغلاق النفسي والهواجس.. حاول أن يضحك.. وحاول أن يقول شيئاً، لكن جداراً جليدياً يفصل بينه وبين مطوقيه رغم أنه لم يبح لهم باسمه وباسم والده.. فقد أصرّ على الصمت !! وها هو يتأسف على ذلك ، إنهم يتجاهلونه .. يحاولون قدر المستطاع تحطيم ما بقي في داخله من مقاومة.

دخلت العربة المدينة واتجهت إلى إدارة المرور حيث سلمت المتهم وطلبت الإسراع به إلى المستشفى للتأكد من تناوله المادة المخدرة.. الوجوه تسأله في صمت وهو يسير مع اثنين من رجال الشرطة عبر الصالات والممرات وصوت حذاء الجند يصك أذنيه عند توقفهم أمام أحد المسئولين من ذوي الرتب العالية ..

وتتم إدانته هذه المرة .. !!

باح باسمه كاملاً (عادل صالح الشيخ إبراهيم) فحاول أحدهم الاتصال بوالده لكن لم يجده، حيث كان خارج المدينة في مهمة رسمية منذ يومين.. إنه يعرف أن مصيره لا يهم أحداً بشيء رغم أنه أكبر إخوته، فهو منبوذ من الجميع لأن والدته أيضاً منبوذة.. ومنذ كان في الثالثة من عمره وهي مطلقة.. سمع الكثير عن أسباب الطلاق، ولكن في أعماقه رواية واحدة حرص على أن تكون هي الحقيقة لكثرة ما سمعها ممن حوله عنها..

فقد تزوجت عنوة بوالده الذي يكبرها كثيراً .. قروية ساذجة ، كانت منذ الصغر مخطوبة لابن عمها الذي تربى معها في بيت والدها لأنه يتيم الوالدين .. توفي والده في إحدى المعارك التي كانت تنشب بين لحظة وأخرى بين رجال القرى حول المياه والمزارع، أما والدته فقد أصابها مرض عضال وهو في السابعة من عمره انتقلت على إثره إلى رحمة الله ، لكن بعد أن جعلته أمانة في عنق عمه وأن يزوجه من فاطمة ..

لكن الأيام مع دورتها أدخلت صالح في الدائرة .. رجل شرطة، وقد لفضِّ المنازعات وطال مكوثه في القرية.. لفتت فيها فاطمة نظره بجمالها فخطبها من والدها ودخل أولاد الحلال رغم معرفتهم أنها مخطوبة لابن عمها المسافر للتحصيل العلمي .

ولم يدم الزواج كثيراً حيث تربى الشك في أعماق صالح على أثر ما يلاقيه من قسوة فاطمة عليه وعدم تجاوبها مع رغباته ومتطلبات أسرته ، وأخيراً قدوم ابن عمها من السفر وتغير حالها حيث أصبحت ناعمة رقيقة الملمس ..

كان الانقلاب المفاجئ في حياتها له أثره الفعال في علاقتها بزوجها الذي عاد إلى زوجته القديمة وهجرها غير مبالٍ بأثر ذلك على وجودها في الدار الكبيرة.. شعرت بالإهمال ومع هذا حرصت على أن تعيش من أجل ابنها عادل.. وتوقف كل شيء ثم طلّق فاطمة وأخذ ابنها عادل منها، وعادت إلى دار والدها حيث استقبلها الجميع بصمت وحزن.. كانت العيون تطوقها من كل ناحية لمعرفة سبب الطلاق !! وتزوجت ابن عمها الذي لم ييأس رغم غدرها به وزواجها أثناء غربته مع معرفتها بحبه لها ، لكنه يعلم أن زواجها كان بالرغم عنها .. توقف عادل هنا فهو يذكر كل شيء حتى هذه الفترة عن والدته، أما الباقي فلا يذكر منه شيئاً..

كان يدرس ويحاول قدر المستطاع أن يحصل على أكبر رصيد من الدرجات وأمام ناظره صورة والدته التي لا يتذكر منها سوى الملامح التي غدت باهتة مع مرور الزمن.. لم يحاول مطالبة والده بزيارة والدته لشعوره بأن ذلك سوف ينكأ جرحاً التأم مع الأيام ومرور الزمن .. فصمت على مضض محاولاً أن تكون البادرة من الآخرين .. وأطلت المفاجأة ، نال الشهادة الثانوية وها هو ينهي أوراق ابتعاثه إلى الخارج للدراسة :

ـ ما رأيك يا عادل بأن تودع والدتك ؟

ـ ماذا يا أبي .. ؟!!

ـ حيث أنك موشك على السفر إلى الخارج..

فرح كثيراً وأعد نفسه للمقابلة وأخذ يسترجع ما في أعماقه من ذكريات راسماً صورة وهمية لأشقائه الذين لم يشاهدهم حتى الآن.. تسرب شيء من الخوف إلى أعماقه .. تهيباً من موقف اللقاء الذي لا يدري كيف يكون.. أهو حارٌّ مليء بالدموع أم بارد وغير مبال.. أخذت العربة تقطع المسافة الباقية من الطريق الزراعي المتجه إلى القرية حيث تسكن والدته :

ـ منين جاي يا ولدي ؟

ـ من الطائف .

ـ انته من أهل القرية ؟

ـ لا ولكن أريد زيارة أقارب لي ..

ـ زملاؤك في المدرسة ولا العمل ؟

ـ أبداً .. أريد زيارة والدتي ..

ـ أيه .. ومن هي ؟

ـ .....

ـ سبحان الله أنت جاي تبغا تزور والدتك، والمسكينة ماتت في المستشفى .. تبغا تشوف ولدها لكن لم يحقق لها أحد رجاها ..

ـ من ... ؟!!

ـ واحدة من قريتنا لها أسبوعا في المستشفى تعسرت ولادتها فأسلمت الروح..

ـ أي مستشفى ؟

ـ مستشفى الطائف .. هو في عندنا في القرية مستشفى !!

ـ بنت مين .. ؟

ـ بنت الشفاضل.ل ..

ـ ماذا ..؟

ـ ليه يا ولدي.. ؟؟

ـ فاطمة.. زوجة عبد الرحيم .. ؟!!

ـ أجل يا ولدي ..

ـ .....

ـ من أنت ؟ .. أنت ولدها ..؟!!

وانهارت كل أحلامه .. وتبخرت وأخذ يبكي.. أصابته نوبة البكاء فلم يستطع مقاومتها رغم امتلاء العربة بالركاب الذين أخذوا يواسونه بينما كان يردد: إنني ملعون.. إنني ملعون .. وطلب من السائق التوقف وترجل من العربة .. واختفى عن الأعين .. لم يبال بتلك الأشياء التي اقتناها كهدايا لوالدته وإخوته .. أخذ يجري مبتعداً يريد الاختفاء عن العيون وغاب مدة تأخر فيها عن موعد سفره إلى الخارج.. فتم شطب اسمه من كشف الطلبة المبتعثين .. ولم يحاول العودة إلى والده .. شعر بشيء من الحرمان في داخله يدعوه إلى أن يخطئ انتقاماً من المجتمع الذي حرمه من كل شيء !! وغدت كل مظاهر البذخ والرفاهية التي تتواجد في دار والده نياشين حرمان تلاحقه في كل مكان .. كان يتذكر ويلقي برأسه بين يديه محاولاً وأد الذكريات خلف الباب الذي تلج منه فلم يستطع.

أغلق الجندي عليه باب غرفة الحجز وهو متأكد أنه لن يخرج هذه المرة إلى دار والده، بل إلى السجن.. ليمضي مدة العقوبة التي سوف يقررها القاضي .. دبّ النعاس إلى جفنيه وهو جالس فوق مقعد الخشب الطويل حيث لا يوجد سواه في الغرفة وتمدد واضعاً رأسه فوق يده ومغطياً عينيه باليد الأخرى..

ـ انهض ..

ـ ماذا ..

ـ لقد أفرج عنك ..

ـ عني .. !!

ـ لقد عثرنا على رفيقك في العربة وقد اعترف أنه هو الذي سرق العربة وكان يقودها أثناء الحادث..

ـ وأنا.. أنت. أنت ..

وصرخ في وجهه الملازم الذي كان يقف خلفه الجندي:

ـ أنت نحن آسفين لتوقيفنا إياك ولكنها إجراءات وروتين التحقيق ..

* * *

الهروب وبحث المجاز

إنه مسافر .. لقد ترك البلاد في رحلة تستغرق شهراً.. قال للبعض إنها أجازة عادية .. وللبعض الآخر رحلة علاج ولعدد لا يتجاوز أصابع اليد.. لتحقيق رسالة والتأكد من صحة مخطوط عثر عليه مطموراً بين كتب قديمة في شنطة حديد أنزلها أحدهم ضمن بعض الأشياء المحطمة إلى الحراج فاقتناه ..

ـ أرجو أن تكون عيناً ناظرة على أسرتي .. ؟

لم يشعر عادل بثقل الكلمة حتى رأى دموع زينب.. كان كل شيء فيها يقول إنها محرومة وليس لها في هذه الدنيا أحد سوى ابنها بعد أن تركها زوجها وحيدة.. مع معرفته التامة بكره أهله لها وعدم اهتمامهم بمصيرها ..

ـ هل أنت بحاجة لشيء .. ؟

هزت رأسها بأنه لا تحتاج لشيء رغم دموعها.. إنما كان عليها أن تصبر وأن تنتظر حتى يعود..

وقف فراش مكتب مدير الإدارة أمام عادل الذي كان يقلب بين يديه بعض الأوراق حتى يقنع مراجعيه بما ذهب إليه ..

ـ التلفون يبغاك ..

ترك كل شيء .. وأخذ يسير وراء الفراش .. ورفع سماعة التلفون ..

ـ نعم ..

ـ .....

ـ حقاً .. ماذا ؟ إنني مشغول ..

ـ .....

ـ لا أعرف .. لا أظن ذلك ..

وألقى بالسماعة إلى مكانها .. وعاد أدراجه إلى غرفته ، لم يعد في صندوق المكتب شيء من الفلوس .. والراتب سوف يتأخر صرفه.. لا أدري من أين جاء الفرق الموجود في الصندوق ؟

كانت العربة منطلقة في طريق رملي .. وكان الغبار يتصاعد في سحب وراءنا .. كنا اثنين فقط .. أحمق .. وثرثار، الأحمق يسير في تروٍ وهدوء غير مبالٍ بما يلحق العربة من عطب.. أما الآخر فكان يروي حكاية مزيفة لواقع مجهول جعل من نفسه بطلاً..

كان الثرثار .. زوج زينب التي تضع الآن في المستشفى مولودها الثاني كما روت له زوجته ذلك عبر أسلاك التلفون حيث نقلتها بعربة أجرة إلى المستشفى وأحالها الطبيب إلى القسم الداخلي ..

فك أزرة ثوبه متخيلاً أنه يعيش حالة انعدام وجود الهواء ، إنه يطفو .. والظلام يخيم على المكان .. لم يعد يرى شيئاً سوى همهمات مجهولة المصدر اتخذها دليلاً ليصل إلى النور..

جلس عادل على كرسيه وراء مكتبه .. وعاد إلى تقليب الأوراق المتناثرة عليه ..

ثم رمق الجالسين بنظرة أودعها شيئاً من الدعة..

ـ وأنت.. ؟

ـ لقد طالبني صاحب الشقة بإخلائها ..

ـ وما دخلي في الأمر..

ـ أرجو سرعة إنهاء إجراءات سفري ..

ـ وهل بدأت إجازتك .. ؟

ـ بعد ..

ـ وهل استلمت حقوقك حتى نهاية العقد .. ؟

ـ بعد ..

ـ ومتى تبدأ الإجازة .. ؟

ـ بعد خمسة عشر يوماً ..

ـ لو أنهيت معاملتك اليوم هل تسافر.. ؟ إنك تعطلني عن أداء واجبي .. إنه لا داعي لأن تتوسط.. لقد كلمني محمد عنك هذا الصباح.. عزيزي قبل بدء إجازتك بخمسة أيام راجعني ، وفي خلال ساعات أنهي إجراءاتك ..

وخرج من مكتبه وخلفه المراجعون .. كلهم يريدون إنهاء معاملاتهم غير مبالين بما يلقاه من عدم مبالاة من بقية الموظفين حيث تمر أوراقهم، إذ أنه البداية والنهاية ولا شيء سوى ذلك.. واستقل عربته وأخذ طريق المستشفى حيث صعد إلى القسم الداخلي ووجد زوجته أمام باب غرفة الولادة.. حيث علم بأن زينب بالداخل تعاني من آلام المخاض، وأنها على وشك الوضع..

عاد أدراجه .. أخذ يعد درجات السلم .. لقد أصبح في وضع لا يُحسد عليه، فالمشاكل تطوقه من كل ناحية، ومن محاسن الصدف أن عدد درجات السلم تساوي عدد درجات سلم المكتب، إنه الدور الثالث حيث يعيش مع مشاكل المراجعين.. وهاهو يعيش مع مشاكل زينب ..

وقف أمام باب المستشفى قليلاً .. كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ظهراً فلمحها.. لم يكن في داخله شيء .. تقدمت منه وقدمت له كيساً صغيراً عبارة عن حقيبة يد ..

ـ سألحق بك بعد قليل ..

لم يكن يعرفها .. كانت مفاجأة أكبر مما يتحمل.. وأخذ يصرخ من أنت ؟ محاولاً اللحاق بها، لكنها اختفت في دهاليز المستشفى.. فعاد القهقرى حيث التقى بثلاثة من الشباب يمدون الخطى متلفتين حولهم.. عرف من همسهم وارتباكهم أنهم يلاحقونها .. وعاد إلى مكانه حيث وقف قليلاً .. ثم اتجه إلى العربة وهناك لمحها تقف خلف أحد عواميد الموقف.. وبدون أي شعور مد يده إلى الباب الآخر وفتحه لتلج العربة.. وينطلق بسرعة .. أخذ يسير دون هوادة في شوارع المدينة .. كان منهوك القوى من فرط الإجهاد، فلم يحاول فتح باب الحديث.

ـ أرجوك توقف..

وأوقف العربة .. لتترجل منها ولمحها تتألق صحة وشباباً ، جميلة المحيا .. على شفتيها ترف ابتسامة صغيرة .. أخذت تكبر وهي تقفل باب العربة ..

ـ لا أدري كيف أشكرك .. لقد أرسلتك السماء لإنقاذي من موقف كنت أكرهه..

همّ أن يقول شيئاً، لكنها ابتعدت دون أن تنظر إليه.. وولجت باب عمارة كبيرة ولمحها وهو يهم بالسير تصعد السلم..

* * *

إنهم يبحثون عن الزهور

ترجل حامد من العربة وتلفت حوله وهو يغلق الباب بالمفتاح.. الهدوء مخيم على الشارع الذي اعتاد على صراخ الأطفال وكرة الشراب وعويل أبواق العربات ..

قرع حامد الباب الخشبي المصبوغ باللون الأخضر في ارتباك وهو يحفر ذاكرته محاولاً استخراج ما اختزنته من ذكريات الطفولة والصبا، حيث كان صديقاً باراً للشارع رغم انعزاليته وانطوائه وحرصه على الابتعاد عن الضوضاء والضجيج.

كرر الطرق على الباب وسمع صوت وقع حذاء يقترب، وصوتاً واهناً يسأل من الطارق.. عرف أنها جدته التي تجاوزت الستين ودب الوهن والمرض في جسمها حتى لم يبق سوى العظم شاهداً على ظلم الأيام وتصريف الزمان.. كانت فرحتها أكبر من أن توصف بقدومه ، وأخذت تقبل وجنتيه المرة تلو المرة ، وتتحسس وجهه بيدها حتى تطمئن أكثر على صحته .

- أين أمي والإخوان ..

- راحوا لأخذ عمرة..

- وأنت لوحدك..

- جارتنا .. جابت لي الفطور .. وقبل شوية أرسلت بنتها الغدا .. و .. ولم تكمل العجوز حديثها حتى كان الباب الخارجي يفتح ودخلت امرأة بسرعة غير منتبهة لوجوده.. ألقت السلام ثم وقفت مشدوهة عندما لحظته جالساً بالقرب من العجوز ..

- ابن عائشة فهد ..

- ....

تصلبت نظراتها ولم تستطع إعادة الحجاب على وجهها ، وتقدمت ثم مدت يدها مرحبة في خجل ..

- تريدين شيئاً يا خاله ..

وخرجت قبل أن تسمع الجواب.. أخذ حامد يفكر في المرأة، إنه يتذكر أنه شاهدها قبل هذه المرة، لكن أين.. ؟ ولم تسعفه ذاكرته بشيء ..

وخرج من الدار لزيارة الأصدقاء والتجول في شوارع الطائف التي غادرها منذ ثلاث سنوات حزيناً بعد أن فشل في دراسته وتكرر عدم نجاحه في المرحلة الثانوية وهاجرت فائقة فتاة البلكونة الخضراء المطلة على مسيال وادي وج المدينة مع عائلتها إلى الرياض مخلفة أكثر من جريح .. أكثر من رسالة ، وأكثر من حكاية منها الحقيقي ومنها المبتكر ..

في أحد الأيام ترك المدرسة كالعادة غير مبالٍ بأثر ذلك، ركب دراجته العادية واتجه إلى هناك حيث وجدها تقف مع ابن أختها في الباب، كانت الساعة العاشرة صباحاً.. أخذ يبادلها الحديث.. وتكرر اللقاء .. وأعطته صورتها ، لكن لم تحاول مراسلته كبقية الآخرين ، واكتفى بالصورة لعلمه أنه لم تمنح أحداً مثلها .. واختفت .. واختفى هو أيضاً، رحل مع الراحلين .. كان السفر أفضل من بقائه لا عمل له ولا دراسة.. يجب أن يكون رجلاً مثل الرجال، عليه أن يعمل.. أن يقوم بالواجب، أما أن يبقى عالة على والدته وزوجها فهذا شيء غير مستحب.. لقد تحطمت أحلامه وغدت الصورة باهتة، فالطموح المقرر أن يكون غرّب مع وفاة أخيه فريد ورحيل صالح إلى الجنوب باحثاً عن المال، وقرر الرحيل.. زاده قصاصة من صحيفة يومية بها إعلان حكومي عن وظائف شاغرة ، وتفكير عادي في أنه سوف يبتعد عن مدينته الجميلة ورفاق الطفولة وأصدقاء الدراسة مخلفاً وراءه الشوارع التي شربت من نهر عمره ثمانية عشر ربيعاً في صراع بين سذاجة الطفولة وطموح الشباب وأحلام الفتوة مع صخب الحياة وقسوة الأيام ، وهاهو يعود بعد ثلاث سنوات .. ممتلئ العود ، موظف عادي يستطيع مرتبه أن يقوم أوده .. ومشروع زواج يداعب مخيلته رغم عدم استعداده مالياً ولم يتهيأ نفسياً لذلك، عاد في ساعة متأخرة من الليل إلى المنزل ووجد الجميع في انتظاره بما فيهم الجارة التي ما أن لمحته يلج الدار حتى استأذنت وأخذت ترمقه بنظرة جانبية حاولت بها أن تقول شيئاً، ومرت بالقرب منه ، كان إحساسه بها قوياً رغم الضجيج الذي حوله وصراخ إخوته الصغار وهتاف والدته مرحبة .. أراد أن يقول شيئاً فلم يستطع ..

- من هي..

- إنها خطيبتك ..

وتذكر كل شيء .. سارة الطفلة الشقية التي كثيراً ما كانت تلجأ إليه في إنصافها من أخيها .. وأخذ يتذكر والدها الرجل الطيب، ووالدتها .. الصور أخذت تتوارد الواحدة تلو الأخرى..

- وكيف .. ؟

- ألم يصلك خطابنا ؟

وهزَّ رأسه، لقد كان حضوره بسبب ذلك الخطاب الذي يدعوه للحضور ومشاركته في التقدم لطلب يد سارة من والدها.

استقر حامد في الطائف بعد أن قدم استقالته من العمل، حيث عاد شقيقه صالح من رحلته من الجنوب شاعراً بثقل الغربة ووطأة الأيام عندما يصبح الإنسان وحيداً في معركته معها، وقرر فتح مكتب تجاري للعقارات.. كانت العودة أجمل ما في ذلك . وتم الزواج .. كانت سارة تذكره كل ليلة وهم أمام التلفزيون بأشياء غابت عن ذاكرته من أحاديث الطفولة وشقاوتها.. كان يريد أن يقول شيئاً.. لكن الأيام كانت أكبر من كل شيء .. وقد ابتسمت ابتسامتها الكبرى .. لتجعل الطريف مفروشاً بالزهور ..

* * *

عندما تطل الأصوات خجلة

الحزن يملأ المكان .. هناك ظلال سوداء ترفرف على المكان رغم كل البوادر والملاحظات والنقاط.. فالثريات تزرع الشوارع نوراً والزغاريد المطلة من النوافذ .. ورائحة الدخان التي تملأ المكان ورائحة الطبخ وعبق رائحة الهيل والعود وصراخ الأطفال ..

ـ أربع ميه ..

صرخ محمد ، لقد كانت مفاجأة لم يكن يتوقع وهو يشتري على الورقة المكشوفة من أن تأتي (الاكه) الرابعة ضمن آخر ورقتين في التوزيع .. كانت الصرخة فجوة فرح سرعان ما وئدت .. حيث غلط زميله في اللعب عادل ، واستغل الآخرون الفرصة (وكوشا) اللعبة التي كانت بداية للفرح ونهاية له انفعل قليلاً ثم واصل اللعب ، ولكن بنفس غارقة في دوامة الظلال السوداء .

ـ عبد العزيز .. تعال العب ..

ـ هل انتهت اللعبة .. ؟

واقترب عبد العزيز الذي كان يتحرك هنا وهناك مشاركاً الجميع فرحهم..

ـ روح يا شيخ ساعدهم ..

ـ إنه لا يعمل لله ..

ـ وصرخ عبد العزيز :

ـ ماذا ؟ ..

ـ لقد شاهدت العيون المتلصصة من فتحات سترة السطح .. ومن النوافذ الموارية .. إنهن كثيرات .. ترى هل لفت نظر واحدة منهن..

ـ أنا.. ؟

وضحك الجميع .. بينما كانت نظراتهم تتجه إلى الفتحات المليئة بوجوه بعض الفتيات الصغيرات والأطفال..

نهض محمد من مكانه ليفسح للآخرين وغادر المكان .. كانت الأفكار تملأ رأسه .. وبوادر الصداع تشعره بالضيق ..

الساعة الحادية عشرة ونصف ..

لا زال حفل الزفاف في بدايته .. لقد انتهى الرجال من الأكل ، أما النساء فسوف يقدم لهن العشاء الساعة الواحدة والنصف .. إنها عادة مستهجنة .. وهزَّ رأسه وهو يدخل المفتاح في فتحة باب الشقة.. كانت سوسن وخالتها وعمتها الصغيرتان والمسجل يملأ المكان ضجيجاً ..

فسوسن تحاول رغم سنينها الأربع أن تحكي لعمتها وخالتها حكاية وهن يطالبنها بالهدوء والنوم .. هربت الاثنتان عند دخوله .. كانت فرصة للذهاب إلى الزواج حيث سبقتهن أم سوسن وبقية الأسرة .. تلفت محمد حوله وأخذ النوم يداعب مقلتي سوسن، وتناول من فوق دولاب الملابس ديوان شعر قديم أخذ يقلب صفحاته باحثاً عن قصيدة مناسبة يقرأها في وحدته..

كل شيء حوله هادئ .. الأصوات تطل في خجل من بعيد معلنة عن نفسها.. إنهم يفضلون الانتحار على أن يجتازوا الثقب المرتوق في ثوب الليل.. لقد أصبح الثوب خلقاً ، لم يعد يكتفي الليل بحداء المسافرين وحزن العشاق ، فقد امتلأ بصراخ أبواق العربات وفحيح الثعابين وأشياء كثيرة كانت مجهولة والتفكير فيها مستغرب ..

وصل محمد إلى نهاية القصيدة الأولى .. كانت المسافة طويلة تخللتها بعض المواقف الجانبية كقراءة الحواشي ومعرفة ما يريد الشاعر الذي توفي منذ مليون عام.. تحت صخرة ما في ناحية مهجورة من الوطن.. بعد أن تزوجت ليلى وقررت التخلص من ذلك الحب العذري الذي شهر بها وغدت حكاية على كل لسان وشفة.. لا تخلو من الفخر واللمز من قناتها رغم معرفة الجميع أنها ابنة شيخ الحي ولا يستطيع أحدهم أن يرفع عينيه إلى عينيها من الهيبة والخوف من العاقبة.

أطبق محمد الكتاب .. وحمل سوسن إلى فراشها في الغرفة الثانية .. ودثرها باللحاف .. وعاد إلى مكانه لمواصلة القراءة .. وتأمل الساعة المزروعة بالقرب من مرآة التسريحة، أنها الواحدة والنصف..

نصف ساعة للأكل .. إذن عليه في الساعة الثانية أن يذهب إلى مكان الزواج لإحضار أسرته.. فالليل رغم قرب المسافة مخيف وخاصة ليل الصيف الذي لا يخلو من معتوه فاقد الشعور..

وضع الغترة فوق رأسه .. بعد أن ألقى بالكتاب الذي بين يديه جانباً وتأمل المرآة في هدوء..

إن عينيه محمرتان من السهر والقلق .. إذ لم يعتد على البقاء حتى هذه الساعة وحيداً منذ أن تزوج قبل عشر سنوات حيث هجر القراءة الطويلة المدمنة والذهاب إلى السينما حتى آخر الليل .

خرج من الدار وأقفل الباب في هدوء حتى لا يشعر الصغيرة النائمة بذلك.. واختار أقصر طريق على أمل أن يجدهن في الطريق واقترب من الثريات.. الهدوء مخيم على المكان .. والتعب يطل بقسوة من عيون المتناثرين هنا وهناك من أهل العروسين والمساعدين.. واقترب .. واقترب .. لكن الأضواء كانت بعيدة .. وشعر بالاختناق .. إن الجفاف يشق شفتيه والآخرون ينظرون إليه بسذاجة وعدم مبالاة .. لم يعد في استطاعته أن يقول شيئاً .. فالمسافة رغم أنه أخذ يمد خطاه ما زالت كما هي والأنوار المتلألئة والأشخاص المتناثرين هنا وهناك فقد أنهكهم التعب على مرأى البصر.. لكن متى يصل ؟ .

* * *

غدير البنات

الينبوع ما زال ينزّ بالماء .. وهذه الزغب والطحالب المفروشة على الرمل على مد البصر تؤكد ذلك .. لكن الطريق مهجور .. حيث جرفه السيل وغدت السيارات الصغيرة لا تستطيع مواصلة السير .

ـ آه .. لو معنا سيارة جيب..

كانت التنهيدة من منصور .. وكذلك التمني الذي أخذ يعكر صفو المجرى الهادئ بقدميه.. بعد أن خلع نعله وأخذ يجري بكل قوته في الوادي المهجور مخلفاً وراءه العربة الصغيرة التي انغرست عجلاتها في الرمل ، وصديقه رفاعة الذي أخذ يفكر في طريقة لإخراج السيارة والعودة من حيث أتيا ..

الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً .. لقد استأذن رفاعة من رئيسه في العمل مدعياً أنه مسافر إلى الرياض.. لقد خطط: سوف يسافر مهما كان الأمر.. إلى الرياض .. إنه يحب هذه المدينة حباً كبيراً وكذلك يحقد عليها .. لقد لفظته منذ عشرة أعوام.. عندما قدم إليها وأصر على البقاء .. كانت الجدران غريبة وقاسية .. وكذلك الوجوه رغم وجود الأصدقاء والمحبين..

كان وحيداً عندما رفضه صالح .. راغباً الزواج من جواهر .. كان يعرف أنها قريبته وأنها غدت خطيبة له منذ مليون عام وها هم يتنكرون لذلك.

ـ إنه مبذر .. لم يجمع شيئاً من مرتبه .. يشتري كل يوم جرائد ومجلات وكتب.. لا يركب في الحافلة .. أصغر مشوار يأخذ عربة أجرة طلب .. دائماً يذهب مع أصدقائه إلى المطعم .. بمعنى أصح راتبه في جيبه .. ولا تمر عشرة أيام حتى يكون على الحديدة .. وقرر الانتحار .. يئس من كل شيء .. أخوه في جدَّة .. والدته في الطائف .. ومرتع الطفولة .. غدت صورة باهتة كل الصور لا لون لها ..

ـ إنسان جائع .. ؟

الجوع في أعماقه .. أجل .. إنه جائع لشيء ما .. لكن ما هو هذا الشيء.. ها هو يلتهم ما يقع تحت يده .. ويلتهم الآخرين بعينيه .. ويحلم .. ويحلم ..

ـ منصور.منصور. ..

صرخ رفاعة .. مبتهجاً .. لقد أخرج العربة من الرمل وها هي تقف شامخة على جانب الطريق.. وقد تم توجيه مقدمتها إلى الجهة الأخرى من الطريق.. الساعة الواحدة بعد الظهر .. وصل الاثنان إلى الردف حيث يبدأ الإسفلت .. كان حديثهم عن المهرجان المقام في المدينة .. وهل سوف تسنح الفرصة لهم بمشاهدته .. لا شيء أمامهم غير ذلك.. ثم التوجه إلى الرياض .. مرت لحظات .. ران فيها الصمت على الاثنين، كان الطريق فيها يقترب من نهايته بسرعة مخيفة..

ـ أنت ادخل البيت وأنا سوف أشارك جيراننا جنازتهم.

دخل منصور البيت ورسم رفاعة على وجهه الحزن .. وهو يقترب من باب جاره الذي توفي في الصباح .. حيث يقف ثلة من الرجال في انتظار خروج الجنازة من الدار.. لحملها إلى العربة والاتجاه إلى المسجد..

ـ البقية في حياتك .. ؟

قالها لهم جميعاً .. وهو يعانقهم .. واحداً واحداً.. فكلهم أقرباء الميت حتى هو كان من أقرباء الميت ومن أصدقائه الخصوصيين .. لكن في الآونة الأخيرة انقطع عنه لم يهتم بزيارته في البيت أو المستشفى ، ولم يهتم حتى بالسؤال عنه رغم التصاقه به .. كانت الغصة في أعماقه تكبر دائرتها وتكبر .. وهو يردد ما قالته له والدته في الصباح وهي تنقل خبر الوفاة له..

ـ لقد كان يسأل عنك..

خرجت الجنازة وركب الجميع عربات الونيت المتكومة في الشارع .. كان عددهم عشرة .. ولم يركب معهم حيث عاد القهقرى .. فزعاً من شيء .. إنه دائماً خائف ..

الساعة العاشرة مساء ..

قطعت العربة أكثر من ثلاثمائة كيلو من طريق الرياض ، إنهم الآن ثلاثة : منصور .. علي رفاعة. .. حديثهم طويل يتخلله بعض المواقف الضاحكة.. والبحث عن شريط لوضعه في المسجل ..

ـ يا لجمال غدير البنات ..

ـ أين وصلتم .. ؟

ـ عدينا الخزان ودخلنا يميناً حتى أوشكنا نصل الطلعة..

ـ لم تشوفوا شيئاً .. الجمال وراء الطلعة ..

وضحك الثلاثة على هذه النكتة .. كان علي يتحدث بإصرار مؤكداً ما ذهب إليه .. وتوقف رفاعة للتزود بالوقود ومواصلة السير .. لم يبق سوى القليل .. ومع انبلاج الصباح كان الثلاثة في الرياض تسرب السأم إلى صدر رفاعة.. كان يتلفت حوله يبحث عن منطلق.. إن القفص يطوقه .. شعر بالاختناق عندما لم يجد أحداً .. كان الجميع مخيمين في البر .. و .. غير موجود .. لا أحد هناك تجول قليلاً .. زار كل المعالم التي يعرفها..

الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ..

علي ورفاعة .. وحيدان في العربة.. التي أخذت تنحدر من ديراب .. لقد قررا العودة .. فلا شيء يدعوهما إلى الانتظار وارتباطهما بالعمل يحتم عليهما العودة.

* * *

سوف يعـــــود

ابعد .. اقلع يدك عني .. وتلفت حوله .. كانت غرزت خنجر جديدة تمزق أعماقه.. لكن كيف يفسر الصورة .. وهو يعلم أنها لا تعني شيئاً من ذلك.. إنها مجرد كلمات ارتسمت على لسانها وأطلقت لها العنان ..

لكن كثرة توجساتها هذه الأيام ، وانفعالها .. ؟

ارتسم هذا السؤال أمام صالح، وهو يطل من نافذة غرفته إلى الفراغ.. لا شيء أمامه سوى صورة باهتة لمعالم وذكريات هي أيضاً باهتة، كل شيء فيه باهت.. هكذا أخرج أخيراً ابتسامته التي سئم منها وتمنى أن تشنقها الأيام .

وعاد إلى الفراش .. ارتمى دون وعي وجعل من جدار الغرفة مرآة يتأمل فيه وجهه، لماذا قالت اقلع يدك عني..؟ هل هو السأم الذي يشعر به أم أنه شعور غريب .. وعدم استساغة لمزحه ولسانه .. ؟

ـ إنها زوجتي .. ؟

سؤال آخر ارتسم على الجدار .. كانت كلمة زوجتي أكبر كلمات الجملة حروفاً وبروزاً وأخذ يتحسس الجدار بأنامله محاولاً معرفة سبب هذا البروز والكبر.. وتهدلت يده واستسلم صالح لغفوته المعتادة بعد الغداء .

الشارع ما زال يضج ، الصخب يرتفع ولا شيء سوى عواء الكلاب ومنبهات العربات وصراخ الأولاد وهم يلعبون الكرة .. والريح هذا اليوم شديدة ومتربة .. اجتاز الشارع وأخذ يسير على الرصيف يعد خطواته.. إنه يصل حتى الثلاثين ثم يعود للعد من جديد.. وامتلأت يده بالثلاثينات كل إصبع من أصابع يده عن ثلاثين ومع ذلك ما زال الطريق طويلاً .

ـ صالح .. صالح .. ؟

وتلفت حوله يبحث عن صاحب الصوت ..

ـ تفضل نوصلك.. ؟

وركب معهم ، أشخاص يعرفهم معرفة أكيدة ، ولقد لعب معهم البلوت .. ولكن ما أسماؤهم ؟ ياسين .. علي .. موسى .الخ. ..

ـ هنا .. شكراً .. ؟

وتوقفت العربة .. ونزل صالح من العربة وهو يفكر في الأسماء .. ويتذكر أن أصابع يده ما زالت مضمومة، فأخذ يواصل العد، ولكن المسافة التي قطعتها العربة ليست بالهينة أتراه يخمن كم خطوة هي.. وتوقف يفكر في الموضوع ..

ـ عمى .. قليل الأدب.. ؟

صفعته الجملة .. وانتزعته من أحلامه .. لكنه أخذ يتأمل صاحبة الصوت التي أخذت تبتعد.. عباءة سوداء وظهر منحن ووجه ضاعت معالمه وراء غطاء خفيف أخذ يتلفت بين الحين والآخر.. وتذكر زوجته منى .. تذكر لماذا خرج من البيت .. ولماذا نهض فجأة من الفراش ورفض شرب الشاي فأخذت خطاه تمتد .. الجميع في انتظاره .. الساعة السابعة ولا شيء غير هذه الساعة التي يمر بها على الرفاق لقضاء ساعتين في مثل هذا الوقت مع الورق والحديث في أمور الدنيا .. كان يلعب وهو صامت يستمع إلى هذا وإلى ذاك غير مبالٍ بما يدور حوله من أحاديث ..

ـ إنسان غير مبالٍ .. ؟

جملة عابرة قالها أحدهم .. بعد مضي ربع ساعة على جلوسه حتى قفز واعتذر للجميع وخرج .. تلتف حوله ثم ركب عربة أجرة وطلب من السائق الإسراع، ووصل البيت كان كل شيء هادئاً والظلام مخيماً .. فتح الباب بالمفتاح الذي معه .. واستقبله صوت التلفزيون .

* * *

الخـــــــــــوف

واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. إنها تتحرك أصابع يده .. أجل تتحرك وقفز من الفراش ، أخذ يتلفت حوله .. أنا حي .. ما زالت عروقي تنبض والدماء تجري فيّ .. لكن أين أنا .. ؟ تلفت حوله .. الظلام مخيم .. ولم يصل إلى نتيجة ..المكان في أعماقه مجهول وكل شيء حوله غريب .. وعاد إلى يده يعد أصابعه .. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. وكرر العد .. كرر .. كل شيء كان فيه متبلداً ..

لقد مات .. نعم ..كان الموقف من أصعب المواقف بالنسبة لجندي .. يجتاز الغابة وحيداً مع بندقية بدون رصاص .. الهجوم كاسح .. لم تستطع الفرقة المتقدمة مقاومته، فمات جميع أفرادها ما عداه .. كانت الأشجار ملعونة إذ أخذت تشي به ، كان حفيفها وهو يمر بها يثير القشعريرة في جسمه .. مر مرور البرق بكل الحواجز حتى النهر المكهرب .. حافة النهر محاصرة بأسلاك شائكة مكهربة ..

وتلفع ببذلته بعد أن رمى بالبندقية جانباً وقفز في الهواء محاولاً اجتياز الأسلاك .. وانهمر عليه الرصاص من كل جانب .. انهمر كل شيء وانهار فوق الأسلاك جثة هامدة ملطخة بالدماء ..

واحد اثنان ثلاثة .. أجل حي .. أنا حي وتحرك قليلاً أخذ يتقلب في الفراش ..

ـ سالم .. ماذا بك .. ؟

صوت يعرفه .. أجل صوت معروف يناديه .. وتلفت يبحث عن المصدر ..

ـ سالم هل هناك ما يقلقك .. ؟

ـ أبداً .. أبداً ..

كان يود أن يقول .. إنه يريد معرفة المكان الذي هو فيه الآن، ولماذا هذا الظلام الحالك الذي يلف المكان ؟ وما معنى السؤال عن حاله وماذا يقلقه .. وقد مات ؟ أجل مات ..

وأخذ يعد .. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. إنما كيف يعد .. أصابعه تتحرك وأطرافه تتحرك ، ولا يشعر بأي ألم في جسمه .. وهذا الصوت صوتها .. أجل صوتها .. إنها مريم ..

ـ سالم هل تحدث نفسك .. ؟

ـ لا إنما النوم .. هجرني فجأة ..

ـ لماذا لا تشعل النور ..

ـ أي نور ..

ـ إن الظلام يخيم على الغرفة ..

ـ وهل أسروك .. أيضاً .. ؟

ولم يسمع رداً على سؤاله الذي تمنى أنه لم يلقه .. ترى كيف وصلوا لها .. إنه يذكر أنها كانت في البيت .. لقد ودعته هي وطفلته الوحيدة بدموع غزيرة .. وطمأنها أنه عائد .. سوف تنتهي الحرب ولن يكون هناك ما يسوء ..

ولكن المكروه حلَّ الآن .. إنها هنا معه .. وفي مكان مجهول .. يا لله ما هذه الدنيا التي تحتاج إلى ميكروفون حتى تعلن عن نواياها تضعه في هذا الموقف ..

ـ أين فاطمة ..

ـ لقد .. نامت .. هادئة ..

ـ ماذا .. ؟ ماتت هادئة .. ؟ كيف .. ؟

وقفز من الفراش .. واجفاً .. وهنا تأكد أنها ما زال حياً وليس فيه شيء يؤلمه .. فعاد إلى مكانه .. يتلمس الفراش والتقت يده بيد زوجته مريم التي احتضنته وألقت برأسها على صدره ..

ـ ماذا بك يا حبيبي ..

ـ لماذا هذا الظلام .. ؟

ـ هل أشعل الضوء ..

ـ أرجوك ..

ونهضت من مكانها .. وإن كانت أنامله تتحسس جسمها مترقباً صرخة ألم .. لكن كل شيء مر بهدوء ..

ـ الكهرباء مقطوعة ..

ـ ماذا .. ؟

واخترق نظره النافذة .. هناك أنوار في الشارع .. المدينة تحترق .. أجل المدينة تحترق.

ـ إنها تحترق ..

ـ من ..

ـ المدينة ..

ـ وعادت مريم إلى الفراش .. وأخذت وجهه بين يديها .. أخذت تتأمله بعد أن اعتاد الاثنان على الظلام .. كانت أناملها تتحسس جبينه وعينيه ووجنتيه ..

ـ ماذا .. هناك يا حبيبي ..

ـ لماذا لم يشتعل الضوء ؟

ـ لعل اللمبة محترقة ..

اللمبة محترقة .. وتحسس أطراف الفراش .. وارتفع صراخ فاطمة كالعادة تطلب ماء .. إنها في مثل هذا الساعة من كل ليلة تنهض من فراشها .. وتصعد إلى السرير حيث ترقد والدتها لتمسك بشعرها وتعود إلى مواصلة النوم، وأخذت الصور تتضح وأخذت يده تتقلص ..

واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. ونهض من الفراش ولحقت به مريم .. واتجه الاثنان إلى فراش الصغيرة التي أخذت ترتعش من الخوف ..

وخرج سالم من الغرفة وهو يحتضن ابنته .. فإذا بالضوء يصدمه .. كان البيت يعج في النور .. وتأمل الساعة المعلقة على باب المطبخ .. كانت الخامسة صباحاً .. وارتفع صوت مؤذن يدعو الناس إلى الصلاة .. مخترقاً الصمت .. كان الأذان واضحاً، كما أن صورة فاطمة التي عادت من جديد للنوم واضحة .. والتفت وراءه حيث مريم واقفة تتابعه بنظراتها ..

* * *

الأمل والفصول الأربعة

الفصل الأخير:

توقفت العربة أمام باب دار والد زوجتي وتريثت قليلاً قبل أن أحرك عربتي، كانت الساعة الرابعة مساء .. حيث قررت أنا وزوجتي أن نقوم بجولة خارج المدينة ..

ـ أظنه صالح ابن عمتي ..

ـ أجل هو ولكن من هي المرأة التي معه .. ؟

ـ لا أدري ..

وترجلت المرأة وكانت تحمل بين يديها لفافة بيضاء .. كما ترجل صالح وأخذ يرمقنا بينما هو يساعد بناته الصغيرات على النزول من السيارة .. وصرخت زوجتي ..

ـ إنها زوجته ..

ـ ما رأيك هل تنزلين وبلاش من الرحلة هذا المساء ؟

وترددت زوجتي قليلاً ثم همهمت :

ـ مسكين لقد جاء له ولد بعد أن يئس وها هو يأتي بزوجته لزيارة والدي رغم أن الحق لهم .

الفصل الأول:

كان كل شيء هادئاً حولي حتى وأنا أسمع تأفف من حولي من حياتي غير المبالية، كان كل شيء بيدي، بل الدَّين المتراكم علي رغم أنني لا أعرف أين أهدرت مرتبي الذي لا يشاركني أحد فيه .. ثلاث سنوات في الوظيفة وشقيقتي تصرخ فيّ بين لحظة وأخرى:

ـ صالح فاتن تحبك وتريدك زوجاً لها، وأنت تعرف ذلك والفرصة بين يديك فلماذا كل هذا .. ؟

لم تحزنني أحاديثها ولم أغيّر من نمط حياتي شيئاً رغم إحساسي بأنني سوف أصدم بالنهاية .

وكان كل شيء .. تقدم أحدهم طالباً يد فاتن ولم يعارض والدها أو أحد إخوتها رغم معرفة الجميع برغبتي وحبي لها .. وشعرت بالضيق، أحسست بالألم، لكن ما يفيد ذلك ولا شيء معي وحاولت أن أحتج .. وقررت أخيراً أن ألتزم الصمت .. قررت الابتعاد ، وضعت في زحام المدينة بين قلق من حولي لم أفكر في شقيقتي أو والدتي ، فكل ما أعرفه أنني أصبحت ضائعاً لا

مأوى له .. ووجدت من صديق في العمل يسكن بمفرده العون .. حيث قررت السكنى معه والابتعاد عن منزل شقيقتي حتى لا ألتقي بفاتن أو أحد أقاربها .

وشعرت والدتي بما يعتمل في داخلي .. لا أدري كيف وصلها الخبر ، وإذ بها تقف أمام مقر عملي ذات صباح .. كانت تبكي ، لقد قدمت من القرية مع شقيقتي الصغيرة، تاركة المزرعة وأغنامها لتقف بجاني ، وتجاسرت فأشعرتها بأنني قوي وأن الصدمة لن تؤثر فيّ رغم رنة الحزن والألم العميق الذي يهز أعماقي .. وعادت إلى القرية بعد أن أقنعتها بأنني سوف أعود للسكنى مع شقيقتي ، وشعر والد فاتن بكل شيء فرفض من تقدم لابنته لا أدري لماذا ؟ هل هو إكراماً لوالدتي أم لعدم مناسبة المتقدم واختلافهم في مقدار المهر وتفاصيل الزواج ..

الفصل الثاني :

تزوجت فاتن .. مرّ كل شيء بهدوء .. وسرى الشك هنا وهناك ، كلهم استغربوا هدوئي ومشاركتي الجميع في حفلهم .. العيون تتابع خطاي والحرس حول فاتن كل خطوة تخطوها .. تجد وراءها والدتها أو أحد أشقائها .

الشك لديهم خلق حولنا رواية وأننا نخطط .. نعمل لشيء من خلال عدم مبالاتنا وأن وراء الأكمة ما وراءها .. ومرت الأيام لتهدأ الحالة وليشد أشقاء فاتن على يدي بقوة معلنين تآزرهم معي وأنهم آسفون لما حدث محاولين معرفة ما أنوي ، فأخرجت من جيبي خطاباً وصل مؤخراً من والدتي تدعو لي فيه بطول العمر وتطالبني بالنقل إلى القرية حيث أكون بجوارها وأنها وجدت ابنة الحلال المناسبة ، بارك لي الجميع ، وتم النقل وتزوجت من صالحة هادئة وجميلة ، كل شيء فيها يشد الانتباه ، ورزقت بالمولود الأول ، كانت علياء .. وحلت سارة ومها وغادة .

ـ أنت لا تعرف طريق الأولاد ..

ـ كلهم خير والبنات الآن أفضل من الأولاد ..

ـ لكن الولد يحمل اسم أبيه ..

كلهم يريدون أن يكون لي ولد .. حتى والدتي تريد ذلك، واجهت الجميع بهدوء وصمت .. فأنا أيضاً أتمنى ولد .. ولكن هذه مشيئة الله ..

ـ صالح ..

ـ من ؟ فاطمة ..

ـ زوجتك حامل .. وإن شاء الله تولد بالسلامة ..

ـ ابن ..

ـ تدري أنا أتمنى لك بنتين توم ..

وانفعل صالح، ماذا دهى زوجة ابن عمته .. أتضحك منه ؟ ألا تدري ماذا يتفاعل في أعماقه من ألم وحسرة .. كل من حوله يريد أن يكون له ولد .. إنها تلاحقه في كل مكان ، لقد قررت شيئاً ما ..

ـ صالحة أتدرين لماذا يذهب صالح إلى بيت خاله .. ؟

- أبداً ..

- يريد خطبة إحدى البنات ..

- ولماذا ؟

- إنه يريد ولداً ..

ماذا يقول أمام الأمر الواقع .. فالمجتمع يريد ذلك وكل من حوله يبحث عن الولد الصالح .. فهل يكون شاذاً .. أخذت الأفكار تتفاعل في صدره مما أثر على نفسه فانطوى، أخذ يبتعد عمَّن حوله .. ارتضى الانفراد بنفسه فاتجه إلى الجبال يحدثها بما يتعامل في داخله مفكراً في الحديث الذي يدور .. وتغيرت نظراته إلى الحياة ولم يعد يتقبل دعوات والدته ومداراة أشقائه له ..

- إنها حامل ..

وهزَّ رأسه .. أجل حامل ، ولكنها بنت خامسة وقد يكون توم كما تدعي فاطمة، مرت الأيام سريعة ، وقد خبا أمله الذي كان يرجوه صامتاً .. وقرب موعد الوضع .. فطلب إجازة من العمل اختفى فيها عن القرية، سافر بعيداً مع أمله تاركاً زوجته ووالدته أمام الأمر الواقع ..

الفصل الثالث:

الطريق طويل وكل شيء يسير في هدوء .. رغم الابتسامة العريضة المرسومة على وجه صالح .. فالجميع يبحثون عنه .. لقد وصلته برقية عن طريق زوج شقيقته في المدينة حيث اختفى، تفيده بوضع زوجته بسلام .. وأنه رزق بولد .. فاقتنى سيارة جديدة بدلاً من تلك القديمة ولم يحاول البحث عن رفيق يؤنسه الطريق أو يساعده عندما يتعرض لحادث .. واتخذ طريق القرية ..

* * *

القفز على جدران الفراغ

فراغ كبير يملأ الأعماق .. وحبات من الفصفص واللوز وكوب شاي لم يتبق منه سوى أقل من النصف .. الأصوات تأتي من البعيد متداخلة .. صريخ مطربة صادر من مسجل بعيد يخترق الجدران ، وأنين (ماطور) خلط الاسمنت حيث تقام عمارة جديدة في زاوية من زوايا الشارع ، تسلل بقوة ، مفجراً الصمت الذي أراده عماد عندما هرب من مكتبه في الساعة العاشرة والنصف إلى المقهى ثم إلى الشوارع حيث دار بدون هوادة باحثاً عن امرأة تشبع جوعه وتحطم سياج الفراغ .

ولكن كان الفشل .. وكانت العودة إلى المكتب وعدم استساغة الجلوس وحيداً مع الأوراق .. والحديث مع الفراش والمراجعين .. السأم يلاحقه في كل مكان .. والفراغ المخيف يزرع حول أحاسيسه وأحلامه سياجاً جباراً أقوى من الإصرار الذي يحاول أن يكونه ..

وأدار عماد محرك السيارة وأخذ طريقه المعتاد متجهاً إلى الدار .. وها هو يقبع في غرفة الجلوس والأصوات المختلطة تصله من بعيد .. مصرة على ملاحقته رغم إقفاله للباب والنوافذ ، ليرتشف في هدوء كوب الشاي الذي أحضرته زوجته وحبات الفصفص واللوز التي أخذها عنوة من جيب ابنه ذي السنوات الخمس (حمدي).

الحرب قائمة وقمم الجبال ترتفع مخترقة السحاب حيث كل صنوف الحياة متلاشية رغم وجود الريح والماء ، إذ من وقت لآخر يهطل المطر مكوناً ترعاً وبحيرات راكدة تدب فيها الحياة فجأة ثم تتلاشى مع مرور الأيام ..

ـ كنت أفكر في هذا طول الليل ..

تذكر عماد بعض مقتطفات الحوار الذي دار في مكان ما من أعماقه عندما التقى برئيسه في العمل وبعض زملائه لمناقشة ما يجب اتخاذه خلال الشهور الثلاثة المقبلة حيث يتراكم العمل ويضج المكتب بالمراجعين الراغبين في السفر وإنهاء إجراءات أوراقهم لاستلام آخر مستحقاتهم لبدء عمل الموسم التالي ..

كان الجميع في واد وهو في واد .. مع حوار حقيقي ليعيش بكل بساطة أحداثه من خلال صورة نقلها صديق عابر لا يعرف عنه شيء حضر للسؤال عنه في المكتب ، وعندما لم يجده خرج دون أن يذكر اسمه ، كل ما استطاع من شاهده ذكره، إنه في مثل شبابه ويرتدي بذلة عسكرية .

ـ كنت خائفة .. من نفسي كلهم ينظرون إليّ بإعجاب وشهوة .. ومن لساني الذي يتلعثم .. عند كل نقاش يدور حولي .. فكلمات الإطراء ورجاء الاستجابة علامات استفهام تزرع الاحمرار في خدودي فآخذ في فرك يدي وتشبيك أصابعي مفكرة لماذا أنا وحيدة .. رغم أن حولي ثلاث أخوات وما يربو على العشرين صديقة ، ولكن حظي أكبر من أن أحتمل نظرتهم ، فدوائر الحقد قد تأخذني يوماً إلى المجهول حيث لا أستطيع العودة .

وسارت الأمور .. كان كل يوم .. هو صورة طبق الأصل لسابقه .. المكتب .. النادي .. المقهى .. البيت .. التجول في الشوارع بدون هدى لاقتحام المجهول وصفع أبواب الريح بقوة .

ليس بعجيب أن أظل دائماً مبتسماً ولكن العجيب هو أن لا أكون مثل الآخرين ولو برعب .. حتى أعيش المجهول .. وأقفز حاجز الفراغ الجبار ولو لمرة واحدة أشعر فيها أنني استطعت أن أنفذ إلى ذلك الممنوع حيث تكثر لوحات .. احذر .. ممنوع الاقتراب .. محظور لقط الصور .. يجب أن تقدم بطاقة الإذن بالدخول للحارس .. كلمات كثيرة تقف مثل قمم الجبال .. أو أشجار الأدليب ذات الطول الشاهق .. لتزرع في داخلي الحسرة .. حتى تكون هذا الفراغ الهائل .. الذي يجثم على صدري مثل كابوس ..

ـ هل فريال هنا .. ؟

ـ تفضلي .. سوف تأتي بعد قليل ..

ـ أينها .. ؟

ـ ذهبت إلى الخياطة لإحضار بعض الفساتين ..

ـ ومتى تعود .. ؟

ـ تفضلي إنها في الطريق ..

وتلفت حوله .. إنه يعرفها .. سعدى الفتاة السمراء التي حلم بها بعض الأحيان .. والتقى بها أكثر من مرة .. فلم يكن موجوداً رغم رغباته .. الآن الشارع مهجور .. ولا أحد في البيت .. وهذه تقف على الباب تسأل .

وأجراس الانتهازية تقرع في داخله، تريد أن تعلن الفرصة وتحرك عماد إلى الداخل خطوتين .. مركزاً نظراته على المرأة الواقفة أمامه وهي لا تعي ما يجول في خاطره ..

ـ آسفة .. أرجو إخبارها بمقدمي ..

توقف في مكانه مشدوهاً ، هل يصرخ فيها أنه يريدها وهل تعي ذلك أم يعود إلى استسلامه وعدم مبالاته فالفرصة مواتية والسياج الآن شبه قصير يستطيع أن يقفز من فوقه ويطلق الفراغ إلى غير رجعة ..

ـ في إمـ .. ـكانك انتظارها بالداخل .. إنني .. ؟

وابتسمت لارتباكه ، هكذا صور معنى الابتسامة الصغيرة التي رفت على محياها فمد يده واقترب من الباب ووضعها على يدها المتكئة بها على الباب .. وأمسك بها ثم شدها إلى الداخل .. كانت القفزة أقوى من أن يحتمل فاهتز جذعه واصطدم رأسه بصدرها وهو في طريقه إلى الأرض .. حيث مضت ثوان وهو محني الرأس يستجمع خواطره محاولاً خلق عذر لما حدث ..

وفي وسط هذا الفراغ .. إنه لا يستطيع أن يستمر، إنها تزوغ منه .. تبتعد كالآخرين .. من خلال ضحكة ناعمة شعر بوخزها في كل أنحاء جسمه فأخذ يحرك يديه يتحسس مواقع الألم .. إنه يرتجف والأصوات القادمة من هنا وهناك تشنق صمته .. تقدمه إلى العالم فوق طبق من البلور مغطى بورق السولفان الزهري .. إنهم ينتحرون الآن، لقد خفت الأصوات قليلاً ولم يبق غير أصوات منبهات العربات المارة .

مدَّ عماد يده إلى كوب الشاي وتجرع ما تبقى في قعره فشعر ببرودته ولزاجته فوق لسانه وداخل حلقه وحتى المعدة ..

* * *

وكف عن التلفت

أنت .. وتلفت يبحث عن صاحب الصوت .. رغم أن الكلمة كانت صادرة من أعماقه .. الساعة تشير إلى الثامنة مساء يجلس وحيداً على مقعد شريط بمقهى الرياضة المطل على ملعب كرة القدم والكراسي حوله خالية من المرتادين .. وبين يديه (لي الشيشة) وعلى الطاولة أمامه تقعي زجاجة ليمون .. وزجاجة ماء مثلج .

أنت . .

كان حفيف أغصان الشجرة التي تلاصق مقعده هادئاً هدوء تلك اللحظات التي يعيش فيها مع أفكاره عندما يحلو له الجلوس وحيداً بعيداً عن العيون يتأمل ما حوله .. محاولاً بناء قصور في الهواء ..

أنت .. ؟

وابتسم .. لا شيء بين يديه .. وكف عن التلفت حوله .. أخذ يرقب السماء باحثاً عن النجوم التي حجبتها السحب الداكنة متسائلاً عن سبب تأخر طلوع القمر رغم أن الليلة سبعة عشر من الشهر ، وتناسى السحب .. كما تناسى أن الوقت لا زال مبكراً على طلوع القمر ..

أنت .. ؟

أنا .. هزّ رأسه كمن يقول نعم .. وفغر فاه محاولاً الاسترسال في الحديث .. ماذا تريد ؟

كان السؤال سريعاً فأطبق فمه وأخذ يقدح زناد فكره .. ماذا أريد ؟ آه .. تذكرت، أريد كل شيء ، منذ مليون عام وأنا أقول هذا .. أجل أريد كل شيء، ألم تصل إلى ذلك .. ؟ بعد لم أصل، أنا ما زلت عند ترديد أمنياتي وما أنا فيه من سأم وتألم، إنني أحارب على جميع الجبهات، فأنا أترقب اليوم الذي أنهار فيه ويحملني الجميع إلى مثواي الأخير بين كلمات الترحم ودموع الألم .

دموع الألم .. ؟

أجل تلك الدموع العاصية التي أشمئز لمرآها وأتهرب من مواجهتها حتى أنني لم أجرب هذه الدموع يوماً ما رغم أنني عندما أفكر أقوم بتقليم أظافري بأسناني وأحاول نتف القطع الناتئة من

اللحم التي حول أظافري أو أنتف شعيرات ذقني وشاربي كلما سنحت لي الفرصة ، وفي كل هذه العمليات أمر بمراحل الألم ، ولكن مع ذلك أعتبر هذا الألم من صنعي ، أي نابعاً من ذاتي ، فهو إذاً لا شيء أبداً .. ونهض من مقعده متخذاً طريقه إلى الدار خالي الذهن لا يفكر إلا في السير عبر الشوارع الجانبية والمظلمة كالمعتاد .. ووقف أمام باب الدار الذي ما أن فتحه حتى قابله الصمت، لا أحد هنا كان يقول .. وصرخ .. أمي .. أمي .. فتردد صوته عبر الغرف والنوافذ ورجع حاسراً لا يقول شيئاً، فضحك من ذاته فتردد أيضاً صدى قهقهته عبر الغرف والنوافذ ، إنه يعلم أن والدته عند ابنتها منذ ثلاثة أيام ، لقد وضعت فاطمة طفلة صغيرة ثالثة استقبلها الجميع بصمت، كانوا يتمنون لو كانت ولداً ، حتى هو تمنى لو كانت ولداً رغم أنه لا يدري الدافع لهذه الرغبة .. واتجه إلى غرفته فأخرج كتاباً أخذ يطالعه ومد يده إلى المسجل فدبت الحياة في الدار ومرت لحظات رنَّ بعدها التلفون فرفع السماعة وانتظر أن يتكلم أحدهم بينما كان يتابع القراءة ووصل إلى السطر الأخير فوضع السماعة على الطاولة بقرب المسجل وقلب الصفحة وتريث لحظات عفوية ثم مد يده إلى السماعة ورفعها إلى أذنه فإذا بالإشارة تعلن أن الذي طلب الرقم أقفل الخط .. فأعاد السماعة إلى موضعها فوق الجهاز وتابع القراءة.

* * *

عملية إحصاء

غريبة أنت يا دنيا .. لا موقف حاسم لك .. رغم أن الأيام تقول حكمتها وتتحدث بلسان الدقائق والساعات بكلمات المصارحة .. والحقيقة التي تفلت من أيدينا رغم إدراكنا أننا سوف نصل إلى الهاوية رغم حرصنا على التحدث عن ذاتنا وآمالنا ..

المكان يعج بالمرتادين .. كلهم من سائقي عربات الشحن الأجرة .. عربات حمل .. قهقهاتهم يتردد صداها بين الجدران غير مبالية .. كلهم قذرون ، صرعتهم الحياة بواقعها فكأن الاستسلام الساذج كان يفكر في ذاته .. في جلوسه وحيداً مع زجاجة الليمون وصدى صراخ صبيان المقهى .. الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً .. بعد أن أمضى ساعتين من الدرس في معهد التدريب ..

لقد رفض الدراسة في معهد الرياض شهوره الثلاثة وارتضى أن ينتقل مع دراسته إلى جدة حتى يكون قريباً من الطائف ، يحدوه أمل بأن تمر الأيام سراعاً ، محاولاً اختراق جدار العيش وحيداً في مدينة مجنونة نبذت كل شيء ، كان يخاف أن يعانقها وحيداً .. ويتردد كثيراً عندما يجد صديقاً يقرر ملامستها ..

البحر هو كل شيء بالنسبة له، لكن ماذا يثير البحر في أعماقه من ذكريات الطفولة.

لقد كانت الصورة التي يتوهمها عنه باهتة ، تراكم التراب عليها ، فكانت مفاجأة كبيرة له وهو يرى نهايته التي لا ترى وإصراره على صفع الشاطئ رغم الكبر .. ونعومة .. كان لها أثرها الفعال في الصخور ..

وانتبه من تأملاته .. ليراقب الجالسين على المقاعد .. قد يجد فيهم من يشاركه الحديث ..

وينتشل السأم المترسب في أعماقه ..

الساعة الحادية عشرة والنصف ..

جلس في المقعد المقابل لمقعده ثلاثة أشخاص أخذوا يتحدثون بهمس .. وأخرج أحدهم من جيبه كيساً صغيراً من الورق .. وهو يتلفت حوله وأخرج منه مجموعة من الحبوب الرمادية اللون وطلب من خادم المكان كوب ماء .. وفي هذه الأثناء اقترب شخص من الثلاثة بجوار صاحب الحبوب وفي هدوء تناول كمية الحبوب منه ثم وضعها في جيبه ونهض .

الساعة الثانية عشرة نهض من مقعده واتجه إلى العربة وأخذ يفكر أين يقضي بقية الساعات ، فهناك ساعتان دراسة تبدأ من الساعة الخامسة .. ولمح محلاً لتصليح مفاتيح العربات والأبواب ..

أشعل المؤشر الجانبي وأوقف العربة أمام المحل وطلب إصلاح مفتاحين احتياطي للعربة وأخرج من جيبه ورقة عملة من الخمسين ريالاً .. تناولها صاحب المحل وأخذ يفتش عن بقية لها في درج النقود ولم يجد ريالات إذ أن ثمن المفتاحين أربعة عشر ريالاً.

أخرج صالح من جيبه أربعة ريالات وشكر صاحب المحل، ثم خرج ليعود إلى العربة بعد أن جرب صلاحية المفتاحين الجديدين ونسي أن يأخذ بقية الخمسين ريالاً..

الساعة الثالثة .. أوقف العربة أمام عمارة كبيرة يسكن إحدى شققها قريبه .. حتى يستطيع أن ينام لديه ساعة وينهار الصداع الذي بدأت بوادره تدق مساميرها في رأسه معلنة أن ساعة القيلولة أزفت .. صعد السلم بهدوء ..

- من .. !!

- أنا .. صالح .. عبد الله فيه .. ؟

- لا ..

وقف قليلاً أمام الباب ثم عاد القهقرى وفي منتصف الدرج كان عبد الله يصعد الدرج ..

* * *

حكاية حب ساذجة

كان الدافع إلى الإقدام على الانتحار .. سماعه أن أحدهم تقدم لطلب يد نجوى وأن هناك شبه موافقة من أشقائها لثقتهم في الرجل الذي توسط لهذه الزيجة ..

شعر خالد .. أن أعماقه تنفجر وأن الدم أخذ يسيل من فمه وأخذ يلطخ ذقنه المحلوق وثوبه الأبيض الناصع .. فأخذ يتقلب في فراشه ..

الأصوات ثقيلة غير عابئة بما هو فيه .. فالجميع يريدون الوصول إلى نتيجة .. فالمتقدم للخطبة رجل أمن كبير في مقتبل العمر وصل للتو من بعثة دراسية في الخارج وعين مديراً لقسم شرطة البلد .. وطلبه الوحيد أن يشاهد العروس ولو لثوانٍ حتى يكون على بينة ..

والدين أباح هذه النظرة .. وذلك لصالح الزوج وكذلك في صالح الزوجة .. لم يفاتح أحد نجوى في ذلك، فالأشقاء الثلاثة ذوي خلفيات متباينة الأول غير مبالٍ، والثاني شبه انتهازي، والثالث لا رأي له مسلماً أمره لمشيئة الأخ الثاني ..

دارت معركة خفية بين الأخوة .. ونجوى التي أسلمت أمرها له كانت نظرتها وحديثها يدعوانه إلى عمل شيء .. لم يفهم ما تريد وركب قارب غضبه .. وأخذ يجدف إلى البر الثاني تاركاً الأمور تسير في أعنتها .. هجر البيت وخلف وراءه ألف سؤال .

وتغيب عن العمل .. أخذ الجميع يبحثون عنه هنا .. وهناك .. مرت ثلاثة أيام وهو قابع في شقة صديق له لا يعرفه أحد .. وفي مساء اليوم الرابع اشترى من البقالة التي في الشارع علبة أسبرو ودخل الحمام فاغتسل وصلى ركعتين .. ثم كتب رسالة باسم أخيه ووضعها تحت المخدة التي ينام عليها .. بلع جميع محتويات علبة الأسبرو وعلى فترات ثم أسبل الغطاء على جسمه رغم حرارة الجو واستسلم للنوم ..

حضر صاحب الشقة .. فلم يهتم بما حوله فخلع ملابسه وأخذ يتصفح بعض الجرائد ويده تعبث بمؤشر الراديو ..

سار كل شيء طبيعياً بالنسبة لخالد .. أما نجوى فقد أخذ لها أحد أشقائها بعض الصور في أوضاع مختلفة ومع بقية الأسرة حتى يطلع عليها الخطيب ..

ويكون الرأي الأخير وعمل الترتيبات السعيدة .. رغم الدموع ..تقلب خالد في الفراش .. وأخذ يحرك يديه ورجليه ثم أزاح الغطاء عن رأسه وأخذ يتلفت يميناً ويساراً .. كل شيء كما تركه البارحة .. إنها ذات الغرفة وذات الجدران ..

حتى الصور المعلقة هنا وهناك بدون عناية لم تتغير .. نهض من فراشه .. كان الوقت متأخراً .. أسرع إلى الحمام حيث رمى بعلبة الأسبرو الفارغة فلم يجد لها أثراً .. إنه حي لم يمت .. أتراه حلم .. وارتدى ملابسه .. واتجه إلى مقر عمله ..

أخذ الجميع يتأملونه .. إنهم يتحدثون عنه بهمس لقد حسم عليه المدير مدة غيابه كما اقتطع مكافأة للموظف الذي قام بعمله أثناء غيابه الأربعة أيام من مرتبه .. وثار غاضباً .. قرر المناقشة .. لكن الكلمات الطيبة المعسولة ونظرات العطف هدأت ثائرته.

ولم يتم الزفاف .. لا يدري ما سبب الخلاف .. إنما عاد للبيت ولكن في داخله شيئاً مشروخاً ..

ـ يا ولد هذي ما تبغاك لو أنها صحيح تحبك ما كانت انتقدت تصرفاتك بشكل يدل على عدم اهتمامها ..

ـ تصدق أن أخي البارحة أراد أن يوقع بي ؟ لقد كنا ثلاثتنا في القهوة ثالثنا أخو صاحبتي حنان اللي قطعت علاقتي بها منذ هاجرنا من مدينتنا في الشمال إلى الرياض . ليرويها حكاية من حكايات قضاء الوقت لولا إشارتي له ..

ـ إيه رأيك أتوسط لك عند الجماعة ؟ أنت ابن عم نجوى وأنت أفضل من غيرك بها ..

كانت أحاديث من هنا وهناك من أصدقاء وأقارب للجميع لم يقابلها بأكثر من الابتسام وعدم الاهتمام .

وحضر واسطة الخير مرة أخرى وتزوجت نجوى هذه المرة لم يعكر المناقشة شيء ..

وكان يتابع كل شيء عن قرب ..

لم يركب قارب الغضب ولم يجدف إلى الشاطئ الثاني كما حدث في المرة السابقة وبارك للزوجين بين نظرات عدم التصديق والاندهاش ..

وخرج ليرقص مع الراقصين .. كان غامضاً في فرحه حتى أن بعض أقاربه أخذوا يراقبون حركاته .. لقد كان رغم غموض فرحه عادياً هادئاً لم يتغير فيه شيء .. لعب البلوت والكنكان .. قام بصب القهوة والشاي للحضور ..

وكان واقفاً حتى آخر واحد من المدعوين ومن المشاركين في العمل .. لقد احترق شيء في داخله هكذا شعر وهو يضع رأسه على المخدة في فراشه .. لكن ما هو هذا الشيء لا يدري ؟؟ وهزَّ رأسه لعله يطرد هذا السؤال من خاطره ووضع المخدة على عينيه وطوقها بذراعيه ونام ..

كان ذلك منذ عشرة أعوام .. ترسبت الصورة في أعماق خالد الذي تغير كل شيء فيه .. لم يعد ذلك الشبح الناحل ولم يعد الإنسان الهادئ غير المبالي، إنما بقي مع تلك الصورة التي سرقها لنجوى من بين مجموعة صور وجدها ملقاة على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس الداخلية .. يتأملها كل مساء وهو يعود من المقهى أو دار السينما ثم ينام .. وهي بجانبه في غرفته ..

كان شعوره بالحب مبهماً .. أما نجوى فقد أحست بمقدار فقدانها له، ولكن ماذا تعمل فعوضت شعورها بالحرمان بالاعتناء بأبنائها الذين رزقت بهم .. وغدت ربة بيت بكل معنى الكلمة إذ ترهل جسمها وغدا الانفعال والعصبية ديدنها لأقل الأسباب ..

وتفصل المسافة بين الاثنين كما فصلت الأيام سابقاً ويغادر خالد المدينة في رحلة تدريبية ..

ما أن حطت رجله في أرض الغربة حتى وجد نجوى أخرى تزوجها وأخذ مظهره يتغير شيئاً فشيئاً حتى نسي أن هناك يوماً سوف يعود فيه إلى أرض الوطن .

* * *

الـــرواســـــب

شعور غريب خالجه وهو يدخل المفتاح في فتحة الباب الخارجي ليلج الدار، لأول مرة يحس أن هناك من يكتم أنفاسه ويحسب عليه خطاه ..

إنه يتذكر تلك اللحظة التي داهمته فيها الهواجس فتعثرت خطاه وكاد أن يقع على وجهه لولا شيء من الانتباه المفاجئ ..

خرج مسرعاً من الدار لا يلوي على شيء، كل تفكيره بأن يلحق بهم في دار سليمان للعب الورق أو الاتفاق على مكان لتمضية السهرة فيه، ولمحها .. عجوز أخنى الدهر عليها وشرب .. تمسك بيد طفل في الثامنة من عمره، تحاول أن تقول له شيئاً .. ورغم إصراره على الاستماع لم يفهم مما تقول كلمة، فاكتفى بمتابعتها حتى وقفت أمام بائع الخبز ..

كانت في وقفتها تذكره بأشياء كثيرة، لكن الصورة مضمحلة المعالم، لا يدري متى كان ذلك وأين ..

ووصل الدار وأخذ يشارك الحضور سمرهم ..

وها هو يخرج مهزوماً ليسرع إلى البيت ، ولمح المخبز مغلقاً وتذكرها ، وهاجمته الهواجس تحاول النبش من ذاكرته عن صورة واضحة للموقف ، فلم ينتبه للطريق وتعثرت خطاه .. فتح الباب بهدوء ، لا شيء في الداخل ، فالجميع يخيم عليهم الصمت .. دخل في هدوء .. الصالة فارغة سوى صوت التلفزيون وجرائد مبعثرة هنا وهناك..

ووجدها بالداخل سماعة التلفون في أذنها .. ما أن شاهدته حتى ارتعشت وأعادت السماعة إلى مكانها بعد أن أشعرت الطرف الآخر بقدومه ..

ـ من كان .. ؟

ـ ابنة عمي تكلمني .. كالعادة .. ؟

لم يصدق ما قالت إنما حاول أن يقتنع ، ولمحت على محياه الحيرة والحزن ..

ـ ماذا بك .. ؟

ـ لقد شاهدت عجوزاً في هذا البرد مع ابنها تشتري خبزاً ..

ـ لعلها أم عبد الله ..

وتذكرها .. كان ذلك منذ عشر سنوات .. رائعة الحسن رغم أنها تجاوزت الثلاثين، تعيش سعيدة مع زوجها الذي أصرّ على بقائها معه وعدم تطليقها رغم أنها لم تنجب ولم يرزقه الله منها بالولد الصالح حتى يحمل اسمه ..

يتحدث عنها الناس هنا وهناك بأنها سحرته وأنها دائماً تزور الكهنة من أجل المحافظة على حياتها الزوجية ..

وتطل أيام الفرح، الملطخة بالدم .. كان عبد الله .. ولكن الشك أنبش مخالبه في زوجها فلم يعد يستقر في البيت وطلقها ..

كانت فرحتها بعبد الله أكبر من أن توصف .. لم تبك لطلاقها، ولم تحاول أن تلتحق بأسرتها التي كانت منذ أعوام خلت تطاردها كالشبح لطلب الطلاق حتى تتزوج بآخر وتكون .. الخلف ..

وقررت البقاء من أجل ابنها كشجرة زيتون تمشت جذورها في أعماق الأرض لتثبت من وجودها وتقاوم الأعاصير ..

لكن الدهر كان أكبر من كل شيء ..

شعر بشيء من الارتياح عندما وصل إلى هذه النتيجة فمد رجليه بإهمال .. الأمر الذي ضايق زوجته فدفعته بقسوة غير مبالية بغضبه، وأصرّ على أن يمد رجليه ..

أشارت الساعة إلى الحادية والنصف، معلنة انتهاء برامج التلفزيون، لكن لم تكن لديه رغبة في النوم، فأخذ يقلب بعض الجرائد محاولاً قتل الوقت ..

وتلفت حوله .. كان وحيداً في الصالة .. شعر بالخوف يدب في أوصاله فأسرع بالنهوض من مكانه، واتجه إلى الحمام وأغلق بابه، وأطل من الباب الخارجي على الشارع فصفعه الهدوء، وأغلق الباب وعاد إلى الداخل، ليندس في فراشه قلقاً يفكر في أشياء بعيدة كل البعد عن موقفه .

* * *

المولود الثاني

لأنها تعرف القراءة والكتابة .. لذلك فقد كانت تحاول أن تقول شيئاً من خلال نقدها لما يحاول أن يقرأه خلال أوقات فراغه أو مشاركته في إبداء آيات الإعجاب بقصيدة أو كلمة اعترافاً من خلال قراءتهم لها ، إنها نابعة من الصميم الذي هم أنفسهم يبحثون عنه في معنى وجودهم ..

كان يغضب ومع ذلك لم يرتفع صوته على أحد ، كلهم يعرف أنه سريع الغضب والانفعال ، ومع ذلك يحاول أن ينسحب لأنه يعرف أن غضبه هذا نابع على ذاته ، على انطلاقته غير المؤتية بشيء ، فكل ما حوله هو فيه مجرد متفرج ، رغم أن الواقع يفترض فيه أن يكون ضمن الأحداث .

أما هي فقد كانت تغضب منه وتتجاوزه بكلماتها وحديثها الذي يتسم من خلاله أنها تشعره بأنه لم يعد شيئاً ما دام الآخرون مسيطرون عليه هذه السيطرة ، وكلمته غير مسموعة وحقوقه مهضومة .

وأمام كل هذا كان الضحية طفلهم "سمير" الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره والممتلئ بكل ما في هذه الأرض من شقاوة وعناد ، فمنذ سنوات خلت كان إبراهيم لا يسترعي انتباه أحد من الناس باستثناء أفراد عائلته ، أما الآن فهو محط الأنظار في مجتمعه ومقر عمله ، لقد لفت مظهره الكثير من الانتباه بتناقضاته وعدم مبالاته في أن يجعل من كلماته ذات موقف مع الآخرين ، أما مع نفسه فالجميع يعلم أنه يعد أن يكون كل شيء .

ورغم فساد الجو العام المحيط بالأسرة المليء بالشائعات والأقاويل التي تجعل أكثر لحظات الالتقاء داخل الدار الصغيرة مشحوناً بالكهرباء ، فقد تقبل الاثنان ذلك ، وعرفت "سناء" أنها لن تستطيع تغيير ما بداخل زوجها ، فلذلك قررت الاحتفاظ بابنها "سمير" .. وأخذت تحرم عليه الذهاب إلى أسرة والده قاضياً معظم الوقت مع أشقائها وعند أسرتها .. كانت فرصة لأن ينام مرتاحاً وأن يسمع للراديو وأن يقرأ ويتفرغ لأصدقائه ، لكن والدته شعرت بكل ذلك فأخذت تقاسيه من خلال دموعها .. إنما ماذا يعمل ؟ .

وهنا يبدأ وجهه الأبيض يتحول إلى أحمر، بعد أن بدأت الدماء تغلي في عروقه، وقال وهو يحاول كتم غيظه:

ـ أماه . إنني مرتاح ..

لكن هذه الصرخة لم تفد ، تلونت الأيام بداء جديد يدعى الترجيف ..

ـ سناء .. لن تحمل مرة ثانية .. وإبراهيم يفكر في الزواج من جديد .. لأنه يريد أولاداً يملئون عليه البيت ..

ـ وما السبب .. ؟

ـ حبوب منع الحمل ..

لم تكن حبوب منع الحمل هي السبب ، لكن تفاهم الاثنين على ذلك هو السبب، وقررت "سناء" التوقف عن بلع الحبوب والاستماع إلى نصح الجارات في زيارة أم محمد وغيرها من العجائز الخرافيات واللائي يقال لهن أنهن يتعاطين السحر من أجل الخلف .. ألقت "سناء" بكل ثقافتها ووعيها وراء ظهرها .. ومن دار إلى دار إلى أخرى رغم علمها بأن ذلك يغضب إبراهيم أخذت تنتقل مرة مع والدتها وأخرى مع والدة إبراهيم وشعرت بآلام كانت أقوى من كل شيء ، وأخذها إلى المستشفى حيث فوجئ الطبيب بحالتها واستمع إلى شرحها ..

كانت منهارة ، وكانت نتيجة الفحوص أن تلك الخزعبلات جعلتها تفقد الأمل في الحمل مرة أخرى .

وجحظت عيناها وخرت مغشياً عليها ، كانت الصدمة أكبر من كل شيء ..

حدث ذلك منذ ثلاث سنوات كبر فيها "سمير" ودخل المدرسة وأحاطه والده بالحنان والعطف، كان كل ما في الدار من أثاث وإنسان ونسمات .

وعاودتها آلام الصدر .. التي أثبتت التحاليل في السابق أنها حموضة من البهارات والحمضيات .

ـ أنا عندي حل ، قبل ما يتضاعف الألم نذهب إلى المستشفى .

ـ أنا موافق لكن الشغل ؟ .

وهرب من الشغل ذات صباح وأخذها إلى المستشفى ودخلت على الطبيب المختص، وخرجت وهي تجرجر خطاها .. لم تقل شيئاً حتى ركبت السيارة ، عندما سألها عن العلاج .

ـ أنا حامل ..

أحس أن الدنيا تدور به، غارت ابتسامته الصغيرة، كان يبحث عن كلمات يقولها في ذلك الوقت، غير أن كل الكلمات أيضاً غارت، وأوصلها إلى الدار وخرج عائداً إلى عمله .. لكن الطريق طال .. أجل طال .. لم يعرف الطريق الذي يؤدي إلى المكتب لأول في حياته ..

وأشرقت الشمس من جديد ، أخذت تزرع أشعتها فوق الأرض ، إنما كان هناك شعور داخلي كئيب يغلف حركات إبراهيم وهو يستعد للذهاب إلى العمل ..

إنني أشعر بآلام شديدة .

ـ ما رأيك أذهب لمناداة والدتك ..

وأصرت "سناء" على الذهاب إلى دار أهلها ، واطمأن بعض الشيء ، كان يحدث نفسه وهو في طريقه إلى العمل عن نوع المولود ، وهل سوف يكون جميلاً مثل "سمير" أو سوف يكون ذا منظر كريه ..

مرَّ الوقت سريعاً رغم ما هو فيه من قلق ولم يجد أحداً في الدار ، إنهم في المستشفى ، لكن أي مستشفى ؟ أخذ يسأل أشقاء "سناء" ..

وقبل أن يخرج من الدار ، إذ بالباب يقرع وكان أول المسرعين إلى فتحه وصفعة الحزن البادي على وجه والد سناء فماذا هناك ؟ .

ـ إنها بخير ..

وانطلق إلى المستشفى ووجدها ما زالت تحت تأثير المخدر ، وتلفت حوله يبحث عن المولود ، ولم يعثر عليه ، ولمح والدة "سناء" تراقب تلفته وبحثه ..

ـ احمد الله على سلامتها ..

لقد كان مولوداً ميتاً ، توفي بعد دقائق من رؤيته للنور .

* * *

عندما تتلوّن الصداقة

أخذ خالد يستعرض شريط حياته وهو يستمع إلى الحديث الدائر في المجلس عن فضائل النساء وكرام الرجال، والتضحية التي يقوم بها البعض من أجل الوقوف مع كلمة قالها وموقف عاشه .

هز رأسه .. كانت الحكاية المروية أشبه بحكايته .. إنهما رجلان في خريف العمر لديهما أبناء من الجنسين في عمر الورود .. توسط الأول عند الثاني من أجل قريب شاب لمح إحداهن وأرادها أن تكون له زوجة .. لكن الثاني قال – في شيء من الإهانة والاستهجان – عندما عرف أن الشاب فقير:

ـ هل تزوجه .. أنت إحدى بناتك ؟

ـ أجل .. وبدون مهر ..

كان الموقف كبيراً رغم أنه كان على حساب الشاب والفتاة .. إنما الشاب وجدها مؤاساة حتى يلتئم جرحه .. إنها حكايته ..

أجل إنها حكايته وإن تغيرت الطريقة .. عاش على حلم .. كان (خالد) من نصيب (فاتن) هكذا قررت الأسرة ، وتوفي والد (فاتن) وانطلق (خالد) مع الحياة يبحث لنفسه عن لحظة مرح غير عابئ بما تخبئه الأقدار ، وجعل من أشقاء (فاتن) مساعديه في هوسه وانطلاقه ..

ضحكتهم وقهقهاتهم تردد صداها المقاهي وصالات الأندية الرياضية والوديان حيث لا يمر أسبوع دون رحلة وقضاء وقت ممتع بين الطبيعة وتسلق الجبال .

ولمحها ذات يوم، كانت (فاتن) خطيبته التي لا يعرف عنها سوى لحظات شاردة لمحها في حالة تأمل واستقرار ..

ـ إنني أريد .. أن أتزوج ..

ضحك منه الأصدقاء، لكنه أصرّ على كلمته وخرج من الدار التي استأجرتها الشلة لقضاء الوقت ولعب الورق دون أن يودع أحداً .. وغاب عن العيون شهراً لم يعرف أحد مقره .

حتى في الدائرة التي يعمل بها ، لا يعرف أحد عنه شيئاً سوى أنه أخذ إجازة عادية لمدة شهر .

وعاد ليحقق ما ذهب إليه .. طلب من والده أن يتقدم لطلب يد (فاتن)، واستعان والده بجار وخط الشيب رأسه ، يتخذ منه سكان الشارع مرشداً وحالاً لمنازعاتهم، لصلاحه وعدم تدخله في شؤون الآخرين قبل أن يستعين به أحد ، وذهب الثلاثة إلى دار أسرة (فاتن) .

ـ إننا نريد (فاتن) .. (لخالد) .. وتكون زوجة .. كلمات مختصرة قالها العجوز .. لعلمه بقصة الخطوبة والقرابة التي تربط الأسرتين ..

ـ نفكر في الأمر ..

وصرخ خالد : ماذا .. ؟

وهنا هدأه الرجل بكلمات لطيفة وطلب تحديد موعد لسماع الجواب ، وخرج الثلاثة ، كان القلق أكبر من كل شيء ، مرت أيام المهلة .

ـ نعتذر عن ذلك .

ـ ولكن أبوكم أعطى كلمة ..

ـ لكن نحن نعرف خالداً ..

طأطأ خالد رأسه .. أخذ يفكر .. ماذا يعرفون ؟ أترى هناك نقاط سوداء في حياته تجعل صديقيه وقريبيه العزيزين يرفضان زواجه من أختهما، وهمَّ بأن يقول شيئاً ..

ـ إننا نعرف كل خير عن خالد ..

ـ أنتم لا تعرفون شيئاً نحن معه أربعاً وعشرين ساعة ..

ـ ماذا تعرفون عني .. ؟

ـ الأمر الذي يدفعنا إلى المعارضة في أن تكون زوجاً لأختنا .. ونهض من مكانه، وقد احمرت مقلتاه ..

ـ إذاً خدعتموني ..

وهمَّ بالخروج ولحق به والده والرجل العجوز .. وقهقهات الآخرين تلاحقه .

وأمام الباب الخارجي:

ـ نحذرك يا عم منه إنه لا يصلح زوجاً لأي بنت ..

ـ ولكن سوف أزوجه .. أجل سوف أزوجه ..

وأوفى الرجل العجوز بكلمته .. أخذ يبحث عن الفتاة المناسبة ، وتزوج خالد، لم يدفع شيئاً من جيبه ، كان والد العروس صالحاً من أقارب الرجل ، وتبدلت الحياة ، أخذ يبتعد عن الأضواء .. يفضل قضاء معظم الوقت في الدار، يخشى الأصدقاء، يحاول قدر المستطاع أن يكون وحيداً مع أفكاره يستعرض مراحل عمره ..

إنها الحياة التي نعيشها تبحث عن الدمعة في العيون، تقول للجميع هناك موقف يجب أن أستدر دموعكم فيه .. كان يستعيد صورة (فاتن) يحدثها بكل ما يمر به من خواطر وأحداث حتى خصامه مع زوجته التي تسعى لأن تقدم له كل شيء فوق طبق من الزهور يقوله .. إنها تنتظر

الزوج القادم من وراء التلال .. حتى الآن وإن أصبحت معلمة تقضي معظم وقتها في المدرسة ..

ـ تفضلوا .. حياكم الله ..

نهض الجميع ما عدا خالد الذي لم يسمع الكلمة ولم يشاهد الجالسين وهم ينهضون متجهين إلى غرفة السفرة .. واقترب منه صاحب الدعوة :

ـ خالد .. ماذا في الأمر ؟

ـ لا شيء .. لا شيء ..

ونهض من مقعده ولحق بالآخرين حيث حشر نفسه بين اثنين بالقوة، ومد يده إلى الأكل وفي عفوية رفع نظره متأملاً الجالسين قبالته، وإذا به أحد شقيقي (فاتن) .

فأرخى رأسه .. وأخذ يقطع اللحم المكتوّم فوق صحن الرز للجميع ومنهم صديقه القديم الذي لم يجد بداً من أن يأكل تلك الوصل المقدمة له على مضض .

* * *

الحزن وأحلام اليقظة

الطريق طويل ! يبدو أنه كذلك ، عندما خرج علي من النادي واتجه إلى سيارته لا يدري أين يذهب ، الساعة تشير إلى السابعة والنصف مساء ، كل شيء حوله هادئ هدوء الظلال التي ترسب في أعماقه منذ ثلاثة أيام حيث دب الحزن كالعادة إلى داخله في قسوة وجبروت ليحطم كل ما بناه ، إنهم يبحثون عن مكان لإحراقه فيه .

همّهم الوحيد أن يقول (نعم)، لكن كيف ينطق هذه الكلمة التي لم يعرف غيرها في حياته، الآن إن المطلوب منه أكبر من كل توقعاته وصوره التي رسم لها .

إنه الآن في الثامنة والثلاثين من عمره، لقد بدأ كشف الحساب ماذا قدم؟ لا شيء يستحق خلال هذه الأعوام الثلاثين، أو ماذا قدم خلال الأعوام التي أدرك فيها وأخذ يشعر بما يدور حوله ..

ـ ليه يا علي .. ما تجي حتى أرسل لك ، أنا والدتك ومن الواجب أن تسأل عني وتطمئن علي ولا يمر يوم دون أن تمر علي ..

ـ لكن الشغل ماذا أعمل فيه .. وأصدقائي ..

ـ عارفه هذه أعذارك دائماً ..

وانهمرت دموعها .. كان ذلك منذ ثلاثة أيام .. إنها تريد منه الكثير، لكن كيف يقاوم ويقول نعم، وهو يشعر أن ذلك فوق طاقته واحتماله رغم مظهره الخارجي، وأحواله المادية رغم أنها محدودة فإنها تجعله يعيش في رفاه وهناء مع زوجته ووحيد ته سماح ..

لكنّ هناك شيئاً يهابه ويخافه، يدفعه إلى الاعتذار وأن يقضي معظم وقته في المكتب ثم النادي ثم البيت، حيث ينام فقط ويشاهد التلفزيون ويأمر ابنته وزوجته بالهدوء حتى يستطيع متابعة برامج التلفزيون أو قراءة الصحف ..

ثلاثة أيام ..

إنهم يطلبون منه في العمل أن يقوم بكل شيء ، وفي البيت زوجته وسماح ، هناك والدته وإخوانه والعمارة وأقساط بنك التسليف والنادي ، أشياء كثيرة تملأ ساعات يومه ، إنما هذا الحزن ما معناه ..

الخوف الذي في داخله .. ما مصدره ؟ .

وقف علي أمام السيارة وتذكر بعد أن فتح الباب أنه بحاجة إلى دفتر كتابة، فأعاد قفل الباب بالمفتاح ودخل النادي وخرج بالدفتر بين يديه يقلب صفحاته .. هناك شيء في داخله يطلب منه أن يكتب شيئاً لا يعرف ما هو ..

انطلقت السيارة .. وموسيقى هادئة من الستريو يملؤها محاولة نزعه من عالمه الذي خلق في داخله خيمة مليئة بالضلال وعلامات الاستفهام .. إنهم يملئون داخله دوامة انفجار ودمامل ألم ..

ـ أهلين محمد .. كيف الحال ..

ـ بخير .. ماذا جاء بك إلى هنا ..

صديق تعرف به من خلال العمل ، وهاهو رغم أنه هارب من كل الناس إلى هذا المقهى المنزوي لشرب الشاي وتعميره جراك والانطلاق مع حبل أفكاره إلى عالم غير مرئي يحل معه مشاكله وخوفه وإصراره على أن يقول لكل من حوله إنه يخاف من السفر، رغم أن داخله يقول خلاف ذلك فمرة هو في القاهرة .. وأخرى في الرياض .. وثالثة في الشام والكويت .. أحلام تزقزق في داخله أشبه بزقزقة العصافير التي تحاول أن ترشد الصياد إلى مخبئها ..

وهرب .. مرة أخرى بعد أن اعتذر صاحب المقهى عن تلبية الطلبات حيث أن موعد أذان صلاة العشاء حان ولا يستطيع تقديم شيء في هذه الدقائق لأن منادي الصلاة سوف يمر ويوبخه لأنه خالف التعليمات ..

عاد إلى السيارة وانطلق من جديد ، إن رغبته قليلة في العودة إلى المنزل في هذه الساعة .. وأقفل المسجل وأخذ يداعب راديو السيارة .. أخذ يبحث عن أغنية يدندن معها حتى يصل إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه .. إنهم كلهم هناك وجوه معروفة يعرفهم منذ ثلاث سنوات وهو يرتاد هذا المقهى بعد أن اعتاد شرب الشيشة .. كانت مكاناً هادئاً مرتادوها قليلون لبعدها عن الأضواء وصخب المدينة ، لكن الاعتياد وتكاثر الهاربين حتى غدت المقهى أشبه ما تكون بسوق صغير ألف كل مرتاد الآخر حتى غدت الوجوه معروفة .

اقترب .. كان يتوقع أن يجد أحدهم .. ولكن هناك شبه هدوء .. مرت الدقائق ببطء .. أخذت أفكاره التي اعتاد أن يناقشها مع نفسه وأحلامه تملأ الفضاء الذي أخذ يحدق فيه محاولاً سبر غور الظلام الهابط من السماء على الجبال الممتدة في شريط داكن إلى ما لا نهاية .

وقبل أن يلج الشارع الذي يسكن أحد دوره لمحه .. وجه مألوف يجلس في الظلام على دكه محل خياطة مغلق وقد تدلى رأسه فوق صدره في شبه إغفاءة طويلة غير مبالية بالأضواء وضجيج السيارات .. كان المشهد أشبه ببصيص هدوء أزلي وارتياح مجهول يحاول أن يزرع الضوء في داخله ومع ذلك أخذ يفكر فيه بحزن .. وقد تخيل صوراً عديدة للرجل الغافي .. حاول أن يكون أحد أبطالها غير أنه لم يستطع .. فهزّ رأسه وأدخل المفتاح في فتحته بباب الدار حيث استقبله صراخ وحيدته سماح لتنشله مما هو فيه .

* * *

دمعـــــة كبيرة

أخذ يفكر في البداية ليدخل في الموضوع حتى يصل إلى حل .. لقد غدا في نظره أن كل شيء أصبح قاتماً ولونه أسود .. بسمته الصغيرة التي لازمته منذ الأزل أخذت في النضوب بشعوره بالألم مما يدور حوله .. إنهم يبحثون عن حفرة لردمه فيها .. كلهم ينقب وراء مكتبه وعبر الأبواب المغلقة عن طريق لإزاحته من الطريق ..

اجتاز خالد امتحانات الدورة التي طلب الالتحاق بها هرباً مما يحاك حوله بنجاح وعاد إلى مكتبه القديم .. ليستقبله المراجعون بالترحاب سائلين عن سبب الغياب وأشياء كثيرة شعر من خلالها بالزهو والارتياح ..

لكن كانت تلك الرحلة وقتية فأثار تكدس العمل بالمكتب في غيابه عاصفة احتجاج لحقه شيء من رذاذها فانصب اللوم عليه وعلى زملائه ..

ـ خالد طريقتك .. تعاملك مع المراجعين والعمل لا يعجب ! .

ـ لماذا سيدي المدير .. ؟

ـ أولاً جميع الموظفين في المكتب كثير والتغيب ..

ـ بسبب العمل ومراجعة الإدارات الأخرى كما تعلم ..

ولم يفد إقناعه للمدير .. إذ أصرَّ مدير شعبة الموظفين ومساعده على دمج المكتب الذي يرأسه خالد بمكتب آخر يقوم رئيس المكتب الآخر بالإشراف على عمل خالد وزملائه .. وأصر على الانفراد .. قرر شيئاً في داخله .. كان ترتيبه لسير العمل يجد من يقف حائلاً أمام التنفيذ، وأصرَّ على المواصلة رغم حزنه وشعوره أن موقفه أخذ يتدهور.

ـ مدير إدارة .. يصر على أن لا تبقى في العمل .

ـ لماذا .. ؟

ـ يدعي أن كل الأوراق التي ترسل لهم غير كاملة .

ـ ماذا .. ؟

ـ ويدعي أنك غير متعاون مع موظفيه ..

ـ وكيف يكون التعاون .. ؟

ـ .....

ـ هل يكون بأن أقوم بالذهاب إلى تلك الإدارة وإكمال الإجراء الذي يجب أن يقوم به موظفوه .. ؟

ـ ولكن العمل علينا ..

ـ أنا أعرف هذا .. لكن من يتحمل المسؤولية ؟ .

أيضاً إصرار آخر وادعاء جديد يدفعه إلى التفاني في العمل وقضاء معظم يومه وساعات من المساء وراء مكتبه حتى صفى جميع المعاملات وتفرغ لقراءة الصحف والمجلات غير عابئ بما يدور حوله من همسات حول ضم المكتب إلى المكتب الآخر وتأخير معاملات بعض المراجعين .. كانت المرحلة حاسمة وقوية ففي خلال خمسة وعشرين يوماً من العمل المتواصل انتهى كل شيء وعاد السلام إلى المكتب رغم أن السحب تنذر بطمس معالمه ودمجه مع الآخرين ليفقد شخصيته المميزة .

كان الاحتراق أكبر من كل شيء حتى أكبر من الضوء الأخضر الذي أخذ يرفرف على الدائرة، وانغلق خالد مع نفسه .. أخذ يتحدث مع ذاته عن مصير مجهوداته وطيبته وعدم مبالاته التي كان يجندها لخدمة الآخرين مهما كانت الظروف .

وشعر بحزن عميق ، ترقرقت في مقلته على أثره دمعة كبيرة حاولت غسل ما في نفسه من أدران ولكن شعور الانسحاق كان أكبر من أن يفتر من أي حل .. فأخذت ابتسامته الصغيرة تغور وحاول أن يتجاوز من حوله في قسوة .. مرت سبعة أيام قاسية مليئة باللؤم والتخاذل ..

وهو جالس وراء مكتبه يؤشر على الأوراق التي تمر بين يديه ويرد على التلفون بأسلوب مغاير لما في داخله .. ثم يعود لمواصلة قراءة الجرائد ..

وحول جميع الأعمال إلى زملائه في المكتب الذي كان يديره وحيداً رئيساً ومرؤوساً مع اثنين من المعقبين وفراش عجوز بلحية بيضاء .. كان يحاول أن يفرض على نفسه معنى أن دوره انتهى وأن عليه أن يتوقف عند هذه النقطة ليواصل العمل في جهة أخرى.

ـ أريد إجازة ثلاثة أشهر ..

ـ كثيرة ..

ـ أعرف ذلك لكن مضت ستة أعوام لم أتمتع فيها بإجازة وأنا .. ؟

وحصل على الإجازة .. شعر أنه لم يعد شيئاً .. عندما قرأ قرارها وأخذ صورة منه واتجه إلى قسم الحسابات لصرف مستحقاته عن أشهر الإجازة .

* * *

أناس يعيشون الحياة

كان ذلك منذ ألف عام أو أكثر، عندما أقبل والفرحة تطل من عينيه .. وفؤاده يرقص بالحياة والحب .. كان طفلاً في تصرفاته رغم أنه في الثلاثين من عمره، لم يعرف السعادة في سنه من حياته سوى سعادة الطفولة اللاهية التي لا تعي ما يدور حولها من أحداث ..

حتى حصوله على شهادة الكفاءة ودخوله معترك الحياة العملي .. ثم تعيينه في قرية تبعد عن مدينة صباه وأسرته فتقبل ذلك بشيء من الهدوء لمعرفته أنه في استطاعته التنقل يومياً .. ووجد صديقين من نفس الحي يعملان معه فأخذا جلّ وقته بالإضافة إلى تعرفه بأصدقاء جدد من جنسيات مختلفة يعملون معه في الدائرة نفسها .

مرت الأيام سريعاً وتزوج ..كانت سلمى وردة جديدة تدخل حياته ، هكذا وصفها .. لكن الوردة الجديدة سرعان ما سرى الجفاف في عودها بسبب الغيرة والشك، فذبلت مع الأيام .. كانت تقاوم الصراخ .. ولكن عندما استبد بها الخوف من الموت هربت إلى دار والدها ولم تعد ..

وعاد فيصل إلى رحلته مع الحياة وحيداً في دار والده وشبح الفقر والإحساس بأنه إنسان مختلف عن هذه البيئة يقض مضجعه، يدفعه إلى الهروب، لكن كل من حوله يعرف أسرته قبل أن يعرفه .

يعرف أن أباه فقير ، ويعمل بمرتب ضئيل ، لديه زوجتان ودستة من الأبناء كلهم يمد يده طالباً نصيبه في الغذاء والكساء ، إنه يخافهم فهم كما ابتلعوا أباه سوف يبتلعونه .. إن أمه وإخوته شيء بغيض بالنسبة له .. فهو يتمنى أن يكون وحيداً حراً طليقاً يعيش في هذه الدنيا عرضاً وطولاً بين الأصدقاء والرحلات .

بدون وخز ..

كانت هذه حال فيصل الذي شعر الآن بأن أمانيه كلها تتحقق، وأنه وصل إلى برّ الأمان .. فمركبه الذي جرفته الأمواج والرياح إلى وسط البحر بعد أن فقد البوصلة التي تهديه الطريق .. يقترب ها هو الشاطئ أمام عينيه ..

ـ فيصل .. لقد وجدتها ..

ـ من يا عم عبود ..

ـ الزوجة الطيبة .. ومتعلمة ..

- صحيح ..

كتم كل شيء حتى عن والدته .. وطلب من العم عبود أن ينهي كل شيء ولكن بسرية تامة .. وشاهدها في مثل سنه ، قضت معظم حياتها خارج البلاد وها هي تعود بعد أن توفي والدها لتقيم هي ووالدتها وشقيقاتها مع شقيقها الذي يعمل في إحدى الدوائر الحكومية بمكة حيث أسرة والدها ووالدتها .

وتزوج .. وتعينت هي في وظيفة كتابية بإحدى المدارس الخاصة ، وانتقل إلى مكة بعيداً عن أسرته .. ليعيش سعادته بعد أن كان يعيش سعادة الآخرين ..

طوقته بكل شيء في سياج من المحبة والأمان .. لكن آثار وخز الماضي ما زالت طرية .. لم تشف .. فجراحه وشعوره بأن هناك أناساً طيبين سعداء يعيشون الحياة بدون قيود أو عقد يشعره بأنه يسير معصوب العينين ودب شجار وآخر .. كان بين كل شجار وآخر يتم بناء جدار جديد بينه وبين أسرته، بينه وبين الحياة البسيطة بدون آلام ..

شعر والده بأنه يبتعد .. فلم يقل شيئاً .. أخذ يراقب والألم يعتصره ..

- أنا .. عبد الرحمن ..

- عبد الرحمن .. مين ..

- أريد محمداً ..

كان محمد قريب فيصل حضر إلى مكة في مهمة عمل لمدة ثلاثة أشهر ورغم ما قيل عن سعاد من كلام بأنها إنسانة تكره أسرة زوجها ولا ترغب في مشاهدة أي فرد منهم فقد أصر على أن يقيم عند فيصل .. رغم أنه لا يلتقي بالاثنين فبعد أن كانت سعاد تستقبله وترحب به على أساس أنهم أسرة واحدة .. أخذت تتحجب وتبالغ في ابتعادها ومع ذلك تقبل الأمر لمعرفته بأفكار فيصل .. لكن .. أن لا تسمح لعبد الرحمن بالدخول وتغلق الباب في وجهه مع علمها بأن محمداً في الداخل نائم في غرفة الاستقبال شيء آخر.

كانت القصة أكبر من أن تتصور .. عندما خرج في الساعة الرابعة مساء ووجد عبد الرحمن واقفاً أمام سيارته .. يتميز غيظاً ..

مرت الأزمة بهدوء وإن فكر في مفاتحة فيصل بذلك خرج في النهاية وهو عائد من المقهى في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بعد أن قرر نسيان كل شيء .

وأدخل المفتاح الخاص بالباب الخارجي في فتحته بعد أن ضغط على زر جرس الباب لحظات .. ولكن الباب لم يفتح .. لقد تم قفله بالمزلاج من الداخل .. كرر تحريك المفتاح وهزَّ الباب في عناد .. وباءت محاولته بالفشل فضغط على زر الجرس مرة وأخرى.

وأخذ يتلفت حوله .. في ضيق وقلق لقد وقع في المصيدة أين يذهب في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

وقف لحظات يتأمل حاله .. فعاد إلى سيارته وانطلق هارباً .. كأن شبحاً يلاحقه ..

* * *

ها أنت موجود ، وعندما تكون كذلك لا بد من وجود خلفيات ودوائر وعلامات استفهام .. عندما تكون هذه الأشياء تكون الظلال المترسبة في أعماق الذات الإنسانية خليقة بأن تتكون لها بؤرة ذات تموجات إرسالها يرتبط في القوة والرداءة بقوة عدسة تلك البؤرة ..

وعندما يحل التجديف والسذاجة مكان كل شيء .. يكون هناك شيء من اضطراب الذات الذي يهيل في شيء من الكبرياء كل محاسن البشر على ذلك الكائن المدعو محبوباً.

المعادلة شبه فقاعة .. أخذ الهواء يتلاعب به مفسحاً لها المجال ترتفع ثم تتلاشى.

وقف صالح حائراً، إنها تدعوه لأن يقول شيئاً .. ولا يدري ماذا يريد أن يقول .. لم يكن متوقعاً أن يتم اللقاء بهذه البساطة لقد خطط كثيراً .

ورسم خططاً أكثر وقارن بين نسب النجاح راسماً خارطة إحصائية حتى يكون على بصيرة .. وغرفته الغير مرتبة تشهد على قلقه وعدم نومه الليلة الماضية .. كان يلاحقها كل مساء وهي في طريقها إلى المدرسة حيث تأخذ دروساً خصوصية .. وكان يقف كل صباح قبل موعد حافلة الشركة التي يعمل بها بساعة حتى يقف إلى جوارها على رصيف الشارع يتأملها دون أن يتفوه بكلمة ..

مرت ستة أشهر وهو على هذه الحالة .. بعد أن لمحها صدفة ذات يوم هرب فيه من العمل بعذر المرض .. مخططاً لمغامرة مع صديق يملك عربة تقف أمامه .

وابتسم وابتسمت .. لم يعرف أنها من الحي حتى لمحها تلج داراً في ذات الشارع الذي يسكن فيه ولمحها كثيراً لكن كل شيء توقف عند هذه النظرات .

رغم تخطيطه وإصراره على أن يقول لها شيئاً أي شيء المهم يعرف أنه تجاوز عقدة الخوف والخجل .

ـ صالح .. لقد انتظرت كثيراً هذه الفرصة .. إنني أحبك ..

ـ وأنا .. إنني .. ما أدري ماذا أقول ..

وتجلجل الموقف .. كان يتلفت حوله .. والخوف ينشب في كلماته وفي كل أطرافه مساميره ..

إن الدم يجري على الرصيف ، وأخذت عيون الجدران تتضاعف والدم يرتفع منسوبه في الشارع ، ورغم ذلك لا صوت هنا أو هناك .. كان يتوقع أن يرتفع صراخ الأطفال وتجلجل في قسوة صفارة الشرطة وعربات الإسعاف ..

لكن لا شيء من هذا ..

أخذ الدم يغطي كل شيء حتى المقل التي تدور حدقاتها في الجدران ..أخذ بعضها يختفي والآخر يتجاوز الجدران .. وتتعلق في الهواء ثم تهوي في نهر الدم ..

ولمح عينيها .. كان فيها شيء من الحياة .. خلاف تلك المقل الأخرى .. إنها تتحدث عن الحب والحياة تقول أشياء كثيرة عن المدرسة والمستقبل ..

وأنها وحيدة .. ولم يخفق قلبها لأحد من قبله رغم وجود الكثير من الشباب الذين لاحقها في الشوارع أو اتصل بها بواسطة التلفون ..

لكن لمعرفتها بأنه إنسان طيب وجدت نفسها مجذوبة إليه بشيء يشبه قوة جاذبية الأرض .

لم يقل شيئاً ..

ونهض من نومه وأخذ يعرك عينيه وتأمل الساعة المعلقة فوق الجدار .. إنها السابعة والربع ، لقد مرت حافلة الشركة وعليه أن يأخذ سيارة أجرة حتى يصل في أسرع وقت وارتدى ملابسه وخرج من غرفته ووقف على الرصيف في الشارع .. الشارع يعج بالمارة والعربات تمر بسرعة .. والأحاديث تصل من هنا وهناك تقول كل شيء ..

إنهم ينتحرون في جميع أركان الدنيا الأربع .. الدمار يحيط بالأرض من جميع الجهات .. الأعاصير تقتلع الأشجار والفيضانات تبتلع المنازل والناس والحيوان لا تفريق بين الجميع .

وتذكر حلمه .. فأخذ يتفحص الجدران والشارع .. لقد كان هذا الشارع البارحة نهر دم .. وهذه الجدران عيون فارغة من الحياة .

ـ صالح تفضل نوصلك ..

قفز من مكانه .. هناك من يدعوه ليوصله .. ولمحها داخل العربة في المقعد الأخير.

شلته المفاجأة إنه لا يعرف صاحب العربة رغم ألفته لتقاسيم الوجه والضحكة الصغيرة المرسومة على الشفاه ، فلم يقل شيئاً وإن كانت دهشته أيضاً أفقدته كل شيء فلم تفقده البلادة التي دفعته إلى التمتمة بكلمات غير مفهومة ، وهو يتراجع ليرتطم بالجدار الذي وراءه ثم ينطلق هارباً .. لقد أخذ يعدو وبكل قوته وما لديه من عنفوان متجاوزاً صدى ضحكة عالية انطلقت وراءه وضجيج كفرات العربة .

كان الطريق طويلاً ومع ذلك وصل ووجد زملاءه وراء مكاتبهم يؤدون أعمالهم فلم يسلّم ولم يقل سبب تأخيره ولم يحاول البحث عن دفتر الدوام .

ـ صالح لقد شعرت بتأخيرك فوقعت عنك .

كانت قصاصة صغيرة مدبسة بعناية فوق المكتب أخذها بين يديه والعرق يتصبب من جبينه .. ثم أخذ يتلفت باحثاً عن صاحبها ليشكره ، لكن كانت كل الوجوه ترمقه في تلصص تبحث سر تأخره الذي يحدث لأول مرة ، فكلهم لهم سوابق عداه ، لقد كان مؤدباً يسير في هدوء منحني الرأس ينجد كل من يطلب منه المساعدة حتى سمي في الإدارة باسم الملقوف .. وها هو يأتي متأخراً يتصبب عرقاً ..

* * *

إنَّهـــــــم يعودون

أخذ قلبه يخفق بالحب، فشعر أن لحياته معنى وأن الطريق الذي يقطعه كل يوم ذهاباً وإياباً إلى دائرته شيء من حياته؛ كانت مصادفة غريبة تلك المقابلة رغم أنها كانت في مكان عام يعج بالناس .

ولكن من حسن الصدف أن تلك اللحظات لم تثر انتباه أي فرد سواه، هي لوحة صغيرة معلقة على باب عمارة مكونة من ثلاثة أدوار تقول: إبراهيم مصباح رسام وخطاط الدور الثالث شقة خمسة.. كثيراً ما كان يتأملها في غدوه وذهابه ثم يتجاوزها بعدم مبالاة ..

حتى كانت المناسبة ورفع رأسه قليلاً، أخذ يتأمل نوافذ العمارة ولمحها تطل في هدوء ورقة .. افترّ ثغرها عن ابتسامة صغيرة عندما أحست بإصراره على تأملها، حتى أنه توقف في رأس الشارع غير مبال بتأخره عن العمل .

طال وقوفه ..

وطال بقاؤها في النافذة ..

ولكن شعر بحراجة موقفه ، فغادر مكانه مواصلاً طريقه إلى العمل .. شعر بالحب.

أجل أخذ يحدث نفسه عن الحب ، وهل هو من أول نظرة ، وأخذ تفكيره يتشتت، وأصبح يتململ في الجلوس على مقعده في المكتب ، وكثر خروجه ، محاولاً أن يجدها فلم يفلح ..

وهداه التفكير إلى أن يصعد باحثاً عنها، كانت لوحة الرسام والخطاط إبراهيم مصباح منفذاً له .. صعد السلم لكن من أي دور كانت تطل وأي شقة، وقف حائراً بين الشقتين الموجودتين في الدور الأول، ثم عاد القهقرى، كان الخوف يلف أطرافه وشعوره بالرهبة يدفعه إلى عدم الإقدام .. ووقف أمام الباب الخارجي يفكر فيما يعمل ولم يشعر بالشاب الذي خرج من العمارة حتى تجاوزه، مادَّاً في خطاه، وانتقل تفكير إلى ذلك الذي لا يشاهد منه سوى ظهره، من يكون ؟ أتراه من سكان العمارة وفي أي دور؟

هل يقرب لتلك الحسناء ..

شعر بالغثيان من كثرة الأفكار فخرج عن طوق الهدوء والاستسلام وانطلق هارباً من أفكاره إلى السوق، حيث أخذ يتجول على غير هوادة متأملاً الوجوه .

ولما شعر بالتعب ولج المقهى الكبير .. ثم عاد إلى عمله مرة أخرى .. في صباح اليوم التالي، وفي الموعد الذي شاهدها تطل من النافذة كان يرتقي السلم .. لقد أصرَّ على أن يشاهدها .. قرع الباب الأول فلم يجاوبه أحد ..

وقرع الباب الثاني .. وأطلّ من فرجة الباب وجه امرأة ولكن لم تكن فتاته ..

وأتاه صوت من الداخل ..

ـ من على الباب .. ؟

ـ لا أدري يا سعاد .. ؟

شعر أن سعاد هي المطلوبة، فأخذ يكثر من الأسئلة في ارتباك وخجل حتى افترّ وجه المرأة عن ابتسامة صغيرة .. ثم ودعته وهي ترشده إلى شقة الرسام على أمل أن يريها الصورة التي سوف يطلب من الرسام رسمها له .

لم يعرف اسمها ..

وهناك أخرى يعرف اسمها، لكن لا يعرف صورتها .. وعندما وصل إلى نهاية السلم ووقف أمام باب شقة الرسام سمع لغطاً تحت .. حديث يصله ولكن لا يعرف معناه .. لامرأتين ورجل فسارع بالنزول .. لكن الباب الذي كان يقف أمامه يقفل فأخذ يتلصص، وأحس أنه في موقف مريب فغادر العمارة ووقف على رأس الشارع مترقباً .. طال انتظاره بدون فائدة فأحس بالخجل .. كانت هناك نقاط تدفعه إلى أن يسأل ما معنى هذا الانتظار .. وهل هناك جدوى من الوقوف على قارعة الطريق أمام أنظار المارة .

وعاد إلى العمارة وصعد إلى الدور الثاني حيث يسكن الرسام وقرع الباب في هدوء وتريث وسمع وقع خطوات تقترب ثم المزلاج يتحرك .. لكن لم يفتح الباب .. وعاود القرع مجدداً وتكررت نفس الحركة .

ووجدها فرصة ليعود إلى السيدة التي تحدث إليها سابقاً وقرع الباب .. وعندما سمع أصوات بالداخل لم يعرف بنفسه حتى تم فتح الباب وكانت هي:

ـ سعاد .. ؟

ـ من أنت .. ؟

كانت فرحته أكبر من أن ترسم بالكلمات أو تلون بالخطوط فأغمض عينيه وهو يردد:

ـ إنني .. إنني ..

كان يبدو على وجهها الغضب والانفعال .. فلم تقل شيئاً، وقفت تنتظر مبرراً لقرعه الباب ومناداتها باسمها، شعر بشيء في داخله يدعوه إلى التقدم منها، لكن ساقيه لم تساعده إذ تسمّرت قدماه في الأرض ..

ـ إنني أبحث عن الرسام .. وأدعى عارف ..

ـ إنه في الدور الثاني ..

ـ أجل أعرف لقد أفادتني السيدة الأخرى بذلك وعدت الآن لأنني قرعت الباب أكثر من مرة ولم أحظ بجواب رغم أنني سمعت بالشقة حركات أثارت انتباهي ..

ـ أظنها ابنة الرسام ..

ـ ابنته .. ؟

ـ أجل إنه أرمل ولديه طفلة في الرابعة من عمرها .. يخرج في الصباح إلى عمله وهو نائمة فيقفل عليها الباب ..

ـ يا لها من مسكينة .. ؟

ـ إنها تعرف .. لقد حاولنا .. مساعدته ، لكنه رفض وأرشدناه إلى وضعها في الروضة لكنه أبي ..

ـ ألم تؤثري أنت عليه .. ؟

ـ أنا ..

ـ بجمالك .. إنه عمل إنساني ..

وشعر أنه فاز بشيء كان يبحث عنه .. المرأة تحب الإطراء فهل هذه كذلك ؟ واسترسل في الحديث محاولاً إشعارها بأنه لمحها منذ أيام تطل من النافذة فأثرت نظراتها على قلبه حتى أنه لم يحضر إلى الرسام إلا ليتعرّف عليها .. لانت قسماتها قليلاً .. لكن الصلابة المرسومة في كلماتها زرعت الخوف في أعماقه .. مما دعاه إلى توديعها .. وهو يشعرها بأنه سوف يعود في الساعة الخامسة مساء لزيارة الرسام .. وكأنه يقول إنني أتمنى أن ألتقي بك في هذه الساعة .

ـ عارف إنها جميلة .. أليس كذلك .. ؟

كانت صورة سعاد مع صديق .. أخذ يعرضها على بقية الشلة وهو يتحدث عن غرامه بها وأن المقادير جعلتها تحبه بشكل جنوني ويخشى أن تكون عواقب ذلك وخيمة عليه لمعرفته بأنه غير مستعد للزواج منها .. حسب تقاليد جماعته ومعرفته بأنه لن يحصل على الموافقة من الجهات المختصة لحساسية عمله ولكونها تحمل جنسية أخرى ..

ـ وكيف تعرفت بها .. ؟

ـ إنها ابنة مدرسة تعمل في إحدى المدارس ، وكذلك أختها الكبرى .. ووالدها ضارب آلة في إحدى الشركات وعرف أشياء كثيرة عن أسرتها ، لكن هي ماذا عنها ، لم يكن هناك سوى الصورة وحبها الأعمى ، وشقيقتها ذات الابتسامة الجافة لكل من يتحدث معها .. حتى لو كان الحديث لا شيء .. إنهم يحرقون البخور لتعبق الرائحة في الفضاء لتملأ الجو بروائح عبقة ، لكن البخور يحترق وتصبح الرائحة مجرد دخان يملأ المكان عتمة ويدفع الإنسان إلى أن يكمم أنفه حتى لا يختنق .. وكمّم أنفه ونهض من مكانه غير عابئ بأنه لم يستأذن من صاحب الدار ..

ـ عارف إنها .. تموت ..

ـ من .. ؟

ـ زوجتي ..

كان ضارب الآلة دموعه تسيل على خده ، لقد أصيبت بتسمم في الدم ، ولا يوجد جهاز لنقل الدم هنا ويجب أن ترحل ..

وتورط عارف .. أخذ يركض هنا وهناك .. وسافرت سعاد مع والدها ووالدتها وشقيقتها ..

ومرت الأيام .. توفيت الأم على أثر المرض .. وتأخر ضارب الآلة عن العودة إلى عمله مدة اقتضت فصله من العمل .. لكن هناك مضاعفات يجب إنهاؤها أولاً .. ومعرفة عدم اتخاذ الإجراءات عند السماح له بالسفر ..

شعر عارف أنه واقع في الفخ ..

ـ لقد عدت من أجلك يا عارف .. لقد ساعدتني ..

ـ شكراً ..

وتوقف كل شيء .. عاد ضارب الآلة إلى عمله بعد أن شرح ظروفه، أما سعاد فلم تعد .. لقد بقيت في بلادها .. وضحك عارف كثيراً ..

كان سروره فوق ما يتصور .. وهو يجد في صورته التي لدى الرسام لم تكتمل .. ومشروع حبه .. يتهاوى .. لقد فقد كل شيء ..

* * *

القمر بزغ مرة ثانية

استلقى على ظهره وأخذ يتأمل سقف الغرفة بعد أن أعياه التعب وأتلف أعصابه التفكير .. منذ الصباح وهو قلق غير ميال للجلوس مع أصدقائه أو الاستمرار في حديث ما .. وشعر بالتعب فأخذ يجرجر قدميه إلى الدار وكانت خاوية .. كلهم غير موجودين، والدته وزوجته وأشقاؤه .. فاستلقى على فراشه محاولاً التركيز وأخذ يتأمل سقف الغرفة .. مضت لحظات أخذ الهدوء يدب في جسمه، أخذ تفكيره يتجمع مركزاً هواجسه وآماله وما به من قلق وسأم في بوتقة واحدة ..

كانت الخطوط المرسومة في سقف الغرفة .. رحلة جديدة في تفكيره المتشتت أخذ يعلل وجودها رغم علمه أنها بسبب مياه الأمطار التي تتراكم فوق سطح الدار ولا تجد منفذاً ..

ورن التلفون .. وتململ قليلاً .. ثم رفع السماعة ..

ـ هذا بيت عبد الله سلطان ..

فلم يرد وكرر الصوت .. هذا بيت عبد الله بن سلطان، فلم يرد .. تريث لحظات بينما الصوت يكرر الاسم وأعاد السماعة إلى موضعها .. وافترّ ثغره عن ابتسامة صغيرة.

وسحب جهاز التلفون إلى الفراش وأدار قرص التلفون ..

ـ مساء الخير .

ـ مين !! .

ـ صديق ..

ـ من أنت !!

ـ عاشق ..

ـ كل (....)

كان الصوت نسائياً وشعر بالضيق، فأدار أكثر من رقم .. كل من يعرفه من أصدقائه موجودة لديه هذه الأرقام ويجدون من تتحدث معهم أما هو فلم يحظ سوى بالشتيمة ..

وقفز من الفراش، أعاد التلفون إلى مكانه فوق الطاولة وأخذ يبحث بين الكتب عن كتاب يقرأه .. فلم يجد وتصلبت أنامله على غلاف كتاب أخذ يتأمله وسحبه من بين الكتب، ولكن الغلاف كان فارغاً وبعثر الكتب بحثاً عن الكتاب الذي جلدته بين يديه .. وشعر برغبة في قراءته ، لكن لم يصل إلى نتيجة ، فألقى بالغلاف بين الكتب وارتدى ثوبه وأصلح من هندامه وخرج من الدار ،

قادته خطاه إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه مع أصحابه كل مساء واختار كرسياً منفرداً يحجبه عن الأنظار وطلب من القهوجي تعميره – شيشة – كان وجهه قبالة الشرق والساعة السابعة مساءً كل شيء هادئ غير أصوات العربات ومنبهاتها القادمة من بعيد ، وتأمل السماء .. كان القمر كبيراً ونصفه يختبئ وراء عمارة شاهقة وبزغ القمر .. أصبح كاملاً لكن صادقته سحابة أخذت تلتهم النصف العلوي منه، ثم التهمته بأكمله واختفى القمر .. وأخذ يتابعه .. كان هناك بصيص بين لحظة وأخرى يشع من خلال السحابة القاتمة وشع اللون الأصفر باهتاً لكن أخذ يقوى ويقوى وبزغ القمر مرة أخرى ..

* * *

أشيـــــــــــاء صغيرة

توقف عن التفكير عندما دخل الدار . كل مشاعره وغضبه الذي كان يعتمل بداخله همد .. عندما وجد الفراغ والصمت .. وعقب أن قام بغسل وجهه .. إنها المرة الثالثة التي يقوم فيها بغسل وجهه خلال ست ساعات .. وبحث عن المنشفة لتنشيفه من الماء ..

ـ نذهب ثلاثتنا إلى السينما ..

كانت آخر ما قاله لرفاقه في المقهى بعد جلوسه نصف ساعة ونقاش في أشياء صغيرة تخللها قرقرة الشيشة وأبواق العربات المارة أمام المقهى ..

هادئاً مبتسماً .. لا شيء في هذا الوجود يهم بقدر ما يتمنى أن يكون سعيداً ..

وأقبلت العربة الثانية تحمل بقية الأصدقاء .. وزاد الضجيج ثم ساد الصمت والهدوء ..

ـ أنا لا أريد الذهاب إلى السينما .. ؟

تخاذل أحد الثلاثة .. فشعر بوخزة في أعماقه .. ماذا يعني هذا .. إنها بداية انفعاله .. فصرخ ..

ـ ولماذا .. ؟

لم يجب المتخاذل .. ضحك إنها مشكلته أجل لقد كان هو آخر المقتنعين بالذهاب إلى السينما .. بعد أن أعيته الحيل في إقناع رفيقيه بالجلوس في البيت ومشاهدة التلفزيون ولعب الورق ماذا حدث الآن .. ؟

ونهض الراغبون في الذهاب إلى السينما .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة ..

ـ وأنت ..

ـ أنا لا أريد الذهاب إلى السينما ..

ـ إذاً لماذا نهضت .. ؟

ـ لأن عندي موعد .. وعلي أن أذهب إلى أختي ..

ـ وأنت .. ؟

ـ سوف أوصل الجماعة إلى السينما ..

خمسة .. ستة .. ولم يتبق غيره .. وذلك المتردد .. هدأ غضبه بعض الشيء .. وتحمل الوخزة وصمت ..

ـ أين نلتقي ؟ .

قال سائق العربة الثانية .. وتطلع في الاثنين .. محمد وصمته وعلي وحرصه على أن يطلب تعميره حتى يشيش ويصرع رغبته في الجراك ..

ـ هنا .. ننتظرك .. ثم نذهب إلى البيت ..

احترق كل شيء في داخله، لم يعد يدري ماذا يقول .. إن (العذاب فوق الجباه منشور) في ذلك الفراغ الذي يملأ جوفه ، وبدا عليه كأنه على أهبة الغمز بعينيه ، ولكن شحب وجهه وأحس كأن قشعريرة باردة انتابته وأخذ يتمتم وقد كظم غيظه ..

ـ أجل ننتظرك هنا ثم نذهب إلى البيت ..

وطلب الاثنان تعميرتين وأخذ علي يعلل سبب تردده في الذهاب إلى السينما مستغرباً نعته بأنه لا مبدأ عنده لأسباب صغيرة وأشياء مهما تقلب رأيه أو تردد لا تؤثر مهما كانت ..

انتهى الحديث .. لم يعد لدى الاثنين ما يقولانه، وأقبل صالح وتحرك الثلاثة إلى الدار ..

محمد يفكر في قضاء وقت جميل هادئ في الدار ، وعلي يعلل نفسه بلحظات مع ورق البلوت ، ومن الآن يفكر في رابع ، أما صالح فكل همه أن تمضي هذه الساعات الثلاث منتظراً الساعة الواحدة حتى يذهب إلى دار السينما .. حيث أخويه وبعض الأصدقاء الذين أوصلهم منذ لحظات ..

كان أول الواصلين محمد .. دخل الدار ووجد الصمت والفراغ، ثم غسل وجهه وأخذ ينتظر الباقين الذين ما إن فكر في أنهم تأخروا حتى قرعوا الباب ودخلوا .. كانوا أكثر من اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة ، والتف أربعة يلعبون وطلب علي الشاهي ثم نهض إلى المطبخ وأشعل موقد الغاز ولحق به محمد :

ـ أين وجدتم فهد ..

ـ في الدار ..

ـ ولماذا أنت غاضب .. ؟

ـ لقد ضرب زوجته .. عندما لم يجدنا عندك ..

ـ كيف .. !!

ـ حضر إلى هنا أثناء وجودنا في المقهى وعاد إلى المنزل غاضباً، فصبَّ ذلك على زوجته المسكينة ..

وغادر الاثنان المطبخ، وأخذ علي يصب الشاي، أما محمد فقد أخذ يتأمل فهد، كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً والجو لطيف والهدوء الغامض المنذر بالعاصفة يسيطر على المكان .. ورنَّ جرس التلفون فأسرع محمد، لكن الجرس توقف قبل أن يرفع السماعة .. فعاد إلى مكانه يتأمل اللاعبين ..

* * *

الزهور الصفراء

الإهداء

الى

احمد السباعي . . .

وإبراهيم الناصر

في كل المواسم

م . ش

البحث عن بقية

* لا يعرف الكتابة. وماذا ترمز إليه الحروف. كل ما يريده من الحياة أن يظل الرخاء. وأن يستمر الفرح مزروعاً في الأحداق. متحدثاً عن النعمة التي افتقدها في طفولته وصباه.

والقسوة في المعاملة التي كان يتلقاها. من جماعته بعد أن أكلت الوحوش والده ذات شتاء حين تاه في الشعاب والأودية. لم يستطع الكشافة المرسلون من القبيلة تتبع آثاره. واسترجاع (ألبهم) منه بعد أن همس صوت مجهول بأن (رافع) قرر سرقة أغنام جماعته والهجرة إلى الشرق حيث يستطيع. بما يحصل عليه من قيمتها شراء أرض. وبناء مقهى. في إحدى المدن التي يتوافد إليها العمال بحثاً عن عمل لدى شركة الزيت الذي نبع مؤخراً في تلك الناحية من البلاد.

* * *

* لم يستطيع الكشافة. الوصول إلى نهاية الأثر حيث أخفت الرياح. مواقع الأقدام. والعثور على جزء من الأغنام.

* * *

* إنه ابن رافع. الذي أكلته السباع. كل مشكلا يحدث بين الأطفال. هو مصدره حتى وعندما شب وتجاوز مرحلة الطفولة؛ كان أيضاً مصدر المتاعب والمشاكل رغم طيبة والدته التي تزوجت وأنجبت غيره.

إنما كان الولد الآبق الذي يرتاح للتجوال في الأودية باحثاً عن أي أثر لوالده.

* * *

* تناست القبيلة (رافع) وإن كان يرد ذكره بين لحظة وأخرى في مجالس السمار وقد ازورَّ الجميع عن ابن رافع.

* * *

* بيّت (ناجم) أمراً أخذت الهواجس تشغل باله فلم يعد يهتم بالتجوال للبحث عن بقايا آثار والده. ولم يعد يحرص على ملاقاة (جمانه) عند (القليب) أو في (الخلا) حيث تقوم بجمع الحطب والأعشاب ورعي الماشية.

* * *

* ذات ليلة حيث الجميع يتأهبون للتوجه إلى مجلس الشيخ إذ بناجم يتصدر المجلس في ملابس نظيفة جديدة. و(بشت) لا يستطيع غير مجموعة قليلة توفير ثمنه.

ارتسمت الدهشة فوق الشفاه. لعدم مبالاته وحرصه على النهوض من مكانه لمن هو أكبر سناً أو أفضل مكانة. وبدأ حفل السمر بالحديث عن الصحة. ثم إنشاد الأشعار. وعندما استعد عازف الربابة لتقديم وصلته تنحنح (ناجم) ثم خلع (بشته) من على أكتابه ونهض تاركاً (البشت) مكانه وغادر المجلس.

* * *

* ترقب الجميع عودته إنما مر الوقت. وانفض السامر قبل عودته. وبقي البشت.... غادر القرية دون رجعة. لم يأخذ معه مؤنا إنما اكتفى بإرشاد النجوم. حتى وصل إلى مركز يعتبر محطة لقوافل العربات.. والمسافرين.

* * *

* افتقدت الجماعة (ناجم) الذي وصل إلى الشرق، بعد أشهر أخذ يبحث فيها عن عمل. لم يكن معه. ما يدل على الطريق الذي يجب أن يتخذه.

إنما أقدم على التوجه مع العمال. من خلال الحديث الذي التقطه في الطريق. واستخرج بطاقة عمل من الشركة. حيث أخذ يتنقل من موقع إلى موقع.

* * *

* وجدها كانت (جمانة) بعد أن وخط الشيب فوده.. تزوجها على ذكرى (جمانة) الصبي. اعترض مخيم والدها طريق أعمال الشركة.. وقرر الإقامة في المخيم والتخلي عن عمله في الشركة.

افتتح مقهى على الطريق الجديدة. واستعان بأطفاله الثلاثة. الذين لم يتجاوزوا مرحلة الطفولة في تأمين طلبات الزبائن..

ـ هل يدرس أبناؤك..؟

ـ ماذا ..؟

لا يدري ماذا؟ كان يجب على. أسئلة موظف الإحصاء الذي زاره فجأة في المقهى وأخذ منه معلومات وافرة عن حياته وأسرته.

* بيّت أمراً. وأخذ يتطلع في أبنائه الثلاثة بعد أن غادره موظف الإحصاء وهم يقومون بتأمين الطلبات. وقبيل غروب الشمس باع المقهى بما يحوي.

* * *

* غادر مع أسرته الموقع إلى الشرق مرة أخرى لقد أصبح لديه نقود الآن. بحث عن مسكن صغير في أطراف المدينة. ثم التحق بإحدى الدوائر الحكومية على بند العمال وتقدم بطلب الالتحاق أطفاله بأقرب مدرسة. وطالبه مديرها بشهادات ميلادهم. أو صورة من حفيظة نفوسه إذا كانوا مضمومين فيها. لم يعرف ماذا يعني ذلك سوى أن العراقيل وقفت أمام وجهه.

كان حريصاً على تسجيل أبنائه بالمدارس. فقرر أخذ أوراق توصية من إدارته. جهز ثلاثة ملفات لكل صبي ملف استطاع بموجب هذه الملفات ضمهم في حفيظة نفوسه وتسجيلهم في المدارس.

* * *

* تذكر كل هذا. وهو يتجه بعربة أكبر أنجاله إلى القرية التي غادرها. ذات ليلة بعد أن تخلى عن (بشته). كانت اللوحات الإرشادية تملأ الطريق المعبد الذي امتد حديثاً.

* * *

* أخذ يسأل عن كل سهم يخترق لوحة إرشادية وبعد عدة كيلو متر رملية وجدها أرضاً بلقعاً.. خالية من السكان. وآثار بيوت طينية مهدمة تراكم الرمل فيها وبقايا آثار قوم.. يتربع في الساحات.. انداحت دمعة كبيرة من مقلتيه وتوارى عن وجه ابنه الذي ارتسمت فوقه أكثر من علامة استفهام.. ثم توجه إلى العربة التي عادت إلى الطريق المعبدة مواصلة طريقها في رحلة عمل. فضل أن يشارك ابنه فيها للترويح عن النفس بعد أن أحيل على التقاعد وفقد (جمانة) وغادر أبناؤه الباقون الدار.

في انتظار الحافلة

أعي أنني عمل مصادر. حتى في عيون أبنائي. حيث استباحت الهواجس واقعي فغدت ذرات يصعب متابعتها تنسكب كل صباح مع أشعة الشمس. التي تلج الدور كل صباح عبر فتحات وهمية.

* * *

انهم يقتلون مرحلة الصحو التي تنتابني أحياناً فآخذ في الهذر حتى يصمت من حولي رغم المقاطعات الواضحة التي ترتسم فوق الشفاه. حروف وكلمات. ثم جمل اعتراضية غير واعية تنتهي بابتسامة صغيرة باهتة. ذات ألوان صفراء متفاوتة في الحدة.

* * *

يقال هناك ناحية من الوطن يقتلون فيه الجياد الأصيلة والكلاب الضالة. حتى القطط لم تسلم من حجارة الأطفال. إذ أن كل ذات في تلك الناحية. مشوه أو مبتور أحد الأطراف. لذا لم يعترض أحد على وجود دكاكين الأطراف الصناعية.

* * *

استقريتِ في أعماق الندى زهرة برية. ذات أشواك لطخها الدم. تنمو.. تنمو.. رغم الجفاف والجدب. وهجرت المزارعين في شاحنات النقل. حيث تم غرس مداخن ذات دخان أبيض لف أسطح المنازل حجب الرؤيا.

* * *

لم أستطع اللحاق بالحافلة التي كنت أحد محتلي مقاعدها ذات مساء كانت الساعة تشير إلى الخامسة. في كل مرة كنت أرحل قبل موعدنا بثلاثة أيام حتى أصل في الموعد المحدد. إنما هذا اليوم كانت ساعته خربة. أما بقية الساعات فقد كنت أشك في صدقها. لذا فات الموعد وعندما سألت بائع القسائم عنك قال.. لقد رحلت.

* * *

أجل عرف أوصافك قبل أن أسترسل في شرح معاناتي. لقد كنت الرجل الذي يحمل رقم مئة. في قائمة السائلين. الذين يلطخ الدم أناملهم لقد كنت زهرة برية شرسة.

* * *

ارتفع صوتا أجش عبر مكبرات صالة الانتظار معلناً عن موعد إقلاع ثلاث رحلات إضافية. بجانب الرحلة الرسمية.

* * *

كانت الأطراف الصناعية أكبر عدداً وكماً من الزحام الذي أخذ يكون طوابير من الأعمال الباحثة عن مقاعد شاغرة.

* * *

من المفروض حسب رقم البطاقة التي أحملها في يدي أن أجلس في مقعد بجانب النافذة. وفي المكان المخصص للأشخاص الذين لا يدخنون ومع ذلك. وجدتك تحتلين مقعدي.

* * *

الساعة الآن التاسعة تأجلت الرحلة ثلاث ساعات بسبب عطل في جهاز الحاسب الآلي إذ أن المبلغ المدون على شاشة الكمبيوتر غير حصيلة الصندوق. وأقل بنسبة كبيرة من الأعمال التي حصلت على تذاكر. ومن ثم احتلت المقاعد الفارغة.

أنت. وكنت المجيب الأول لا أدري لماذا أجبت رغم أن عيون السائل الذي يقف على باب الحافلة تتأمل الفراغ. ترصد السحب التي أخذت تملأ السماء.

وأخذت أبحث عن تذكرتي أو بقية التذكرة التي سلمني إياها معاون القائد في جيوبي. نثرت حصيلتي من الأوراق والنقود فوق المقعد وعبثت بحقيبة الملابس. فلم أعثر على التذكرة.. وهنا طلب مني الترجل. وأفسح لي الطريق للعودة إلى صالة الانتظار.

* * *

أقلعت الحافلات الأربع فارغات هذه المرة أنهم لا يريدون تأخير الرحلة أكثر. فالوقت من ذهب.

* * *

عدنا إلى طابور الانتظار أمام شباك التذاكر للبحث في قائمة الأسماء عن اسم مدون. إذ أن من يجد اسمه يعود للصالة ومن لا يجد اسمه يقطع تذكرة جديدة.

وصلت أمام الموظف. تأملني قليلاً. ثم ذكرني بسؤالي عنك وأشار إلى اسم تحته خط أحمر..

ـ أليست هي ..

تأملت الاسم. تذكرت أنني لا أعرف اسمك. هززت رأسي نافياً.

ـ هل معك أطراف صناعية ..

ضحك قبل أن أجيب. كيف يكون لي أطراف صناعية ويدي اليمنى فوق الطاولة تحمل الأوراق النقدية والأخرى تحمل حقيبة الملابس. ثم أنني أرتدي سروال رياضة قصير وفانلة صيفية.

* * *

تسلم البطاقة. هذه المرة لم تكن تحمل رقم المقعد أو المكان المخصص. وتلفت حولي. كانت الصالة فارغة. تمددت فوق أحد المقاعد. متوسداً حقيبة الملابس.

أهازيج ميلاد جديدة

تتناثر الأفكار. تنهال الرؤى باحثة بقسوة عن لحظة حب. هي إيمان راسخ لموطن عاثت فوق ثراه أيام الطفولة والصبا. في سذاجة مبنية على وهم كبير هو خليط من الخوف والطيبة.

* * *

كان عليه أن يستكين. فهو ذات مطيعة لينة تقول ـ نعم ـ قبل أن يصدر إليها الأمر.

* * *

الربيع الثامن عشر أطل هادرا. بدون مقدمات. ومع هذه الإطلالة حلت الصدمة. التي أعادت المعايير إلى لولبها. لتنصهر في هاجس من الرفض. أكد معنى أحلام أخذت تحيط بواقعة. مهددة بنهاية بشعة.

* * *

الرحيل كان هاجساً جديداً. رغم الخوف. وأصرت الجدة العجوز مرافقته في رحلة الغربة. حيث يبحث الجميع عن الذهب.

* * *

الطريق طويل وشاق أخذت العجوز معه تبكي. صوتها يصله منهداً يعلن بؤس الأيام. وشقاء الطريق. الذي أخذت ترصعه عيون مشاركيه الطريق فأخذت تقدم لجدته يد المساعدة. وقد أقام الرفض متاريسه في أعماقه. من خلال عدم إدراك.. بأن هناك شيئاً رهيباً قادما.. فأخذ يلتصق بجدته أكثر.

* * *

الشوارع كما هي. رملية تنتشر في جوانبها الأغنام السائبة والدجاج والبقر والقطط والكلاب في خليط عجيب يعلن تقبل الإنسان لكل العوامل. وإمكانية تهجينه للحياة في كل الظروف.

* * *

الصراخ يملأ الشوارع. والجديد الذي كون خطاً أخر مواز لخطوط الرفض التي أخذت في الاضمحلال رغبة الحياة التي هي بدورها دافع للبحث عن عمل. انهم.. يذبحون الأبقار في

الشوارع ويلطخون الجدران بالبقايا. بينما نادل المقهى. ذو المقاعد الشريطية والجدران المتهرئة يصيح بصوت عال. معلناً تلبيته لتقديم طلبات المرتادين في إحدى يديه إبريق للشاي والأخرى تحمل شيشة أخذ الشرر يتطاير من رأسها.

* * *

الأيام في عنفوانها. وفاطمة التكرونيه التي تعمل في دار مخدومه أخذت تهتم به تقوم بزيارته في الدكان حيث يعمل وتهتم بجدته كثيراً بينما تبحث في عينيه عن عين الرضا.

* * *

ثارت ثائرة الشارع. أخذ الهرج يرتفع إلى عنان السماء حيث تم العثور على قتيل مجهول الهوية في إحدى الدور الخربة التي يأوي إليها الغرباء أثناء الليل بحثاً عن الراحة.

* * *

تكون خيط آخر. لماذا يموت الإنسان. لقد شاهد الموت إنما بين جنبات الأهل حيث يكون البكاء. ورش الطريق بالماء. وتكوم الناس لمواساة أهل الميت في صمت ودموع تنداح فوق الخدود حارة تحرق الأنامل بصدقها.

* * *

التوى طريق حياته. أصبحت المخارج مسدودة. وهاجس من الرعب يطوق خطواته بطوق الترقب. أخذ يتلفت حوله كثيراً. يسارع بين آن وأخر إلى الدار حيث تقبع جدته وتقوم بصناعة المراوح اليدوية و«الطواقي» المخرقة.

* * *

لاحظت الجدة ذلك. فأخذت تقلب الأفكار. حتى وصلت إلى مرحلة الشطط فتوقفت عن مواصلة عملها.

* * *

الطريق الطويل الذي أخذت العجوز معه تبكي. أخذ يتلوى أمام عربة النقل التي حوتهم في صندوقها. بينما الحديث بين الاثنين لم ينقطع منذ أن غادرت العربة موقف الشحن.

* * *

أدلهم الظلام. اختفى الطريق. وخيم الوسن على الجميع فعلاً الشخير كما نقيق الضفادع.

* * *

وضع رأسه فوق فخذ جدته التي أخذت تداعب شعره. كان الارتياح يخيم بداخله راسما صوراً جميلة لمرحلة مقبلة. فأغمض مقلتيه عنوة حتى لا تهرب مرحلة الصحو في داخله.

* * *

لم يكن هناك أحد يبكى. فالساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا. الظلام دامس يخيم على المكان لولا ضوء كشافات تشتعل بالبطارية أحضرها رجال السير لانتشال جثث الموتى. وإعانة رجال الإسعاف في مهمتهم لم يكن هناك أحد يبكي. فقد خيم الصمت.

هروب

استافت الرؤيا أحداقاً غارقة الدم. تلتهم آجر الجدران وتلعق في نهم مراشف حياة.. أخذت تعج بها الشوارع الترابية.

الوقوف على الأرصفة في ذلك الزمن المندس في دهاليز الحياة؛ وصمة بالنسبة لحسناء يطل ضوء وجهها. من وراء حجاب شفاف.. تنتظر حافلة العمل.

إنهم يحرقون ريش الطيور في النار. حيث يتم دفن العصافير الصغيرة في الجمر. لتعبق رائحة الشواء في الوادي. حيث يرتاح للجلوس مع أصفياء السعد. في مرحلة هروب من الواقع المؤلم الذي انداح قلقاً في غياهب الوجود.

ـ أنت..

ـ أنا..

ـ وهل .. هناك غيرنا..؟

لم يكن هناك سواهم.. حديثها عابق بالروائح والأماني.. بينما أخذ يبحث في الوجوه التي خلقها عقله الباطن عن شبيه. ليتذكر هاجسا في أعماقه يقول ذات يوم التقي (سهام) تعبث بضفائرها تبتسم في وجه المارة. تقذف الحجارة في جميع الاتجاهات لتخلق الشغب في شارع الحي الرملي تصطاد زجاج النوافذ والعربات المارة تزرع الخوف في العيون. يهابها الأطفال، أما هو فقد كان فتاها الذي تختفي معه عن العيون. حتى اختفت فجأة.

كل شيء فيها لا يذكره. بما هو فيه. فحديث الروائح والأماني. نبع جديد يحف به سياجا من الزهور المهجنة..

ـ أنت..

ـ نعم.. أنني أستطيع.. مواصلة الطريق وزرع الطريق. الذي أصبح الآن مزفتا. بزجاج المشروبات الفارغة لتمر من فوقها دواليب العربات.

ومن ثم تحدث أصوات مفزعة تربك الجميع.

ـ ماذا ..

ـ لا شيء..

الاندهاش المزروع في (ماذا) بركان أخذ يقذف حممه فوق الأشجار لتحرق الجميع في دوامة أعاصير ثارت فجأة غير متباينة الجهات تجتاح كل شيء مخلفة الرماد فوق الأرض..

الرماد. منتشر في الأنحاء يزكم الأنوف. يلطخ الأطراف في غاية لا يدرك الجميع أنها النهاية.

توقفت عربة أجرة أمام الاثنين فاندسا في المقعد الخلفي لم يحاول أن يسبقها إلى الدخول. ولم تحاول دفعه إلى الداخل قبلها.

تحركت العربة. لم ينبس السائق بكلمة. كأنه يعرف الوجهة التي يقصدانها. وفجأة توقف ثم التفت إلى الخلف فإذا بالمقعد خال وأوراق بيضاء متناثرة فوقه. تحرك قليلاً من موقفه حتى وجد مكاناً أميناً.

ترجل من العربة.. فتح الباب الخلفي.. أخذ يجمع ورقة.. السطور في بعضها غير مرئية والأخرى بيضاء. كومها بين يديه ثم أغلق الباب وتلفت حوله. ثم وضعها فوق الرصيف بهدوء.

مرت إحدى الحافلات التي تحمل شعار إحدى المؤسسات العامة. وقد احتل مقاعدها مجموعة من الموظفين والموظفات أخذت أصواتهم الخافتة تنتشر في الفضاء.

أنهم يغرقون المقل في الكحل الأسود لتبدو مستديرة تسبي عيون الناظرين كما يجب أن يكون لها محور ارتكاز. وبداية انطلاق لترسم خطوطاً عرجاء محدودبة فوق الزفت. تقشع ما سبقها من رسوم تسابق أصحابها على إلقاء أجسادهم أمام العربات المارقة ليرسم الدم المتطاير من الشرايين صوراً صادقة لواقع مؤلم.

ـ أنت.

وتلفتت حولها (كان يقف هنا) همست بذلك لرفيقتها التي وقفت في التوالي جوارها في انتظار الحافلة.

الزهور الصفراء

[1]

ارتسمت ابتسامة صغيرة في المكان وأخذت الزهور الصفراء تهتز في خيلاء معربة عن النشوة القادمة من الشمال. حيث أخذت الثلوج تذوب لتجري بين الصخور في طريقها الأزلي نحو النهر الذي تحف به المجمعات السكانية. التي لم تعد تبالي بالفيضان. إذ أصبح موسم خير تتلألأ فيه الثريات معلنة عن مقدم موسم الزواج.

[2]

(أزاد) تتجول في غرفتها تقلب الأفكار. فلم تسمع النقر الخفيف الذي استمر دون هوادة على باب الغرفة. اتجهت إلى الباب لتفاجأ بشقيقها الصغير وبين يديه زهرة صفراء تناثرت بعض أجزائها بين قدميه. جلست القرفصاء وأخذت تناغيه تحدثه بلهجته. فغرز بقايا الزهرة في شعرها. ثم أخذ بيدها واتجها إلى غرفة الجلوس. حيث بدأ التلفاز يبث حلقة جديدة من المسلسل العربي الذي تتابعه وتحرص عليه. حتى أنها كانت تكلف الآخرين بتسجيل الحلقة التي لا تتمكن من مشاهدتها (بالفيديو) حتى لا تفوتها الأحداث.

[3]

كانت الزهور الصفراء تملأ الشوارع والحدائق المنزلية الصغيرة في مرحلة انتشار عجيب. أوله سكان المنطقة إلى انجراف التربة من جبال الشمال حيث رسمت بصماتها على شواطئ النهر.

انفض السامر. وانهالت الرؤى فوق الرؤوس توزعت الخطى متجهة إلى المخادع. الساعة تشير إلى الثانية عشرة.. منتصف الليل. وحفيف نسمة الشمال تداعب الأغصان تقلق القطط المتجولة بين براميل النفايات.. حراس الليل.. وزوار الفجر .. الذين يختفون مع بزوغ أول أشعة الشمس. لإعادة الحياة إلى هذا الشق من الأرض.

[4]

لم يلاحظ المواطنون الأنفاس الغريبة التي أخذت تتسلل وتندس بينهم وقد ارتدت كما مات ضد الغبار المسموم.

[5]

النهر أخذ يرتفع منسوبه. المياه قدمت من الشمال بلون داكن تعبق منها رائحة غريبة نافذة تصرع من حولها.. تقتل الحياة.

[6]

(أزاد) تقف خلف زجاج نافذتها المطلة على النهر تسرح شعرها تترقب مرور قوارب الصيادين. وقوارب الأطفال الذين ينقلون الحاجيات والركاب على ضفتي النهر.

كان النهر مهجوراً وأشعة الشمس تعكس اللون الجديد للمياه. قربت وجهها من زجاج النافذة تتأمل الحدث الغريب وفتحت النافذة أزكمت أنفها الرائحة الغريبة فأغلقت أنفها بيدها ثم سارعت إلى إغلاق النافذة. وهنا لمحت مجموعة من الخوذات المكممة تركض في جميع الاتجاهات وأخذت تمخر عباب النهر قوارب مطاطية ذات لون داكن.

شعرت (أزاد) بالخدر يسري في عروقها فاتجهت إلى فراشها ثم تمددت وأغمضت عينيها وهي تتدثر بالغطاء. وراحت في سبات عميق.

[7]

توقفت الحركة على ضفتي النهر ..

[8]

الزهور الصفراء. أخذت تقاوم الغبار المسموم. باهتزازها الناعم في خيلاء رغم انسحاق بعضها تحت أحذية الغرباء الذين أخذوا يتجولون بحرية في كل مكان.. يبنون المتاريس.. يوزعون الأفراد.. يحتلون المواقع الحساسة وتمركز أفراد القناصة في مآذن المساجد.. فوق أسطح الدور العالية وخزانات المياه.

عندما انتهت المهمة أخذ كل فرد يفتح أزرار قميصه.. ورباط حذائه.. ثم ينزع الخوذة من فوق رأسه.. ويزيح الكمامات عن أنفه والقناع عن وجهه.. ليتم تبادل الحديث بحرية وهدوء بعد انتهاء المهمة التي لم يكن يتوقع الجميع أن تكون بهذا اليسر.

وتوقفت الكلمات فوق الشفاه التي تهدلت فجأة .. وجحظت المقل.. وأخذت الأنفاس تتلاحق .

[9]

الزهور الصفراء تهتز.. تعبر عن وجودها وحبها لضفتي النهر الذي وهبها الحياة فأخذت ترقص جذلاً مستقبلة الفيضان من الجديد الذي كان أقل منسوباً من الأعوام السابقة بفضل السدود المقامة حديثاً.

[10]

(أزاد) أخذت تتململ في فراشها. نزعت الغطاء عن جسمها. ونهضت من الفراش وارتسمت على شفتيها علامة استفهام ـ حيث نامت بكامل ملابسها ـ وتذكرت مياه النهر الداكنة فأسرعت إلى النافذة. فإذا بالماء صاف يلمع كالرصاص والزهور الصفراء تهتز والقوارب الصغيرة تمارس عملها اليومي فأراحت جبينها على الزجاج لتلمح بزة داكنة مكومة في نهاية الممر.

أوراق اليانصيب

انهار المبنى وتناثر الغبار في الفضاء. أخذت الشظايا تهشم جباه المارة، وزجاج العربات ونوافذ وأبواب العمائر المجاورة.

* * *

صبي صغير يبيع ورقة اليانصيب. شاهد العربة التي دخلت من بوابة المبنى.

* * *

قائد العربة فتاة شقراء ترتدي بزة عسكرية. ونظارة شمسية قبل أن تلج المبنى اشترت ورقتي يا نصيب واحدة لها وأخرى لمرافقها في العربة. وتنازلت عن بقية القطعة النقدية للصبي ثم مسحت على شعر رأسه واندفعت إلى داخل المبنى.

* * *

أقبلت عربات الإسعاف والدفاع المدني ودوريات الشرطة. وتكوم المارة. يبصقون الغبار الذي أخذ يكتم أنفاسهم.

* * *

بائع أوراق اليانصيب. تناثرت أوراقه فوق الرصيف من أثر قوة الانفجار فلم يهتم بجمعها وإن كان يمسك على الورقة النقدية الكبيرة التي دسها في أحد جيوب بنطاله.

* * *

أقتحم الصبي الجموع. يبحث عن قائدة العربة. وقلبه يتمنى أن تكون سليمة لم يمسها سوء متذكراً كلماتها الرقيقة ومسحها على شعر رأسه.

* * *

خرجت أول جثة من تحت الأنقاض. بدون رأس. كما استطاع رجال الجيش إخراج أجزاء متناثرة كونت جسداً واحداً أخذ الجميع يتأملونه مبهوتين. إذ أن الأطراف مختلفة الألوان.. والسماكة.

* * *

الصبي يحشر رأسه في كل فتحة يستطيع أن يجد فيها ممراً يقترب فيها أكثر من المبنى المنهار.

* * *

شعر الصبي بالإرهاق فعاد إلى مكانه. في زاوية الشارع حيث كان يبيع أوراق اليانصيب. وأخذ يجمع بقايا أوراقه المتناثرة والتي مرت فوق بعضها أحذية المارة لوم تلفت أنظارهم ببريقها والحظ القادم من خلال أحد الأرقام. ثم تمدد في مكانه مستنداً على الحائط الذي خلفه.

* * *

قفز الصبي من مكانه. صرخ. إنها هي وأخذ يعدو نحوها. أجل كانت هي مع رفيقها يغادران المكان بعد أن تم تنفيذ العملية بهدوء.

القدر يتربص بالصبي الصغير الذي أصر على اللحاق بهما. لم يسترع انتباههم نداؤه المتكرر.

* * *

اتجه الاثنان إلى عربة تقف في أحد المنعطفات. جلست خلف المقود وأدارت المحرك. هنا شاهدت الطفل يعدو نحوهم اكتسي وجهها الأشقر بالفزع أعدت العربة للانطلاق ثم تأملت رفيقها في المقعد. كان صامتاً. تجلدت تقاسيم وجهه تحجرت أطرافه وانصب نظره على الصبي الذي أخذ يقترب من العربة.

راقبت اتجاه نظرات رفيقها المتجلدة. لم يبق للصبي سوى خطوات ويلامس العربة. وهنا رفعت قدمها من فوق الكابح. مرت العربة فوق جسد الطفل الذي تضرج بدمه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بينما يده تمسك بالجيب الذي يحوي قطعة النقود الكبيرة.

* * *

اختفت العربة في الزحام. لم يشاهد المارة الطفل المقتول.

* * *

تحدثت الصحف في اليوم التالي عن البناية المنهارة وعدد الضحايا وأسباب الحادث الذي كان عن طريق عربة جيب محملة بمتفجرات أوقفت أمام مدخل العمارة. وفي الصفحات الأخيرة منها بيان بالأرقام الفائزة في السحب الشهري لأوراق اليانصيب .

رجل يبحث عن وظيفة

أنت مقتول. سوف تسمل عيناك وتحرق أطرافك بمحاليل حارقة تذيب الحديد. وعندها سوف يتوقف ذلك الصوت القادم من أعماق الفضاء عن النداء باسمك. ومحاولة إرشادك الطريق. حتى تصل وتقول في هدوء لها: إنك الآن اكتشفت بأن الحب يملأ كيانك. وأن الدنيا لا شيء بدونها..

* * *

رفع سماعة الهاتف. وأخذت أصابعه تضغط على أزرة الأرقام التي تكون رقم هاتفها..

ـ الوه.. ألوه..

ـ كيف الحال ..

ـ وارتفع صوتها. معلناً الاحتجاج على غيابه الذي طال أكثر من المتوقع..

ـ أنها أربعة وعشرون ساعة فقط.

ـ ماذا ..

عادت إلى هدوئها.. وأخذ يبحث من خلال صوتها عن سبب خروجها مبكرة من الدار. وعودتها في الحادية عشرة مساء ثم انشغال الهاتف حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

* * *

انهم يسرقون الأطفال في المتنزهات العامة.. كان الحديث يدور هامساً في التلفاز الذي يقبع مع زوجين افترشاً أرض إحدى حدائق المتنزهات العامة في المدينة. وعلى مد البصر كان سمير وعبير يتسابقان في طفولة بريئة لامتطاء المراجيح والألعاب المزروعة هنا وهناك.

* * *

أخذ أحمد يتأمل ساعته. انها السابعة صباحاً. لا شيء في الوجود أمر. من ترقب أزفان موعد على شخص فوضوي يشعر أن النظام قبر. والتعليمات غرف من الجبس لا منفذ فيها. سوى شبابيك تم تسويرها بقضبان حديدية رغم ارتفاعها وعدم الاستفادة منها.

الموعد الساعة الثامنة. سوف يدخل صالة الامتحان ليبحث من خلال الأوراق التي سوف تقدمها اللجنة المختبرة عن موقع في ملاك موظفي الدولة العام. انها المرة السابعة التي يدخل فيها الامتحان في محاولة صعبة. قرر فيها التخلي عن وظيفة على بند العمال ـ استطاع

الحصول عليها ـ بواسطة ـ ليعمل موزعاً لصور المذكرات الرسمية في إحدى الإدارات الحكومية للحصول على وظيفة داخل الهيئة.

* * *

انتهت مباراة كرة القدم. وقام رئيس الاتحاد الدولي مع رئيس الدولة بتسليم الكأس المذهب للمنتخب الفائز. بينما يقف تحت سارية العلم ـ علم الاتحاد الدولي ـ أربعة من رجال الشرطة ومجموعة كبيرة من مصوري التلفزيون والصحف لتسجيل حدث إنزال العلم من فوق السارية وتسليمه للدولة المضيفة للمسابقة القادمة بعد أعوام أربعة.

ارتفعت الأكف مصفقة. وأفراد المنتخب الفائز يركضون بالكأس المذهبة أمام مدرجات مواطنيه. بينما لاحظ المنتخب الحاصل على المركز الثاني أن عدسات التلفزيون والصحافة تتابع الأقدام الراكضة وبعين أخرى تنتظر إنزال العلم. فأهملت متابعة صعود أفراده إلى المنصة. هنا قرر قائد الفريق الانسحاب. ثم صرح في غرفة الملابس بأن الانسحاب كان حرصاً على سلامة لاعبيه. حيث أهملت الدولة المنظمة تأمين الحراسة الكافية بسبب الخلافات الأيدلوجية بين الدولتين.

* * *

رن الهاتف مرة واحدة.. تطلع في ساعته انها السادسة مساء إذا هي في انتظاره.. تململ في الفراش. وأخذت حواسه تتنبه الى الهدوء المخيم على الدار. تذكر أن زوجته وأطفاله غير موجودين وأنه وحيد منذ ألف عام.

تذكر أنهم طردوه من الفردوس الذي كان يعيش فيه عندما شعر بالسأم من الحياة الهادئة المملة فأعلن حبه على الملأ صارخاً بملء فيه أنه يحب وأن حبه هو الهواء والدم والحياة وما عدا ذلك لا شيء.

فوجئ الجميع بجنونه انه مجنون الآن. عليه أن يرحل. ورحل مخلفاً كل شيء حتى مفاتيح عربته تركها على الطاولة التي يقبع عليها التلفزيون. وغادرهم ماشياً على قدميه. مترقباً أن يلحق به أحدهم. وعندما طال انتظاره التفت إلى الوراء لعلهم يودعونه .. أو يتلصصون من النوافذ وعبر الأبواب المواربة. وإذا به لا يجد أحداً تخلى عنه الجميع حتى قطط الحي وكلابها السائبة.

* * *

منذ زمن لم يذق طعم الدموع. ولم يحاول الاغتراف من ذلك المنهل الحزين. ومع ذلك تكونت الصور القاسية في أعماقه تذكر. تهديد القتل وأخبار سرقة الأطفال وبيعهم في أماكن كثيرة من العالم.

تذكر الأكف المصفقة. وهو يزف خبر نجاحه في المدرسة وتفوقه في مادة الحساب والهندسة. انهم يضحكون منه حتى آخر قطعة نقدية ورثها من أسرته.

هنا نفرت دمعة صغيرة أخذت تنساب على خده. وتذكر أنه لم يبق على نهاية المهلة لتقديم أوراق الإجابة سواء عشر دقائق وهنا أغمض عينيه. وأخذ يملأ الفراغات بدون مبالاة ثم نهض من المقعد وقدم الورقة ملطخة بخطوط وفراغات في غير مواقعها. ثم وقع في كشف

تسليم الأوراق. وأمام الباب الخارجي أصلح من وضع غترته ثم ولج الطريق العام واختفى في الزحام.

أوراق من يوميات امرأة عاملة

* من بين الأشياء الرائعة التي أحسد عليها الحظ الذي خدمني في كل عمل أقدم عليه حتى لو أدى ذلك إلى تصدع الجدران على من حولي.

إنما هذه المرة خدمني بشكل آخر. قدم لي تضحياته الكبيرة ولكن لأفقد عقلي. فأخذت أشك فيمن حولي. وأنهار لأقل صوت مزعج أو صراخ يصلني عبر نوافذ المسكن الذي سكنت مؤخراً أو خلال الفتحات الصغيرة الموجودة في الأبواب متوهمة أن كل من حولي يتمنى موتي. حتى الخادمة التي أصبحت ملكي بدون عناء أخذت أخاف منها. أخشى أن أبقى معها وحيدة فتقوم بقتلي وأنا متمددة في فراشي من الإرهاق عندما تغفو عيني لحظات.

* * *

* تسرب هذا الوهم القاتل إلى أعماقي مؤخراً بعد أن وجدت في عيون من حولي الشك في تصرفاتي كامرأة مثقفة ومتعلمة.. تستطيع من خلال ما تلقنته من المدرسة أو الجامعة أن تفرق بين العمل الطيب والعمل السيئ المكروه الذي يفقد الإنسان كرامته.

* * *

* أنا امرأة مهجورة. هجرها زوجها فجأة دون سبب يذكر وبحث عن أخرى لإشباع غرائزه. لا أدري ما هي الأشياء التي افتقدها في. فتزوج أخرى. رغم الألفة التي بيننا والتفاهم الكبير حيث كنت أتمسح به كجارية عاشقة لأتفه الأسباب حتى يصفح عني وهاهو يهجرني..

ـ أنني أبحث عن السعادة.

ـ وهل كانت السعادة مفقودة في حياتنا.

ـ لم تكن مفقودة. إنما لاحظت أن طباعنا متنافرة.

ـ متنافرة.

ـ الأشياء التي أحبها.. تكرهينها.

ـ الأشياء السيئة.

ـ ولماذا. لا نتهادن حتى نصل إلى منحي السعادة.

ـ وكيف يكون التهادن.

ـ تتنازلين عن كبريائك قليلاً.

ـ أنا..

ـ أجل أنت.. السعادة التي اغترفنا منها الكثير. في أيامنا الأولى.

ـ لقد كنت غرة.

ـ وأنا كنت مغروراً بك ..

لم نكن نصل إلى نتيجة في كل حوار يدور بيننا. إذ أننا نتشابك بالأيدي وإذا كان صافي الذهن ولديه موعد مع أصدقائه يرمقني بنظرة ثاقبة ثم ينسحب ويرتدي ملابس الخروج ولا يعود إلا في الساعات من صباح اليوم التالي.

* لن أتوقف عند الأشياء الصغيرة والبديهية في حياتي. منذ أن قدمت إلى هذا العالم. حيث الفرح الغامر الذي انتاب والدي فقد كان مقدمي بعد خمسة أعوام من الجدب والبحث عن مكان يوجد فيه علاج من أجل الحصول على طفل.

أطل ـ عبد الرحمن ـ وأنا في نهاية المرحلة الثانوية من أسرة غنية تعرف فجأة على والدي من خلال العمل. ارتاح له والدي كثيراً في بادئ الأمر. وأخذ يتحدث عنه كثيراً.

إنما عندما قلت ـ نعم ـ اعترض كثيراً وخاصمني وأمام دموعي أصدرت والدتي أمرها بالموافقة. واستسلم على مضض لم أكن أعرف سر الرفض المفاجئ.

* * *

* مع مرور الأيام اكتشفت الحقيقة التي كانت غائبة عن ذهني لحظتئذ .. وأوقعت والدي في حرج إذ أنه كان ـ عبد الرحمن ـ يشارك والدي وبعض الأصدقاء سهراتهم التي لا تخلو من المحرمات في نهاية كل أسبوع خارج المدينة. أو في دار أحدهم. ولم نلاحظ ذلك على والدي الذي كان يأوي إلى غرفته وحيداً في الهزيع الأخير من الليل ومن هذا المنطلق. كان خوفه علي الذي حطمته بحبي الأعمى وعدم التروي في الاختيار الصحيح.

* * *

* القصة كبيرة.. والحظ الذي كان يتهادى أمامي جذلاً يقدم لي على طبق من الذهب كل ما أشتهي اختفى الآن بعد مرور أربع سنوات. جاوزت فيها المستحيل. تغلبت فيها على طموحي وواصلت دراستي حتى غدوت موظفة. وتغلبت على وساوس زوجي الذي يأتي بعد منتصف الليل فاقداً الشعور. يطالبني بالعشاء وإكمال السهر معه حتى الصباح. دون احترام.

ولكن الحظ .. ذلك الإنسان الوهمي تقدم لي هذه المرة في صورة صديق لزوجي. أخذ يواسيني في المحنة التي أنا فيها عبر الهاتف ويخفف من آلامي.

شعرت بقربه مني والتصاقه بي رغم عدم إفصاحه عن اسمه ولكن تأكد لي أنه قريب ينتمي لإحدى الأسرتين.. أسرتي.. أو أسرة زوجي. لمعرفته بكل الخفايا الأسرية وحتى الصغيرة منها رغم ادعائه بأنه صديق زوجي..

* * *

* لم يتسرب الشك إلى نفسي. ولكن في لحظة انفعال بحت بكل شيء لعبد الرحمن قلت له كل ما كان يدور بيني وبين صديقه في الهاتف وعندها ثار..

أخذ يركلني بقدميه.. ويصفعني على وجهي بكلتا يديه ويسحبني من شعري وهو يصرخ..

ـ خائنة.. خائنة.

ـ أنا..؟

ـ أجل .. أجل.

وانهار يبكي. بعد أن لطخ الدم وجهي وانسحبت إلى غرفتي أجمع ملابسي وخرجت من أمامه وهو يتأملني خلال دموعه. دون أن ينبس بكلمة.

عدت إلى دار والدي. الذي استقبلني بالدموع. وشعر بأنه السبب في كل ما حصل لي رغم أنني لم أتحدث كثيراً عن الأشكال الذي دفعني إلى مغادرة داري.

ـ لن أعود إليه ..

ـ كل شيء خير يا بنتي.

ـ لقد ضربني .

ـ ما رأيك آخذك للمستشفى حتى يتم كتابة تقرير بذلك نقدمه للشرطة.؟

وقفزت من مقعدي.. الشرطة.. لن يكون ذلك.. حدثت نفسي بهذا وأنا أتخيل الأحداث السيئة تمارس رغم أنفي. كشريط سينمائي.

ـ الأمر لا يحتاج إلى ذلك.

ـ وعملك.

ـ سوف أتصل بهم. وأعتذر عن الحضور حتى تزول الكدمات.

تذكرت. كل هذا بعد عشر سنوات من الوقوف وحيدة في مهب الريح لأحمى أطفالي الثلاثة من نوائب الزمن وقد رفض عبد الرحمن تطليقي.. أو الصرف على أطفالي وخوفاً من أخذهم مني رضيت بالواقع. الذي شعرت فيه بأنني امرأة مهجورة فشلت في أن تعيش. وها هي الآن تقف على مفترق الطرق تبحث عن من يقف إلى جانبها. حيث كنت في بعض أوقات الوهم القاتل أهرب إلى الهاتف أشكو لصديقاتي ولأشخاص لا أعرفهم ولا يعرفوني. مصيريا لأجد لحظات من السعادة. الموءودة ووجدته.

إنما الوهم القاتل كان يقف بيننا. أخذت أشعر بقربه مني ومدى إحساسه بما أعاني لكن الخوف المترسب في أعماقي يدعوني للهرب خوفاً من واقع مظلم.

كان والدي في هذه الرحلة رفيقي الوحيد بعد أن رحلت والدتي إلى العالم الآخر. يشعر بما أعاني يحاول أن يقول شيئاً لشعوره بالخطأ الذي ارتكبه في حقي.

إنما لم أعطه فرصة لأن يعتذر لإحساسي بأنه لو اعتذر فلن يكون هناك شيء أعيش من أجله.

* * * *

الليل الذكرى المرتخية

أين الضوء.. احترقت الثريات.. لم يعد في المكان سوى انفعال الحضور. من الكيد الذي يبدو أن مرتكبه ثقيل الظل. لايهمه العبث بمصير الآخر من أجل الوصول إلى هدفه.

* * *

عاد الضوء مجدداً. إنما بعد أن خلا المكان من الحضور لم يبق سوى أفراد يعدون على أصابع اليد. هم أهل الفرح الحقيقيون يستمعون إلى حكايات نادرة الوقوع يرويها شيخ خرف لا يدري الجميع من أين جاء. حيث وجده الجميع أمامهم يجلس في صدر المجلس يرحب بالقادمين يسأل جلساءه عن الأهل والصحة.. مردداً أن الموسم موسم خير. معززاً توقعاته بالسماء الملبدة بالغيوم والتي اختفت نجومها وأقمارها بسبب ذلك فلم يبق أمام الساهرين سوى الذهاب إلى دورهم قبل أن يهطل المطر ويجتاح السيل الطرق.

* * *

أطل عابد على المجموعة الجالسة وسرت في جسمه رعشة خفيفة وهو يلمح الرجل العجوز يتوسط الدائرة الذي ما أن لمحه حتى كف عن الحديث وأخذ يتأمله بعين حادة كعين صقر لمح فريسته من شاهق. فأخذ يركز حتى يحدد مكان الالتقاء والانقضاض وجد عابد أنه مدفوع إلى التقدم من الحلبة. فقام الجالسون مرحبين به. يباركون زواجه. متمنين له الرفاه والبنين من خلال السعادة المتوقعة فهناء جميلة بنات الحي وكبرى بنات جابر مثقفة معلمة بإحدى المدارس الأهلية تساهم بقسط وافر من أسهم الشركة التي أقامتها.

* * *

جلس عابد بالقرب من الشيخ حتى لا يشاهد البريق المطل من عينيه انهم يقتلونه الآن. أجل سوف يموت الليلة لا محالة. فالشيخ رسولهم الذي يتابع خطاه منذ أن قدم إلى هذه المدينة. يحمل قرار تعيينه في إحدى الإدارات الحكومية بعد أن شارك في الامتحان الذي أعلن عنه ديوان الخدمة المدينة...

قرر النزوح من بلدته وأهله والهجرة إلى الجنوب حيث لا يتمنى إلى أحد، وها هو في ليلة فرحة يجدهم أمامه من خلال بريق حاد. سمر قدميه في الأرض.

* * *

الفقر المدقع.. واليتم .. وزوج أم متلاف أتلف.. تركه أبناء زوجته على أقاربه. وتنقل ممجوج لا داعي له من خلال حياة أفضل يلغي كل الارتباطات.والقيم. .. فغداً خدين حياة العبث ... الليل نهار.. مضاء رغم أن الشوارع الخلفية الآن.. ومنذ ملايين السنين تعيش الظلام الدامس طيلة أيام الشهر. معربة عن رفضها لهذا الوجود الرافض الذي يسكن منازلها الصغيرة. غرفها الملطخة بصور نساء ملونة اقتنصها السكان من المجلات والصحف الواردة من وراء الحدود.. بشكل شرعي.. أو بطرق أخرى..

العجوز يسكن إحدى هذه الدور. وعابد مع مجموعة من رفاق الليل يسكن الدار المقابلة. الأمر الذي لفت نظر إحدى سيدات دار الشيخ. فأخذت تتسلل بين لحظة وأخرى إلى الدار المقابلة. بعيداً عن العيون بحثاً عن الحياة التي فقدتها وراء البوابة الحديدية الكبيرة.

* * *

دخلت المجموعة العابثة السجن. بعد مداهمة مفاجئة لرجال الشرطة. لم يكن هناك أحد سوى عابد. يقوم بترتيب أثاث الدار وبصمات رفعها رجال التحقيق. أنكر عابد وجودهم وبما أن لهم سوابق. فقد تم الوصول إليهم ومواجهتهم بما تم العثور عليه من ممنوعات.

* * *

شعر أنه لا يستحق الحياة.. النظرات مصوبة إليه. حيث دار الهمس.. في الحي بأنه اعترف على رفاقه حتى لا يسجن مدى الحياة.. رغم ما تؤكده محاضر التحقيق بأنه لم يذكر أي أسم فلم يتم سجن أصحاب البصمات الباقية وكانت منهم إنما الباب الحديدي. تغير بعد أن خرج بعد خمس سنوات سجن والدار تحولت إلى مستودع لأدوات السباكة، محابس.. براغي.. مواسير.. أكياس من الليف .. البويات..

لم يكن الرجل.. قد وصل إلى هذه المرحلة.. تلفت عابد حوله.. وهو يهمهم.. يا الله أنه عامل الزمن.. كم تأخذ الأيام منا.. خمسة عشر عاماً.. الأيام ليست طويلة إنما بالنسبة.. لإنسان هذه الأيام.. مرهقة.. مملة.. زحام.. زحام يقف فيه الفرد طيلة حياته حتى يصله الدور.

أنه دوري أنا.. ولكن هناء عانس .. يقال إنها مطلقة.. يقال .. اكتشف زوجها أنها ليست عذراء.. أجل أعرف ذلك.. ومع ذلك سوف تكون شريكتي ما تبقى لي من أيام في هذه الحياة..

* * *

أنت مجهول .. لا نعرف عنك شيئاً .. أين أهلك.. أهلي أنتم.. أمك.. أبوك.. أخوانك .. أبناء عمومتك.. كلهم هنا.. أين يقيمون.. داخل هناء.. لم تحاول هناء الوقوف في طريق السعادة القادمة. التي كبلتها من كل ناحية لذا رفضت كل التوصيات.. لتنفرد برأيها.

* * *

نهض الرجل المجهول .. أصلح عباءته فوق أكتافه وأمال عقاله قليلاً ثم لف غترته حول وجهه الأشيب حتى لم يعد يبدو من محياه سوى عينيه.. مد يده نحو السمار مودعاً .. يشد على كل يد.. رمق عابد الذي لم ينهض من مكانه حيث كان يفكر ساهماً.. غير عابئ بما يدور حوله.. انتفض عابد وعاد إلى الواقع ونهض من مكانه ثم مد يده إلى الرجل. ثم شده إلى صدره..

انهالت دمعة صغيرة فوق خدي عابد.. تأملها الرجل قليلاً ثم رفع يده ومسحها بأنامله واحتضن عابد مرة أخرى وهمهم بصوت متهدج.. مبارك يا ابني..

* * *

تلفت الساهرون حولهم .. محاولين معرفة سر الرجل فقابلتهم الدهشة المرسومة على محياه.. وابتسامة صغيرة أطلت فجأة كومض برق شلت السؤال.. واتجه إلى الباب مغادراً المكان.. أمام همهمة متقطعة. لتسأل تلاشى عبر زغاريد نسوة تؤكد للجميع أن هناء أكملت زينتها. وهي في طريقها إلى قاعة الحفل الكبرى لتقف مع عابد أمام عدسات المصورين من الأقارب. لتسجيل حدث خالد.

أخذ عابد.. بيد هناء واتجه إلى القاعة. كانت تقول شيئاً وهو كان يقول شيئاً. إنما هذه الأشياء لم يستطع أحد الوصول إليها. رغم التصاق الجميع بهم. وأخرج من جيبه عقداً ذهبياً قديماً. زرعه فوق صدرها. أدهش الحضور أمام باب العربة التي أقلت العروسين إلى منزل الزوجية.. حيث وقف أطفال يرتدون الملابس البيضاء يحملون الشموع وسلات الزهور.

وقف الاثنان.. بينما كان الرجل العجوز يتأمل المشهد من مكان منزو في الشارع.. لمحه عابد فأسرع إليه.. شده من يده..

هز الرجل رأسه رافضاً.. اختفى في الظلام.. بينما هناء تكرر السؤال.. من يكون.؟. لم يقو على الجواب لأنه لا يعرف. إنما في نظراته شيء يقول أنهما كانا معاً..

* * * *

النار وأعياد الميلاد

توقف ... صرخ ... صوت أجش.. أعلن الرفض ساقاي تساعداني على الجري.. حتى أغادر المكان، توقف.. ذات الصوت الأجش، وقد كان هذه المرة مصحوباً بعيارات نارية. أخذت تتناثر حولي.

الخط المستقيم الذي أعدو هارباً من خلاله أصبح متعرجاً.. ساقاي تنبعث الروح فيهما... روح ملاك أخذ يطير فوق البسيطة.. كفراشة ربيع... تنتقل من زهرة إلى أخرى... يشدها صخب الأطفال .. فأخذت تقترب.. رويداً رويداً.. وإذا بهم يلاحقونها بعد أن هجروا لهوهم لضمها إلى محتوياتهم.

سائل حار أخذ ينزُّ من تحت الكتف الأيمن لابد أنه دم. حاولت أن أتلمس ذلك إنما تذكرت أن هذه الحركة سوف تعطلني عن المواصلة والاختفاء عن عيون المطاردين.

لا أدري كيف دخلت الحرش الذي تسللت إليه قواتهم. أين الحرس. وصفارات الإنذار.

أنه الميلاد. حيث يأوي الجميع إلى دورهم.. للاحتفال بتوديع عام واستقبال آخر.

هناك كوخ.. لا أتذكر أني شاهدته رغم إحاطتي بالمكان. يشكل النور المنبثق من نوافذه عيون قطة سوداء. رغم صوت الموسيقي الذي يشق الظلام.

الصوت الأجش توقف عن النداء. والعيارات النارية صمتت هي الأخرى.. دفعت الباب بقوة.. تأملت الجميع.. أعرفهم.. إنما أين شاهدتهم لا أحد يتذكرني.. أو يمد يده مصافحاً. وأثناء.. التأمل انبثق الدم من العيون. عندما فتح الباب مجدداً.. قفزت من مكاني على الأرض. جرى تبادل إطلاق النار.. أخذ النور يغمر المكان طلقات نارية.. طلقات.. طلقة واحدة.. عاد الصمت للمكان.

* * * *

الصورة

وقفت أتأمل أكشاك العصافير الملونة. على مدخل أحد المحلات التي تقوم ببيع الزهور والعصافير الملونة.. فوجدت يدي تمتد له مسلمة... دافع في داخلي شدني إليه... يدفعني إلى الالتحام به.. هاجس يقول هذا توأم، مشاعر انكفأت ذات يوم.

صحوت على صوت شقيقتي وهي تدعوني إلى مغادرة موقعي. لإكمال جولتنا في السوق من أجل إرشاد أخي للأشياء المطلوب اقتناؤها.. حيث أنه تقدم لخطبة صديقه لنا. وتكفلنا لمعرفتنا لذوقها بتوجيهه رغم معارضة والدتي لنا. وتركي أطفالي الثلاثة عندها مما حرمها مشاركتنا في التجوال والاختيار.

* * *

أسامة لا أعرف ماذا حدث له هذا المساء. رغم تضحيته بأن أشارك أسرتي فرحها. وجدته صامتاً على غير عادته. أخذ يتأملني وأنا أغير ملابسي.. وأنا أتجه إلى غرفة أطفالنا للتأكد من أغطيتهم. ولمعرفتي به كفنان. رضيت بالصمت الذي انتميت إليه حتى لا أشغل لحظات سعادتنا بأمور بسيطة. أدرك أن نهايتها ليست جيدة وخاصة من خلال أسامة الفنان الذي يهرب إلى ألوانه بهستيريا غير مقبولة.. هاجرا عمله الرسمي.. منطوياً في مرسمه. لا يكلم أحداً.. وإذا شعر بأنني سوف اعتذر لما بدر. يعود لحالته العادية... إنما هذا المساء هناك أمر مستجد.. رغم إدراكي بأنه لم يحدث خطأ بعينه.

الساعة تشير إلى الثانية صباحاً.. أسامة يجلس وحيداً في مرسمه... أنا أقلب صفحات كتاب جديد بدأت تصفحه منذ أسبوع ورغم لهفتي على هضم محتواه. تأخرت في التهام سطوره شعرت بالبرد يقرص أطرافي. فأطبقت الكتاب ونهضت من الفراش توجهت إلى المرسم.. وجدته مشدوها يتأمل لوحة جديدة.. انتصبت فوق الحامل. بينما الفرشاة بين أصابعه... لا أدري بما يفكر ... حفيف منامتي.. ووقع أقدامي الحافية.. ودفعي للباب الموارب شدوا انتباهه فأخذ يتأملني.

* * *

طفت صورة الرجل الذي قابلته في محل بيع الزهور إلى السطح.. أنه قبالتي.. تسمرت في مكاني وقد احتبست صرخة مجهولة في داخلي .. الرجل يتأملني.. أنا أقف في فتحة الباب يد أسامة تفلت الفرشاة... تتناول يد أخرى قلم رسم أسود أخذت تخطط على اللوحة بشكل مذهل. بدأ التكون يظهر .. تكرر بروز وجه الرجل على اللوحة.. أخذت صورة أسامة تبرز.. العرق تصبب من جبينه. والإرهاق باد على محياه.. أسرعت نحوه انحنيت ألقى برأسه على صدري.. أخذت أداعب شعره بأناملي. وأنا أتأمل الصورة..

* * * *

الانحدار

الاهداء

الى ابنائي ووالدتهم

اهدي هذه القصص لاشتراكهم معي في كتابته وحثهم على نشرها حتى لاتفقد حقها في الحياة.

أنا

1412 / 12 / 18

الطائف

المقدمة

(1)

وعجبت للنسيان كيف يصيبني في طفلة غيداء لا تنساني

ان اللسان وان تجعد ساليا رطب بذكرك والضلوع حواني

حسين سرحان

(2)

وقال لي اذا أصطفيت أخا فكن فيما اظهر ولا تكن فيما أسر فهو له من دونك سر، فان أشار اليه فأشر اليه وان أفصح فأفصح به . .

محمد عبد الجبار التفري

(3)

ماذرفت عيناك الا لتقدحي بسهميك في أعشار قلب مقتل

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمي القلب يفعل

امرؤ القيس

(4)

ص . . حرف من حروف الأبجدية

قد يكون بداية اسم علم . .

قد يكون بداية فعل ماض . .

مضارع

أمر . . . .

قد يكون حرفا ضائعا داخل كلمة

معلولة

أو ممنوعة من الصرف
او يكون مواطن رجس
انما تتناثر المباديء اشواكا حول
سيقان شجرة مجهولة : : :

محمد الشقحاء

(5)

رثيت رفاقي المتعبين . . لأنهم
على الدرب، اني منهم، سحقوا وهنا
عقدنا بحلم المعجزات عيوننا
واكبر كان العبء من ظهرنا منا

سليمان العيسى

وأخاف أن أخسر. لقد غدت التضحية عظيمة، إنما الشعور بالنهاية أعظم، على أن ابحث عن البديل وحتى لا يكون التردد موقف حسم ينهي التطلع . قفز من مكانه حيث يقبع بين رفاقه داخل إحدى صالات المعسكر أمام خارطة للوطن السليب تحدد معالم القدس ورام الله وقلقيلة المبادة، الخطوط الحمراء والسوداء والعلامات المميزة لكل موقع تتوهج مثل ثريا علقت في فضاء لا حدود له .

ـ أقوم بهذه المهمة

حدق فيه الرجل الذي يقف أمام الخارطة ثم حرك العصا الطويلة التي يستعين بها في تحديد المواقع المطلوب اجتيازها للوصول إلى الهدف وهو احد البوابات الأولى لمدخل المفاعل النووي في الصحراء .

توقفت الكلمات في داخله، عاد الحوار الذي كان يتفاعل في أعماقه منذ بداية الدرس الجديد الذي أستوعبه من خلال ما يقوم من شواهد وهمية .

ـ سوف يكون الأمر سهلا بعد اجتياز النهر

ـ إذا اجتزت النهر

وهنا تذكر أنه لا يوجد نهر إنما سياج من الأسلاك الشائكة والحواجز الرملية المرتفعة التي عبرها يتم اكتشاف كل تسلل، النهر يقبع في الجهة الشرقية من الحدود إذا عليه التسلل إلى الأردن ومن هناك يكون العبور لم تخرج الكلمات من داخله هذه المرة إنما عاد إلى مكانه بين نظرات زملائه الدهشة ثم جلس وكأن الأمر لا يعنيه .

عاد إلى عالمه الوهمي . مكونا معادلة حسابية رهيبة بين الخوف والانتصار، لا يدري متى قدم إلى المخيم وكيف انخرط في المقاومة الشعبية، كل مخزونه من الماضي؛ انه طالب في إحدى كليات جامعة وارسو يقرأ الأدب . يبحث عن أسباب الخوف من الخسارة في الشعر اللاتيني ولماذا كانت الإلياذة تتحدث عن الانتقام كما تؤكد حرب طروادة، بخلاف الشهنامة التي تتحدث عن الحقد والكراهية أو الأودية ورحلة الغضب لاسترداد الزوجة وكيف اندثرت هذه الجحافل من الشعوب ومتى يتحول العالم كما تقول النظريات الجغرافية إلى دائرة واحدة من الأرض كلما اختفت قطعة من الأطراف البعيدة . تكون امتداد يوازيها في منطقة الشرق الأوسط .

انتهت المحاضرة وأخذ البعض طريقه إلى باب الصالة في ضجيج وأحاديث متناثرة . وأخذ يتابع الجمع السادر، وإحداهن تقترب من المحاضر وتمسك به تتحدث إليه، تحرك كفها إلى رقبته وتطوقها بكفيها يتدلى لسان المحاضر يمتد إلى الأرض يزحف باتجاهه مد كفه جسه بأطراف اصابعه . تنبه المقاعد فارغة وصمت اسود يشمل المكان اللسان يتقلص غادر مقعده واتجه إلى الباب المشرع .

الساحة التي انتصبت فيها سارية العلم شبه فارغة لانشغال الجميع بما بين أيديهم من مهام وفي دواخلهم من أمان، اتخذ طريق البوابة اجتاز رجل الأمن المدجج بالسلاح، لم يلحظ أن هناك من يتعقبه الطريق الطويل إلى درعه يمتد أمام ناظره، ووهج الظهيرة يحتضن المكان ووقع خطواته على الإسفلت تشاركه الحديث .

السيارات تمرق الواحدة تلو الأخرى . وحافلات الركاب تحاول لفت انتباهه بمنبهاتها ومرق أمامه شهاب ناري، تصلب في مكانه ثم انحرف يمينا واختفى خلف جذع شجرة هرمة، يعرف انه بعد خطوات يستقر مقهى يرتاده سائقوا عربات الأجرة وسيارات الشحن .

ـ أهلا

الصوت يعرفه . أخذ يقدح زناد فكره قبل أن يلتفت نحو مصدر الصوت، ذاكرته لا تسعفه التفت كان المحاضر وثلاثة من رفاقه دب في داخله إحساس خوف شعر بالغربة، سحب احد المقاعد وجلس معهم اخرج علبة السجائر أشعل احدهم السيجارة .

أخذته خطواته إلى زاوية الحمامات وجد عند المدخل رجل وامرأة زرعت ابتسامة صغيرة على وجهها وغادرت المكان، اقترب الرجل منه وتبادلا النظرات دخل احد الحمامات الرجل يقف على الباب تبادلا الملابس بارح المكان بسرعة المرأة تهم بركوب عربة جيب صغيرة لوحت بكفها وهي تدير المحرك، ما أن استقر على المقعد حتى كانت كفها تربت على كتفه ضاغطة عليه .

طلبت منه مرافقتها والسيارة تقترب من الحدود أوراقه قبلته على خده فاسترخت كفه على فخذها تجاوزت ردة فعله . وهي تقترب من بوابة العبور صدرها البارز يقفز من فتحة الفستان، ختم الموظف الجواز تحركت العربة وعاد الاطمئنان .

ـ وصلنا

قالت ذلك بهدوء شعر أن مهمتها انتهت أخذ يلملم بعض الخوف ليقول شيء مد كفه انتظر حركتها رفع كفه إلى وجهها لامس خدها انحرفت بالسيارة إلى حقل مهجور تناثرت أشجاره أخرجت لفافة من خلف مقعدها .

ـ خارطة للطريق ونقود

ـ وأنت

ـ مهمتي انتهت

اقترب منها طوقها بذراعيه دفن وجهه في شعرها جسدها يرتعش لم تقاوم اندفاعه زهورها تتفتح وحروفها تتناثر، غادر العربة صامتا واختفى بين المنحنيات شعر بالجوع نشر الخارطة التي لا يوجد بها سوى خط واحد بدأ من النقطة التي ترجل عندها، كل شيء واضح .

ـ هاهو المطعم

حدث نفسه بصوت مسموع كأنه يرشد أخر

اقتربت خطواته من مدخل المطعم تذكر أنه لا يعرف اسمه فأخرج جواز السفر من جيبه . اختار طاولة بقرب النافذة شعر بالأمان . اخرج من اللفافة حافظة النقود لدفع الحساب جحظت عينا النادل وهو يكتشف ضخامة الأوراق النقدية .

غادر المكان .. النهر أمامه فقد وصل إلى نهاية الخط المرسوم عليها، جلس على حافة النهر . . يتابع حركة الطيور وأشباحا تتحرك زادتها العتمة وحشه، رطوبة الجو منحته خدرا لذيذ تذكر معه مرافقته فغرس أصابعه في الرمل . دوى طلق ناري أخترق صدره فتح فمه . . انساب الدم أصابعه تتقلص وكفه يحتضن حفنة من الرمل، انكفأ على وجهه الأشباح تختفي وخرير المياه يتلاشى . . يتعفر وجهه الأبيض المبتسم بالتراب والدم المنساب يتشربه الرمل .

* * * *

البكاء

استقر أخيرا . لم يعد الأمر يحتاج إلى احتراق، وقد اتضحت الرؤيا وأصبحت النتائج غير مجدية رغم كل المراجعات، الشارع المضاء يمتد في بله وتيه، وهو يحتضن السابلة من العربات والناس وكائنات أخرى لم يستقر أحد حتى الآن على أسماء لها .

ـ أتراك انتظرت كثيرا

ـ أتدركين الزمن في أعماق المنتظر

ـ إذا تأخرت

ـ لا ادري إنما تفحصيني . . هل ما زلت في حجمي الطبيعي

اتجه الاثنان إلى بوابة المكتبة المشرعة . لا يوجد مرتادون حتى هذه اللحظة اختار كل واحد منهما مسار يبحث عبره عن مطلبه بين الكتب المعروضة، حسب التخصصات الموزعة .

أخذ يتابعها عن بعد محاولا رصد خطواتها ودراسة ارتعاش أطرافها وهي تتجول في خجل وحياء بين الكتب تحت انظاره .

وانطلقت صفارة الإنذار معلنة أن في الأجواء طائرات مغيرة . . تصبب عرقا وتلفت حوله، أخذ يبحث عنها بين أكوام الكتب ثم اندفع خارجا إلى الشارع؛ الحركة كما هي، السابلة، السيارات، الأبواق المزعجة والشمس الساطعة .

أسترد أنفاسه أخرج منديلا من جيب ثوبه وأخذ يمسح العرق عن جبينه، هدأت أنفاسه وعاد إلى المكتبة .

ـ أين أنت

كانت جالسة على المقعد المحاذي لطاولة المسئول عن المكتبة، رفع بكفه المنديل لمسح جبينه وتصلبت نظرته على المنديل الذي أصبح احمر يقطر دما . . حدق في المنديل فاغر فاه، اقترب من كوة ضوء مدققا فاحصا يده التي تمسك بالمنديل ملطخة بالدماء .

لا يوجد جرح . امسك بطرف انفه وأدخل أصابع يده حتى سقف الحلق وأخرجها تراجع إلى الخلف حتى حاذى المقعد الأخر المنتصب أمام طاولة مدير المكتبة جلس وقد سرى في أطرافه برود عجيب . لم يعد هنا احد سواه .

ـ أنت ماذا حدث

ـ . . .

ـ أتوقفت فيك الحياة

وتحركت من مكانها وهي تلمح المسئول عن المكتبة يقترب مغادرة المكتبة، تلفتت خلفها فلم تجده وعادت سريعا هجمت عليه بكلتا يديها ضاغطة على كتفيه في مداعبة خشنه للقيام ، تهاوى أمام الموقف الجديد .

الطنين يلف المكان ولا أحد الساعة مازالت عقاربها على العاشرة صباحا . . الموعد التاسعة ساعة الصفر حسب الاتفاق .

صالحة:

ارتديت ملابسي استعدادا للذهاب . . خرجت من غرفتي وإذا بأمي تجلس في الصالة . . اخذت إداري ارتباكي الساعة الثامنة

ـ أين خالد

ـ خرج

جلست على الأرض بجوار أمي

ـ والسائق

ـ قبضت عليه الشرطة

مرة ثالثة تأملت الساعة . . أسرعت إلى الهاتف طال الحديث وارتفع أذان الظهر .

عمر:

أخذني الحماس فأنهيت إجراء الأوراق التي بين يدي، الثامنة والنصف كنت أغادر المكتب وفي التاسعة تماما كنت انتظرها تحت لوحة المكتبة التي لم تشرع بابها .

زادت حركة الطريق والمكتبة والمحلات التجارية تشرع أبوابها . . واحد . . اثنان . . ثلاثة . . تجاوزت عقارب الساعة العاشرة فانكفأت على مقود السيارة ابكي .

* * * *

الانحدار

علمت مؤخرا بأنني ممنوع من الكتابة، اكتشفت هذا من همس حضور المناسبات الاجتماعية التي تقوم بعض الصحف بعمل لقاءات أو ندوات حولها من باب الالتحام بالجهات المعنية بالتطور الإنمائي فتغيب مشاركتي ويتجاوز تعليقاتي من خلال مطبخ النشر.

أخذت افكر بقسوة في الانتصاب العدواني الذي مارسه شيء في داخلي دون مراعاة للظرف الذي أمر به والإرهاق الفكري الذي أعانيه بسبب عوامل عده منها العزلة والانحدار نحو الهاوية وحيدا متخليا عن كل المواقع التي استطعت مع الزمن ربحها .

لم أجد بعد هذه المرحلة أفضل من كلمة الربح لأن هذه الكلمة هي الوصف الحقيقي لكل المكتسبات التي خلقتها وحتى تكون المعادلة صحيحة، لابد من الخسارة وها أنا اركض في طريق الهاوية وكل ما أخشاه أن أرباحي تنتهي وبالتالي أفقد رأس المال وأشهر إفلاسي كما هو وارد في سوق الاقتصاد .

انتظرت كثيرا هذه اللحظة التي أقف فيها مستقبلا الضيوف . الأضواء تملأ المكان كما أنها تضيء داخلي بقوة، انه زواج ابنتي المكسب الأول الحقيقي في حياتي وبرغم الضياء اشعر إنني بحاجة إلى البكاء، وأخذت ابحث عن مكان منفرد حتى أحقق رغبتي في البكاء جميع الزوايا والغرف تعج بالزوار والمشاركين في المناسبة .

أنها تقف وحيدة . . دب هاجس أخر في داخلي وعدت إلى الحركة وقد أجلت رغبتي في البكاء، في داخلي نقطة داكنة أشعر بحرقتها وحجم مساحتها . العيون تتابع خطواتي تبحث عن الأشياء المربكة والناقصة في صوتي وفي اكتمال أدوات الحفل، وأنا افتح كوة للريح الطيبة لتعبر كواليس أعماقي المعتمة المتوقفة عن الأشرئباب والتجاوز . أنها النهاية الحتمية

ـ حامد . . حامد

الصوت قريب أتذكره . إنما من يكون وقد تجاوزت عقدي الخامس، الشيب يملأ راسي ودمعة مازالت منذ عقد تستقر في مقلتي .

ـ حامد . . حامد

الصوت يقترب أكثر . انه يرفض كل الهواجس ويحقق الانتماء وطيب رائحة الوطن، الشارع المترب، بيوت الطين، وشآبيب المطر والأسقف الواطئة وقد أخذت تنز بالماء معبرة عن فرحها بالشتاء .

ـ حامد

ـ نعم

ـ مبارك . . زواج سماح

ـ سماح

الصوت يصل يأخذني بقوة إلى الزمن القديم الذي رفضته بتصرف أحمق ذات يوم، كنت اركض حتى تعثرت وقد تقطعت أنفاسي لأفيق على صوت سماح . . التي انتقلت معي إلى العالم الحر في هروب سحق وجودي، لتصبح وقد غدت شابة / أفنان / وامرأة مكتملة ناجحة في عملها .

الصوت يزداد معرفة وقوة . كان المطر ينهمر وسقف الغرفة ينز بالماء، دوائر الزمن تدور في رأسي وانهرت في مكاني ونقر الدفوف والغناء تشتعل في الداخل، وشبح الماضي المتناهي طولا يغادر المكان حاجبا الضوء المنتشر في كل زاوية .

(2)

طريق الانحدار عميق أطول من كل المعادلات الحقيقية . يخيم الهدوء عليه وكل الأشياء التي أتجاوزها ثابتة، شخوص آخرون توقف بهم السير في أماكن متباعدة، حتى الآن المؤشرات افضل . . انه الوطن، أخذت اكتب الكلمة بأشكال متعددة وأقلام متفرقة وأحبار مختلفة، ثم أخذت ارسم حروف الكلمة كما يتم نطقها واو. . طاء . . نون . . واو . . طاء .. نون، ومع كل حرف أجتاز مسافة اكبر ويتكون في داخلي طاقة أكبر.

ـ حامد . . هل أكملت دراسة قضية الأستاذ فاضل

ـ قربت أنجز تدوين ملاحظاتي

ـ لقد تأخرت

ـ إنها ملاحظة ديوان المراقبة العامة

كان مدير الإدارة التي انتمي إليها يستعجلني بمضاعفة الجهد لإنهاء دراسة أوراق قضية احد اقاربه .

ـ الأستاذ حامد

ـ أهلا

ـ فاضل عبد الدايم

قفزت من مقعدي واقفا كمن لدغته افعى . ترددت في مد يدي نحو الكف الممدودة، هناك قوة تتعامل في داخلي فأخذت أتفرس في الوجه المنتصب أمامي وأخيرا صافحته مرحبا ودعوته للجلوس وواصلت كتابة ملاحظاتي .

ـ لو سمحت كرت العائلة

أخذت أطابق الأرقام والأسماء . . سماح زوجه . . سماح ابنة سعد . . . سمر . . واكتمل عدد الأسماء ومطابقة البيانات

ـ هل الكرت جديد

ـ نعم وهنا بين الأوراق صور من الكروت القديمة

ثم وقفت وأنا أمد كفي

ـ سوف يتم صرف باقي الاستحقاق بعد يومين

نهض وغادر الغرفة . . وعدت للأوراق . . اخذت ادقق في الأسماء المكررة ولما انتهيت سلمت الملف للمراسل لتوصيله لمكتب المدير العام لتوقيع أمر اعتماد الصرف .

ـ تفضل أوصلك

تزامن خروجي من المكتب مع تحرك عربة فاضل الفاخرة وآنا اتجه لعربتي الواقفة في فناء مبنى الدائرة، أرعبني الصوت، قررت أن أعود للمكتب، كانت تجلس في المقعد المجاور ، شيء يدعوني لتلبية الدعوة، ابتسامتها الصغيرة تكبر . . أخذت أتراجع . . خطوة . . خطوتين، ابتلعني المبنى وأخذت جدرانه تسحق جسدي .

(3)

الزمن كان قويا . . قويا اكبر من عشق المكان . شعرت فيه بالإرهاب، عندما قررت الزواج جاء الاختيار وجاء الانفصال/ هربت إلى خارج الحدود لعلي أجد الهدوء الذي فقدته .

وتوقف الزمن . لم يعد الرفيق الحتمي الذي يسير كمرافق فعدت وقد غطى الشعر الأبيض رأسي، أنهم يدفعون الإنسان إلى الموت، حتى الأصدقاء . . كلهم عفن . . كلهم عفن

ـ أبي خير

ـ أبدا أنها ذكريات النزوح . . والوطن

سوف يكون لنا بيت

ـ أجل . . أجل

ـ وسوف نواصل

حطت الطائرة في المطار. لم يكن هنا أحد في صالة القادمين المكتظة بالمستقبلين . . المكان ضيق العيون تلاحق المتحركين ارتبكت خطواتي ومع ملاحقة سائقي سيارات الأجرة أخذت استنشق الهواء الرطب .

اختلطت الصور. . تتراكم الرؤى، الهاجس . . أكبر . . أكبر ، واعتدت السكون القاتل، مشاركاتي تسحل على أبواب الصحف وان استشهد الكتاب بأفكاري . . هاهم جميعا في حفل زفاف افنان .

سوف اجلس وحيدا في الدار. ولكن الصوت القادم من الماضي سماح؛ وأخذت أتذكر الخطى الوئيدة، والجمع ينسحب بقيت جالسا على احد مقاعد صالة الاستقبال حتى أحقق رغبتي المؤجلة في البكاء .

* * * *

الرقية

توقف عن التفكير وأخذ يقلب ما بين يديه من أوراق مهمة .

ـ كانت هنا البارحة

تلفت حوله أخذ يغير من جلسته بين وقت وأخر

قال بصوت مرتفع

ـ ياترى أين اختفت

تأمل الجدران المحيطة به وأثاث الغرفة، توقع أن يقول له وهمه . .انها هنا، حرك يده اليمنى الم في داخله يدعوه إلى تحريكها بشكل آلي .

انفجر الموقف لم يعد لديه بصيص أمل في العثور على الصورة التي كل صباح يقدم لها التحية وفي المساء يقبلها وهو يغادر مكتبه .

أنها كائن حي . تمنطق الحياة ويزرع البهجة في داخله، تغرقه في دوامة من العمل الجاد والارتياح النفسي الكامل .

كل ما يتذكر أن ظرفا غامضا جمعه بصاحبتها فغدت زوجته، وكذلك ظرفا غامضا دفع صاحبتها إلى هجره وطلب الانفصال . ولم يتأخر في تحقيق رغبتها لشعوره بأن الأمر سوف يصل إلى مرحلة يفقد فيها ذاته، وبالتالي يفقد الاحترام الذي تكنه له .

ولم يتبقى منها سوى هذه الصورة التي يجدها حجاب يحول بينه وبين نسيان وجوده؛ وحرز يقيه من المصائب والوقوع في الخطاء .

نهض من مقعده بعد أن بعثر الأوراق التي فوق المكتب وخرج لا يلوي على شيء وهو يهمهم

ـ إنهم ينتظرون حضوري

الطريق طويل والحديث يحتاج إلى اعداد . توقف أمام حاجز تفتيش للشرطة، لم يتبق سوى عربتين ويجتاز الموقع، فتح زجاج الباب المحاذي له، تابع بنظره الرجال المدججين بالسلاح

ـ أنهم ليسوا من رجال السير

توقف وسط الحاجز طوق العربة أربعة افراد . قدم لأولهم هويته بينما فتح الآخرون أبوب العربة فاحصين داخلها، انزل كفيه عن مقود العربة وضعها على فخذيه وقد طأطأ رأسه لحبس الخوف وحجز القلق حتى لا يفقده الموقف كيانه الإنساني، وإذا بشيء صلب يطعنه في جانب رأسه وصوت أجش يخترق عالمه المختفي .

ـ وهذه من تكون

رفع رأسه متفحصا مؤخرة البندقية التي احتكت برأسه . تذكر عصا المدرس الغليظة التي يلكزه بها هو ورفاقه في الفصل عندما يطلب منه أن يقرأ الدرس أو يعيده لما يمارس في الفصل من درس ليتأكد من متابعتهم .

تنبه وحدق في صاحب الصوت الواقف بمحاذاته . ارتبك وتأخر في الرد وهنا مد الرجل يده داخل العربة وسحب الصورة من تبلوه العربة وبصوت خافت

ـ أنها صديقة

كان يتوقع انتهاء التوقف وحالة التفتيش عند هذه المرحلة . غير أن الأمر تطور دخل العربة احدهم شاهرا مسدسه بينما صادر صاحب الصوت الخشن الصورة، لا يدري أين يتجه وكل ما تبادله مع مرافقه إشارات تدله على الاتجاه الذي يسير فيه حتى دخل سياجا من الأسلاك الشائكة ومرتفعات الرمل .

ترجل من العربة . أمام خيمة تبدل لونها بسبب الشمس طلب منه مرافقه الوقوف، أوصله تفكيره إلى الشعور بانعدام الاهتمام بما يدور في داخل الخيمة فأخذ يتلفت في سكون مستبينا المكان .

ولم يحس بأن احدهم خرج من الخيمة تأمله قليلا ثم صوب نحو رأسه مسدسا يحمله وأطلق عيارا واحدا، التفت على أثره عنوة وقد انبس الدم من صدغه، كانت الصورة تقف بجواره بكل عنفوانها . ثم انكب على وجهه .

* * * *

القطار

منذ زمن طويل تسرب قرف لا أدري مصدره إلى داخلي . معلنا رفض الكتابة عن انسحاقي فسحل ما تبقى من وجودي فوق شوارع مدينتنا حتى لا أستمر في الرفض الصامت لكل ممارسة غبية .

أستقل القطار المتجه إلى الشرق . بؤبؤ عيني اليمنى في محاولة تمويه لخرق الصمت، فإذا برجال وإناث يحملون معاول حرث الأرض ويرتدون خوذات الحرب يعترضون سبيله، وقد تهشم جزء من الخط الحديدي وجرى إشعال النار في حطام أشياء لم أستطع تمييزها، إنما أدركت أنها مكونات خاصة جرى نهبها .

شروع الحزن إلى داخلي اجتاح كل مقاومة للانبثاق . وبالتالي حرم علي التطلع إليها، سوى حلم يرافقني عندما امشي وحيدا أو حين أختلي بهمومي في ركن مهجور من المقهى الذي اهرب إليه كل ليلة .

ـ أين أنت يارجل . . !

أمر غريب السؤال . فانا موجود وجود هذا المكان لا أحد يستطيع تجاوزي؛ هذا ما واجهني وأنا أدخل أحد المحلات التجارية، إذ نهض صاحب المحل وأخذ يرحب بي وعندما لم اشتر شيء قدم لي هدية زدت تخاذلا .

ـ ابحث عن شيء تحت ملابسك

ـ وماذا تريد

ـ اعرف لون سروالك الصغير

استلقت على قفاها وهي تقهقه بهستيريا احبها . فقدتها منذ إلف عام . . تذكرت الدم الذي تمدد في شوارعنا ابتداء من مدخل القرية الذي لم يصمد مقاوموه في وجه جنود الاحتلال، وهم يقتحمون كل شيء يطلقون الرصاص في كل اتجاه .

حتى نفقت الأبقار والحمير وأخذ الدجاج يهرب هنا وهناك في بحث مستميت عن كن أمن، والحمام يشكل مجموعات تهاجر سماء قريتنا كما هاجر شبابها منذ الاحتلال الرهيب وتركنا الجميع، لم يعد هنا غير إطلال ونحن الاثنان .

كنت اجلس على عتبة باب دارنا الذي تهدمت شرفاته . ومريم تجلس خلف إحدى الطاولات بمدخل المقهى الصغير الذي ورثته بعد مقتل والدها في الهجوم الأول للغزاة .

كان همي الأول معرفة لون ملابسها الداخلية . فقد لمحتها ذات ظهيرة تقوم بفرد بعض قطع القماش الصغيرة على حبل الغسيل فوق سطح دارهم من نافذة غرفتي منذ ثلاثين عاما، فأسرعت إلى الشارع واتجهت إلى الدار التي تقطنها مع أسرتها ولم اهتم بنداء والدها الذي يشرف على طلبات زبائن المقهى الذي يشغل الدور الأرضي من المبنى مع محل لبيع الفول والحمص .

أعرف طريق السطح . توقفت عن الغناء عندما وجدتني أمامها وأنزلت إزارها على ساقيها وذراعيها، اقتربت من سلة الغسيل وأخذت أساعدها كنت اختار الملابس الصغيرة ذات اللون المميز سرى ضحكها في جسمي كما شرارة لهب، فاستفزها ملوحا ببعض القطع الصغيرة قبل تمديده على الحبل وتطاردني عبر السطح .

ـ ماذا جاء بك

ـ لمحتك من نافذة غرفتي

ـ اعلم

ـ شيء دفعني

ـ إلى أين

ـ إلى هنا

كنا متجاورين نجلس على مقعد خشبي . بعد فراغ سلة الملابس وتبلل ثيابنا، كانت ترتعش، والعرق يتصبب من جبينها فأخذت امسحه بكفي وقد أسندت ظهرها ورأسها إلى الجدار المنتصب خلفنا، صدرها يرتفع وينخفض شعر رأسها القصير يندس تحت غطاء شفاف، أنزلت كفي فوق عينيها المغمضتين ثم فوق شفتيها وواصلت حتى هصرت صدرها .

كثيرة هي الأشياء المختفية في حياتنا . كان عام 1946م مرحلة انفصال حقيقي لجميع الأسر، لم يتبقى سوى الجذور التي تنتصب فوقها قامات تجردت من الغصون وتشقق عنها من عوامل الطبيعة اللحاء . ما عدى اسر تعد على أصابع اليد الواحدة ما زالت لها فروع مثمرة لم تتأثر حتى من عام 1956م ولكن نزفت الدم عام 1967م .

ـ مريم في هذا المقعد كان والدك يجلسني

ـ وقدم الشاي مجانا

ـ تعرفين

ـ كان يقول لنا

ـ إنما والدتك اينها

ـ نزحت مع أبناء عمها

كل شيء مهدم تملاء المكان عفنا . قررت الهجرة بعد أن بدل الاحتلال معالم القرية

ـ لماذا لا نتغذى

ـ وعمال المنجرة

ـ غيابك لا يؤثر في جدهم

الفرح الذي توقعته وأنا اجلس لم اجده . سافرت عشرين عاما ولما عدت كانت موجودة، ها نحن الآن اثنان وحيدان كل ما حولنا بقايا ذاكرة، كانت تتحرك وحديثها يتواصل قررت مشاركتها الحركة قادني صوتها جاء ظهرها للباب مكونات جسدها تدفعني لقراءة تفاصيله وتخمين لون سروالها الصغير، شعرت بلفح أنفاسي التفتت ضاحكة طوقتها بذراعي تقابلنا في قبلة تأجل تنفيذها أربعين عام .

الرواد يتقاطرون . لم أكن أتوقع أن هنا زبائن ورواد فهذا الجزء القديم من القرية مهجور، شعرت بالغربة ومريم تختفي واحدهم يتسلل إلى الداخل طال الترقب ليخرج ثم يتسلل أخر لم يطل مكوثه عاد وتطل مريم التف حولها الجميع .

ـ أعرفكم ياجماعة على رفيق الطفولة مازن اسرته جيراننا

انفرجت الوجوه التي لم تتجاوز رقم عشرة، مددت كفي التي هرب منها الدم مصافحا وغادرت المكان .

لم اعد أذكر ماذا حدث . دوى انفجار هائل التفت فزعا وواصلت الطريق، عربات العدو تطوق المكان يصلني أزيز الرصاص خطواتي ثابتة واحد . . اثنان . . واحد . . اثنان، دخلت المنجرة التي ورثتها مع إخوتي عن أبي حشرت جسدي خلف المكتب وطلبت من صبي المقهى الذي اقترب لما وجدني شايا وأرجيلة .

توقفت عربة الشرطة أمام باب المنجرة . ترجل منها الشرطي دخل المقهى ثم عاد وتجاوزني دخل ورشة المنجرة وخرج وهو يمسك بعامل تجاوزني الاثنان وركبا العربة التي غادرت الشارع بصوتها المميز .

أخرجت من جيب القميص منديل قماش لونه احمر . مسحت به وجهي وزجاج النظارة ولما أعدته إلى مكانه،أخذت اصدر صوتا كصوت القطار تركت مقعدي غادرت المنجرة متخذا مسار سيارة الشرطة غير مبالي بنظرات من اجتازهم .

* * * *

العشاء

أتوقف أحيانا على مفترق طريقين . الأول يؤدي إلى منزلنا القديم، حيث يسكن جدي وأسرة والدتي، والأخر إلى منزلنا الكبير المحاط بحديقة واسعة، سائق العربة التي أزاحم فيها إخوتي يتحدث إلى أحد أبناء جلدته وكأن أمرنا لا يعنيه .

لقد دب في تعاطف أنثى . بعد أن لمحت احدي زميلاتي بأنه جميل الطلعة فلم أتجاوز هذا الشعور إلى البوح وأخي يحل مشكلتي أحيانا بمرافقته عند الخروج .

ـ لقد تقدم أحدهم طالبا يدك

كان أبي هو المبادر بالكلام ونحن نتحلق حول التلفزيون نتابع مسلسل السهرة العربي .

ـ كل ما أعرفه انه ابن صديق أثق فيه

اعرف أن الكلمتين الأخيرة من عندياته لمعرفتي الكاملة بأسلوبه المجامل والذي أثر في الأسرة .

ـ شعرت بالفرح . . وحزنت لأنه سوف ينفصل من شجرة العائلة غصنا مورق

كنت اشغل نفسي بمراجعة الأوراق التي طلب مني تدقيقها قبل أن يعتمدها كشراء ومصروفات لمواصلة الإنتاج في الشركة التي نملك، استمراره في الحديث وصمت أمي ونظرات من يجلس معنا من إخوتي الصغار جعلني ألتفت نحوه ثم اقتربت منه .

ـ وماذا

ـ لم يتبقى غير رأيك

ـ ومن هو المتقدم

ـ رضاك من رضاي

ـ وأمي

ـ لا تعرف

ـ لماذا

ـ اليوم فقط فكرت في الأمر بجد

ـ والآن

ـ الأمر بيدك ويد أخيك خالد

اقتربت من امي . وأخذت أتذكر أشياء غابت عن ذهني، لماذا أمي لا تشاركنا حياتنا . . لماذا دورها دائم متأخر وكأنها من الأشياء التي في الإمكان الاستغناء عنه،ونحن نحس في نفس الوقت حجتنا لها .

أشغلني هاجس والدتي . لماذا أمي بعيدة ولم ندرك كأسرة ذلك حتى الآن، اخذ والدي الملف واتجه إلى غرفة النوم شعرت برغبة أن التحم بها واسند رأسي على كتفها وأنا مترددة إذا بخالد يدخل ويقبل رأس أمي ثم تمدد تاركا رأسه ينام على فخذها، يتابع معنا التمثيلية التي انتهت حلقتها فنهضت أمي كما هي عادتها إلى المطبخ .

ـ أمي ابقي في مكانك سوف أجهز أنا العشاء

ـ أنت

كان خالد الذي لم يرفع رأسه عن حضنها

ـ نعم

دفعت بسكينة رأس خالد مقربة إحدى المخدات . قاومها وأبقى رأسه في مكانه

ـ سوف ينقل مباراة في الدوري الايطالي

قالت أمي بصوتها الهامس

ـ ومالي

ـ سوف تتفرجين معي

شعرت أن في داخلنا أمر لا أدري كيف توصلنا إليه في هذه الساعة . تكوم إخوتي حول والدتي ودخلت المطبخ أعد العشاء، وصوت طلال مداح يصلني في إحدى أغنياته الجميلة ذات الإيقاع الراقص .

زل الطرب يا موجع الطار بالكف

فأخذت اردد معه الكلمات في عالم لا ينتمي إلى الحاضر .وخرجت من المطبخ وأنا أغني، لأفاجأ بنظرات الجميع ترمقني . كان الجميع ينصت لغنائي، وأمي تتحدث على غير عادتها، وكفها تعبث بشعر أختي التوءم ورأس خالد ما زال في مكانه بينما الصغار منصتين لكلمات أمي التي لا أدري مصدرها وغاب مبتداها بسبب وجودي في المطبخ

دقات قلبي ترتفع صداها يملأ المكان وهالة من النور تطوقنا، كل شيء يشع . . ستائر النوافذ . . جهاز التلفزيون . . الجدران . . المخدات . . حتى فراش الغرفة أصبح بساطا سحريا امتطى الهواء ونحن فوقه .

تجلت صورة السائق . وقد لطخ الدم وجهه وأصابع يديه، غادرت الغرفة ركضا تقافز إخوتي من حول والدتي صرخ خالد في مناديا ولحق بي هو وأمي ، فتحت باب غرفة النوم كان أبي يجلس خلف مكتبه مواصلا عمله جاءت بسمته الصغيرة المعتادة، ترك كل شيء وجلس بقرب والدتي .

المذيع يعلن ابتداء المباراة . رائحة شيء يحترق . تركت مكاني متجهة إلى المطبخ . الجميع يصرخ في احتجاج جماعي . . العشاء احترق . . العشاء احترق، وقد تلاشت المفترقات واختفت علامات الطريق .

* * * *

المعاق

سألني لماذا دائما تأتي متأخرا .

انه يسحقني بكلماته التي أدرك أن مصدرها السكر . ومع ذلك فضلت الصمت وأنا أرشف قطرات بقيت في قعر كأسي .

الغثيان يرتفع إلى أعلى . ونبع الكلمات يتفاعل في داخلي، وأنا انتظر انخراطه في البكاء كما هي عادته عندما تكون جلسة مثل هذه .

أخذ يتفحصني ثم قال

ـ لا أدري كيف أنت قانع بحياتك

- . . .

ـ غير من وضعك قبل أن يغتالك الزمن

- . . .

ـ الجميع يركضون وأنت تمشي بخطوات سلحفاة

ركزت نظراتي في كأسي الفارغة . وبقايا فقاعات ملتصقة بجدرانه، وقطعا بلورية تمتز في قعره .

قلت

ـ وهل أركض . . لقد حاولت مرة . . فكان الطريق شاقا

قال

ـ شاق في نظر المتسول

توجهت إلى الحمام . أفرغت ما في جوفي ثم حدقت في المرآة الاحتقان ظاهر على وجهي، ما زال كأسي فارغا كما تركته حبات الثلج البلورية ذابت .

مددت كفي إلى إناء المكسرات . مد كفه إلى القنينة وسكب بعض مابها في كأسي، تذكرت ماذا كنا منذ عشرة اعوام .

ونحن نتجول في الأسواق بحثا عن امرأة نتمتع بها . كنا نجد أناسا يؤخذون عنوة من متاجرهم . . وعربة محملة بذوي السحنة السوداء تقف ليسلب أصحابها المارة نقودهم، أصبح تجوالنا رصدا لهذه التصرفات .

ووجدنا آخرين يشاركوننا ذلك . واختلطت الأهداف فأنطلق عيار ناري استقر في جسد رفيقي أصبح معه مشلولا بعد علاج مرتبك في مستشفى حكومي، وإشعار بطردي من العمل للمصلحة العامة .

استطاع أن يحصل على معونة المعاقين . أما أنا فقد ركضت . . وركضت حتى جفت منابعي للعودة وواكبني الفشل .

شيء في داخله يشتعل يدفعه للبكاء . منذ عرفته إذا انسطل يبكي، لا أدري مصدر البكاء لم يبح منذ عرفته بسر حزنه، زحف إلى ركن قصي من الغرفة وتمدد وجهه مواجه للجدار وأخذ شخيره يتقطع .

أتجرع أفكاري تركني؛ هناك من يتلصص من الخوف بدأت اتقلص .

* * * *

الصلاحية

تلفت حوله باحثا عن موقف للسيرة أمام مبنى المؤسسة لمعرفته المسبقة بأن حارس البوابة لن يسمح له بالدخول .

فسيارته لا تحمل العلامة المميزة التي تحملها السيارات الجاثمة داخل الفناء، فالمواقف مرقمة ومحددة لا تستوعب سيارات الموظفين، فكان أحد ضحايا التميز الوظيفي، توقف مندهشا فالمكان مكتظ وهنا صرخ فيه البواب .

ـ ادخل لا تعطل حركة السير

الأمر مفاجيء . ولج الفناء كل المواقف مرقمة أي الأرقام يختار موقفا لسيارته، أنقذه صوتا يعرفه .

ـ احتل موقفي . فأنا في إجازة طويلة من اليوم

كان أحد موظفي المكتب الملاصق لمكتبه في الدور الرابع من البناية الشاهقة ذات المهام المتعددة .

صعد كما هي عادته السلم بدلا من استعمال المصعد . لأنه يحمل معه كل هموم العالم فيأخذ في مناقشتها ويطرح مع كل درجة في السلم يجتازها قضية .

ما أن استوى جالسا على الكرسي خلف مكتبه حتى طالع ورقة استدعاء مراسل المكتب لمراجعة قسم الملفات . وهذا تصرف ذكي من المراسل الذي لم يكن في الغرفة، أدار رقم هاتف الملفات

ـ سعيد عندكم

ـ . . .

ـ لماذا الاستدعاء

ـ . . .

ـ لإنهاء معاملة طي قيده الوظيفي

- . . .

ـ هل وصل الستين . . . الرجل نشط ومجتهد

- . . .

ـ التمديد غير ممكن . . والتعاقد يحتاج لإجراء جديد

اقفل الهاتف . انها زمالة عشرين عام في مكتب واحد، لم يفكر بالزمن وأن الأيام سوف تنفذ شرطها القاسي .

تعثرت خطواته في بقاء المستخدم سعيد . عند كل محاولة تصفعه كلمة الصلاحيات وصراحتها ولم يستحدث أرقام على بند العقود أو الأجر اليومي، في محاولة من المركز الرئيس يرشد فيها اليد العاملة بينما كمية العمل تتزايد .

وإيجاد موظفين برواتب أقل والبحث عن كوادر متخصصة وذات الخبرة في الانتقال من خلال تأخر العلاوات وتأجيل الترفيع من مرتبة لأخرى .

فكان عدم تعيين موظفين جدد بدلا من المتوفين والمحالين على التقاعد . أدى إلى تدني العمل وتأخر صرف المستحقات، وتلصص البعض وفق فجوات في الرقابة،لتطل الإشاعات ومظاهر الارتخاء وتبرز حالة تراكم النفايات في الممرات والأثاث الزائد والذي يحتاج إلى إصلاح، وقد خلت بعض الغرف والمكاتب من كائناتها الحية .

الحزن يتمدد وسعيد يكمل أوراق إنهاء الخدمة . وهو يفكر في إيجاد مصدر رزق جديد يساعده على مواجهة احتياج أسرته .

الأيام المتبقية من نهاية العام الأخير في حياة سعيد العملية تركض مستعجلة . وقد اكتمل إجراء طي القيد وقبل الموعد المحدد تغيب عن العمل .

أقلقه الغياب فتمزق من الداخل . ضاقت به الغرفة وصمتها وتقطع النبض تكومت الأوراق على المكتب وفي جنبات الغرفة تنتظر سعيد يوصلها، توهج من الداخل . . غادر المكتب لم يجد أحدا من الزملاء في طريقه الممرات مهجورة وأكياس القماش الأبيض مكومة أمام الغرف .

كانت سيارته الوحيدة الجاثمة في الفناء تجاوز البوابة التي شرعها الحارس . التف يمينا امامه وعلي الرصيف شبح رجل يعرفه، كان سعيد وبرفقته امرأة بجوار إشارة السير يمدون اكفهم استجداء للصدقة .

* * * *

الحافلة

انطلق باحثا عن عود ثقاب حتى يشعل طرف السيجارة . لم يكن يدخن ومع ذلك قام بشراء علبة دخان من كشك السندوتشات والمياه المبردة .

تلفت متفحصا وجوه ركاب الحافلة التي تنقسم إلى قسمين الأول للذكور والخلفي للاناث . وإذا بيد خلفه تمتد بقداحة سجائر مشتعلة، التفت إلى الخلف ولمحها من وراء الحاجز قد تكون واقفة بسبب الزحام . . قد يكون بصره تجاوز الحجب فلمحها مصادفة .

إنما وازع جديد في داخله دفعه إلى رفض إشعال السيجارة والاعتذار لصاحب القداحة بأن لوح بكفه اليسرى مثمنا التصرف . لم يكن يتوقع أن هذه الحركة سوف تصل إلى القسم الأخر من العربة، توقفت الحافلة في باحة السوق المركزية . أخذ الجميع يترجلون منها كان أخر المغادرين، تلفت حوله لم يكن هناك احد أشعره رجل الأمن بالغثيان الصور تتعاكس لا شيء واضح المعالم .

رفع كفه متحسسا جبينه . كانت السيجارة بين أصابعه تأملها مليا وبهدوء باعد بين الإصبعين، التي تحاصرانها فتمددت فوق الرصيف سحقها بمقدمة حذائه .

ما زال يشعر بالغثيان رجل الشرطة أصبح اثنان . . ثلاثة . . اربعة، عاد للحافلة جلس في مقعده السابق؛ انطلقت ادخلها السائق المرأب لانتهاء نوبته في العمل .

* * * *

العيد

دعني أشاركك الملل . صوت خافت ينبثق من داخلي وقد جلست وحيدا اقلب صحف اليوم، هناك من يبكي ودموعه كزبد البحر، وهنا غجرية تضحك ملء وجهها اثر مداعبة ماجنة من مشتر يحدق في شبق في عينيها وهو يساومها لشراء نقاب وشته أناملها بالقلوب وغطاء مخدة خاطته بخيوط قطن ملونه تجهل مصدرها .

لا شيء يساويني في الفراغ . هكذا أنا منذ رجعت إلى عادتي القديمة وهي الجلوس في الدار وحيدا، تشعلني جملة وتبعثرني مفردة كأني قشة في مهب ريح .

منذ زمن بعيد لا أذكر تاريخه جرى اختطافي . بعد أن أعترض مجموعة تم تمويه معالم وجوههم بصباغ عاكس عربتي، كل ما أحفظه كان الطريق طويلا ومتعب، حتى الإشارات والحديث الهامس بين الخاطفين لم تتمكن من التصدي للصمت .

ـ أهلا

ـ لا أدري كيف ابدأ

نبرات الصوت مألوفة . لقد كانت هي البحر الذي احلم بالسباحة فيه، غير أن خوفي من الغرق وجهلي بالسباحة فرضا علي البقاء على الشاطئ وملامسته بنظري .

ـ لا تدري وأنت إشكالنا

ـ إشكالكم

ـ هذا الطفل . . اشكالنا

كان يرشف شيئا ما من إناء جثم على الطاولة التي يجلس إليها في ركن من البهو الذي أقف فيه . جانب من وجه الطفل وابتعاد قدميه عن الأرض بسبب ارتفاع قوائم الكرسي يدلان على انه في الخامسة .

ـ ما أسمه

ـ نحن نناديه . . أسامة

ـ وهل استجاب

ـ نعم . . اخذناه من امرأة تمارس البغاء والتسول

ـ ماذا

ـ توقفت عربة على جانب طريق معتم . . لتمارس الجنس مع قائدها فتسلل الطفل إلى الحديقة المليئة بالألعاب الخشبية .

ـ انه ابني

ـ وهي

قررت الاتجاه نحوه . لكن قدمي لم تساعدني، الطفل يواصل لعق ذلك الشيء المجهول، كما أن وقوفي لم يثر انتباهه، نداء صاخب يدفعني إلى التحرك، لم يغير من جلسته وانحناء رأسه أو تحريك يديه، بينما لسانه مازال ممدودا منذ دخلت .

لقد كان تمثالا من الشمع . عندما توصلت إلى هذه النتيجة دبت الحياة في مفاصلي، قدمي تقودني إليه، المسافة ثابتة والصوت المألوف يستجوبني والجماعة الخاطفة ينسلون فرادى العرق تصبب من جبيني .

ـ الطريق تطاول

ـ لم يتطاول ولكن شاق

تلفت حولي كل الأشياء منحنية الأشجار البنايات العربات الناس . الشيء الوحيد الواقف هو أنا توقفت نظراتي عند قدمي فإذا بي لا أملك قدمين وساقين وأن ما يحملني ذرات تشبه غبار الرمل المحيطة بأعمدة النور في شوارع الرياض، وأنا أتأمل ذلك عندما لا أجد ما يشغلني .

ـ ها وصلنا

ـ لكن الطفل اختفى

خيط ضوء يطل من جانب البهو عبر باب موارب . وصوت أحاديث وقهقهات اقتربت من الباب غمرني الضوء كف صغيرة تتشبث بكفي وصوت اعرفه يهمس .

ـ أبي لقد تأخرت

كان أسامة الذي فقدته منذ أعوام ثلاثة بسبب حادث دهس سيارة مسرعة قتله وهو عائد للدار بعد شراء حلوي العيد من بقاله بالقرب من المنزل .

احتضنته وأنا أتفحص وجوه الحضور كلهم مجهولين حتى صاحبة الصوت المألوف لا أعرفها أفسح لي الجمع مكانا بقرب طاولة الأكل، أسامة الواقف اخذ ينحني وامرأة تنبثق من سقف البهو ملابسها براقة وحلي تتوهج تحفز انه يهرب انفلت مغادرا وأخذت أناديه والجميع يتمسك ببقائي في مقعدي .

أغلق الحضور المدخل مرحبين بالقادمة لما لمحتني رفعت كفها ملوحة . وصلت بعناء إلى الباب لم اعد أنا، هنا أخر في داخلي لمعت في داخلي كلمات وحروف لم استطع جمعها فقمعتها، عربتي أمامي والجمع خلفي أدرت المحرك انفجرت النار تطوقني جسدي يحترق الأشياء تختفي والطريق يمتد في صمت منتظرا من يعثر علي .

* * * *

الطريق

نخلة لا يزيد طولها عن متر ونصف ومئذنة مسجد صغير يرتفع فوقها هلال . وبالجوار مدرسة ابتدائية مكونة من ستة فصول في بناء متهالك يدل على فقر القرية التي لا تزيد مساكنها عن عشرين دار .

يحيط بالقرية من الشرق والجنوب مزارع صغيرة ومن الغرب يمر طريق زفت إلى الجبال . طلبة المدرسة يتحركون بهدوء وسكينة لوجود غرباء في غرفة المدير .

كان يقف وحيدا وثوبه الأبيض القديم . في التاسعة من عمره، أشار مدير المدرسة الذي يقف مع زوار المدرسة الغرباء .

ـ هذا طالب يستفيد من عربة النقل

غادر الغرباء المدرسة يرافقهم المدير سيارتهم . الصمت يطوف بسكونه على الجميع الطريق جبلي وعر، جرفته السيول وان مهدته دواليب العربات باستمرارية الرحيل .

قال أحد الغرباء

ـ ولماذا هذا الطريق

ـ لأن الطريق الأول قطع

لم يستفسر الغرباء عن سبب قطع الطريق السابق . حتى وصل الجميع إلى سكن جزء من طلبة المدرسة، البيوت القديمة من الحجر والجديدة المتهالكة من الطوب والخشب وصفائح الزنك متناثر على امتداد واد تكسوه الأشجار .

ـ هل يربي السكان الأغنام

ـ هي رحلة أبدية للبحث عن المطر

ـ كم المسافة بين هذه المساكن والمدرسة

ـ تقريبا عشرة كيلو

ابن التاسعة شعر برجوعهم فخرج من الفصل .

ـ هل وجدتم أحمد

كان احمد رفيق طريقه إلى المدرسة . عبر الطريق الطويل بعد قيام أحد الأمراء بتسوير الأرض المثمرة بإيعاز من مندوبه المجهول عزلت المدرسة عن منازل القرية المزروعة بين الجبال .

بعضهم يدعي أن إحدى ساكنات هذه المنازل تعرفت على شاب شاهدها يوما في سوق المدينة وعرف مندوب الأمير عندما تكرر وجود عربة بين المنازل هذه الصداقة، فأغرى السكان بطيب أخلاقه وسماحه لهم بالسقي من البئر التي حفرها في القرية بعد أن سور جزء لمعداته التي شارك بها في تمهيد الطريق المز فت حتى لا يعترض احدهم على استيلائه على ارضهم .

ونمت غريزة الاستيلاء بعد فشله في اكتشاف سر المرأة التي غادرت الوادي مع اسرتها . فكان أن زين للأمير الذي يخدم عنده بتمديد السور والتوسع مما قسم القرية وجعل الوصول للمدرسة شاق .

عادت المرأة إلى الوادي مع ابنها احمد الذي اختفى ذات صباح وهو في طريقه إلى المدرسة مد أحد الغرباء كفه مطبطبا على خد الصبي .

ـ ما أسمك ياولدي

ـ حمزة

ـ ومن . . أحمد

ـ ابن مزنه

دخل الغريب غرفة الإدارة . وقف أمام مكتب مدير المدرسة الذي انهمك بتوقيع بيانات نقل الطلاب ومراجعتها

ـ أين احمد

رفع مدير المدرسة رأسه . تأمل الفضاء الذي يتجاوز الباب المفتوح وإطار النافذة، وحدق في الغريب، ثم حني رأسه منكبا في عمله .

أقترب الغريب تفحص ما يكتب المدير . خطوطا متعرجة ومربعات ودائرة من أسلاك شائكة تحاول طمس وجه طفل طافح البشر، انبثق من بين الخطوط والأسلاك ليقف إلى جور رفيق الدرب المنتظر وحيدا في فناء المدرسة وسارا مجتازين السور الشائك إلى الجانب الأخر من القرية عبر الطريق القديم .

* * * *

مـــي

الم الغربة هذه المرة جاء قاسيا . برغم اعتياد السفر والهجرة إذ حل الاختناق، أنما هذه المرة شيء تجاوز المألوف .

تتعامل في داخله نوزع شتى . هل كان سفره قبل الاجتياح من محاسن الصدف، لكن التشرد القسر هو ما يؤلم .

لقد أكد حجز مقعد الطائرة على رحلة الرابع من اغسطس . هذه الوثائق التي يحملها لم تعد صالحة، هكذا قالت مي التي قالت إنها تعرفه وهي ترحب بتقربه مد يده فتداخلت الصور .

تذكر الطريق الذي يؤدي إلى المطار . ومبنى مقر العمل ضمن أفراد حامية المطار، ترى ماذا تبقى في الموقع وهل رحل الباقون

مي الشيء الوحيد الباقي بعد رحيل الجميع . كل المنافذ مغلقة بعد أن قالت مي انه يحمل وثائق ملغية .

اتجه إلى مبنى السفارة . الحزن يطوق الجميع قام بتعبئة استمارة إثبات وجود، حتى يتمكن من الحصول على المعونة .

سفارة الدولة المحتلة على بعد خطوات . دخلها قدم جوازه لموظف الاستقبال، أعاد الموظف الجواز له وطلب منه الرحيل .

ـ الم أقل تحمل وثائق انتهت صلاحيتها

ـ وكيف استعيد هويتي

ـ عندما تقر الأمم المتحدة الضم

ـ وإذ

ـ سوف تبقى

ـ وأنت

ـ مرشدتك السياحية

قالت ذلك ثم غادرت الشقة . لقد اعتادها إذا احتدم النقاش تغادره ليتحدث مع نفسه، مفسحة المجال لأن يتواصل حواره مع ذاته .

الأضواء تملأ القاهرة وصخب الحراك الذي أندغم فيه الإنسان . . بالألة . . بالنهر . . الشوارع صالات السينما والملاهي، أفكاره تمتد أمامه معلنة عما يتعامل في داخله، الوطن . . الأهل . . الأرض والناس، الصور التي يشاهدها في التلفزيون تجعله يهرب إلى حضن مي وكأس تساعده على الضياع .

شد احدهم كتفه من الخلف

ـ عماد . . عماد

لم يستوعب المفاجأة . احدهم أخيرا يعرف اسمه ويناديه في هذا الزحام، انهمرت دموعه التفت باحثا عن صاحب الصوت، جاشت عواطفه حلق في فضاء من النور وهو يحتضن رفيق العمل، الأشياء تتشكل عليه الآن أن يواجه مي بأن له اسما وأن وثائقه حقيقة .

ـ متى وصلت

ـ كنت في لندن . . البارحة وصلت

قاطعه متهجيا

ـ الوطن . . الناس

كان استفسارا يحمله الاثنان . دخلا مطعم وأخذهم الحديث وخرجا متجهين إلى مسكن رفيقه وجد آخرين يعرفهم، كلهم هنا دقق في الوجوه إنها هي . . مازن . . بدر . . فوزان وهذه مي، هذه مي ترقص، الدخان يملأ الغرفة .

أحس بالاختناق . الزحام يفجر رأس إذ تدخل مي ثانية تأخذها نشوى سيجارة الحشيش فترقص، ومي ثالثة ترفض سيجارة الحشيش فتتجرع قطرات من قنينة المشروب المنتصبة قرب التلفزيون وتداعت بجواره .

الأخبار تأتي كل ساعة . وقرارات مجلس الأمن تتوالى، انتقل مع رفاقه إلى الجبهة كان أول من دخل حاملا العلم لوح بجوازه سقطت منه صورة لمي وهي تقف في شرفة شقته سحقها بقدمه وهو يخالط جمع المستقبلين .

* * * *